أحمد إبراهيم الفقيه

الحالة الكَلبيّة لفيلسوف الحِزب

رواية

دار الفرجاني

أحمد إبراهيم الفقيه

الحالة الكَلبيَّة لفيلسوف الحِزب

رواية

دار الفرجاني

الحالــة الكَلبيَّــة
لفيلسوف الحِزب

أحمد إبراهيم الفقيه

(1942-2019) أديب ودبلوماسي ليبي، نال درجة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة إدنبره، وعمل بالمجال الصحفي منذ 1959، فرأس تحرير 12 مجلة. وهو صاحب أطول رواية عربية هي «خرائط الروح» التي تتكون من 12 جزءًا وتتناول تاريخ الاستعمار في ليبيا. من أهم اصداراته الثلاثية الروائية (سأهبك مدينة أخرى - هذه تخوم مملكتي - نفق تضيئه إمرأة واحدة). (خمس خنافس تحاكم شجرة) مجموعة قصصية، (غناء النجوم) مسرحية، (مرايا فينيسيا) مجموعة قصصية، (حقول الرماد) رواية. عمل سفيرا لليبيا في أثينا وبوخارست.

أحمد إبراهيم الفقيه

الحالة الكَلبيَّة لفيلسوف الحِزب

(هِجائيَّة في أنظِمَة الحِزب الواحد)

رواية

دار الفرجاني

دار الفرجاني
الطبعة الأولى 2023
جميع الحقوق محفوظة للكاتب أحمد إبراهيم الفقيه ©

ISBN 9789775496935 ردمك
رقم الإيداع: 25703 / 2022

9 ميدان الذهبي
منشيه البكري
القاهرة
جمهورية مصر العربية
Tel: +20224174701

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

استهلال وإهداء

أريد أن أستهلَّ هذه الصفحات باقتباس من الكلمة التي ألقيتها في مدينة أنطاكيا، عند احتفالنا بجائزة الاتحاد الحر لأدباء سوريا، بتوزيع جوائز مسابقة «المزرعة» للإبداع الروائي، سنة 2014، وقلتها باسم لجنة المحكَّمين في الجائزة؛ حملَت بعضًا من رؤيتي لطبيعة الفن الروائي، وخلاصة ما استفدته، بعد أن أسهَمتُ في هذا المجال باثنين وعشرين نصًّا روائيًّا، آخرها هو هذا العمل الذي أضعه بين يدي القارئ الكريم، حيث جاء في تلك الكلمة ما يلي:

«نعم، إنه الإبداع الادبي، وكلماته المنسوجة من لُحمَة الواقع وسُداه، وهو وحده القادر على تقديم هذه الشهادة عمَّا رأى، وعاش، وعايَن من مُكابَدات شعبه، ونقلها ليراها الناس، ليس من أهل هذا الجيل، ومُعاصِري الحدث، إنما يَعبُر بها الأجيالَ، ويعبر بها الأوطان، يعبر الأمكِنةَ والأزمنة؛ ليقدِّم هذه الشهادة الصادقة، التي تدين الجلَّادين، وترفع آيات التمجيد والإكبار للمناضلين.

الإبداع الأدبي لا يستطيع إلا أن يكون صادقًا، خاصَّة هذا الإبداع السرديَّ؛ قصيرًا وطويلًا. إنه حقًّا يقوم على الخيال، ولكنه خيال ينفذ إلى جوهر الحقيقة، ويقدِّمها إلى القارئ، بكلماتٍ تملك نبض الحياة، وتتنفَّس الواقع، وتعانق الحلم، إنه يقدِّم الحيوات التي عاشها أبطالُ قصته؛ واضحةً جليَّةً، كما لا تستطيع أن تفعل الكاميرا، وكما لا تستطيع أن تفعل الصحيفة أو وكالة الأنباء، وكما لا تستطيع أن تفعل كتب التاريخ؛ لأنها تقدِّم الصورة الخارجية، إذا كانت صورةَ خبر، تقدِّم الإحصائيات، وتقدِّم الوقائع باردةً، إذا كانت أسطُرًا في كتاب التاريخ، بحياد، وسرد جامد، مُجرَّدة من آهات الألم ونبضات القلب الملتاع، خالية من جسارة الروح في حالة تألُّقها واشتعالها، فهي هنا، أي هذه الأداة من أدوات التعبير، أكثرُ بلاغَةً وقوَّة وبراعة في توصيل الرسالة من أيَّة أداة أو وسيلة أخرى، أكثر من أيَّة أداة من أدوات البحث والتقصِّي؛ لأنها تستطيع النفاذ من سطح الأشياء إلى عمقها، واختراق المظهر إلى قلب الحدث أو الواقعة، وكسر القشرة الخارجية، وصولًا إلى ما يمور في الأغوار، وهذا هو التعبير الأدبي؛ قصَّةً ورواية، الذي نحتفى به اليوم، ونقيم من أجله هذه الاحتفالية، ونُكبِر كتَّابه ومبدعيه. إنها ميزة أعطاها الله لأصحاب الأقلام المبدعة، وهِبَة لا يستطيع أحدٌ آخر أن يغوص في الواقع؛ دمًا ولحمًا ونبضًا- مثل غوصهم، والتأريخ لمشاعر وانفعالات أهلهم، ونقل هذه الصورة الأمينة الصادقة عنهم، لتبقى زادًا للضمير الإنساني، وغذاءً للوجدان، وصرخة احتجاج تتردَّد عبر الأجيال، وإدانةً، ولعنةً تطارد الجُناة على مدى التاريخ».

وإذا كان لي أن أواصل تقليدًا سار عليه كثير من المؤلفين، وهو تصدير العمل الأدبي، بإهداء هذه الرواية إلى أبطال الثورة الليبية ضدَّ الطغيان؛ وشهداء ثورة 17 فبراير؛ باعتبارها روايةً تنتمي إلى الأدب الذي يدين الطغاة في الشرق والغرب، وفي مقدِّمتهم الطاغية الليبي، وهم مَن صنع ملحمة التحرير، وأنقذوا بلادهم من رَبقَة أبشع ما عرفته ليبيا من طغيان واستبداد، عبر تاريخها القديم والحديث؛ فإلى دمائهم التي رَوَت تراب الوطن، وإلى أرواحهم التي جادوا بها على مذبح الحرية؛ أُهدِي هذه الرواية.

في هدأة الليل وسكونه، ووسط هذه المنتجع الصحي الغارق في الظلام، المحاط بحديقة تمتدُّ لعدَّة أميال من جهاته الأربع، موصولة بغابة تنطلق منها الأصوات المفزعة لوحوش الافتراس، التي تقطن الجزء المسمَّى «سافاري بارك»، إلَّا أن ما وصل إلى مسامعي في هذا الهزيع الأخير من الليل، لم يكن عواءَ ذئب، أو زئيرَ أسد، كما سمعت في مرَّات سابقة، ولكنه صوت كلب، بدأ خافتًا بعيدًا، ثم صار يقترب ويرتفع، ويواصل اقترابه وارتفاع نبرته، بوتيرة سريعة، ليطرد النعاس من عيني، ويعيدني إلى حالة اليقظة التي بذلتُ جهدًا كبيرًا للخروج منها، والدخول في حالة الاسترخاء والنعاس، وكان أوَّل ما أثار انتباهي في هذا النباح الذي لم أسمع بمثله في إقامة سابقة في هذا المكان، والذي يداهمني الآن في أول ليلة من إقامتي الثانية في مصحَّة «آنا أصلان» الشهيرة، في بوخارست، هو هذه الشحنات العاطفية الانفعالية، وهذه التلوينات في الأداء، والانتقال بين اللوعة والألم والحزن والحُرقة، وبين التَّشنُّج العصبي، والهدوء الممزوج بالتوتُّر، والتي يحملها صوت الكلب في نبراته، فهو نباح على غير عادة النباح الذي نعرفه صادرًا عن الكلاب، بتوتُّر، مُتشابهًا، رتيبًا، خاليًا من مثل هذه التلوينات الانفعالية الوجدانية، وليس مَثَلًا، كما تموء القطط ذلك المواء الذي يأخذ، في أحيان كثيرة، أشكالًا حزينة، تثير الشفقة، ويأخذ في أحيان أخرى، شكلَ النداء الشَّبقي، الجنسي، الذي يثير الغريزة، مُعبِّرًا عن هيجان العواطف عند اشتياق القِطِّ لأنثاه، أو القطة الأنثى لرفيقها الذَّكَر.

لأول مرة أعرف أن للغة الكلاب هذه التلوينات العجيبة، وهذه التعبيرات الواضحة الصريحة، فقد جاء نباح الليلة حزينًا، فاجعًا، كأن الكلب الذي يطلقه، يندب حبيبًا غيَّبه الموت، مُعبِّرًا أعمقَ وأبلغَ تعبيرٍ عن عمق الإحساس بالكارثة التي حطَّمَت قلبه، واستخرجت من أغوار وجدانه هذا النباح الذي يشبه آهاتٍ حَرَّى، يزفرها قلب كليمٌ، بائس، يائس، يعاني حرقة الفقد ولوعته.

اقترب النباح، وازداد تواترًا وارتفاعًا، حتى ليكاد الكلب الذي يطلقه أن يكون داخل الغرفة؛ فنهضت مفزوعًا من سريري، وأضأت النور، ليغمر الغرفة التي كانت تغرق في ظلام حالِكٍ. ونظرت عبر الستار الشفاف، الذي ينسدل خلف الباب الزجاجي، إلى الشرفة المطلَّة على حديقة المنتجع، فلم أتبيَّن أثرًا للكلب الذي ما زال يمزِّق سكون الليل بنباحه الفاجع، فأزحت الستار، وفتحت «ضلفة» باب الشرفة، ببطء شديد؛ لكي لا تلفحني الأنسام الباردة، وأنا ما زلتُ أحمل دفء الفِراش في عظامي، حتى تآلَفتُ مع برودة الجو الخارجي، وخطَوتُ أولى خطواتي داخل الشرفة ملتحفًا بالروب، مُمسِكًا بشدَّة على فتحة الصدر؛ لكي لا يتسرَّب منها تيار الهواء البارد الذي يصنع الأمراض التي تصيب جهاز التنفس، أبحث عن مصدر النباح، لأجد أن مصدره الشرفة المجاورة، التي لا يفصلها عن شرفة غرفتي غير جدار لا يزيد ارتفاعه عن متر ونصف. لم أجد كلبًا في الشرفة، ولكنني وجدت رجلًا، يرتدي بيجامة أنيقة، ذات خطوط بيضاء وزرقاء، يلمع قماشها الحريري، تحت الضوء الساطع لمصابيح الشرفة، يمشي على أربع كما تفعل الكلاب، ويصدر هذا النباح الفاجع الملتاع، وقد انسدَلَت خصلات شعره الأشقر الباهت، الذي فَقَدَ بسبب الكهولة تألُّقَه، وصار يقترب من اللون الرمادي، وقد تشنَّجَت ملامح وجهه، كمن يعاني ألماً عظيمًا، ويصدر نباحه المتواصل، الممدود، وهو يهزُّ رأسه شمالًا ويمينًا، وأعلى وأسفل، في

حركات ذات طابع عصبي، تنمُّ عن حالة متقدِّمة من السعار والجنون، وقد تجمَّعَت رغوة بيضاء حول شفتيه، معطية هذا الجزء من وجهه، مظهر كلب حقيقي.

أفزعني ما رأيت، وأسرعت بمغادرة الشرفة قبل أن يراني، ويبحث عن طريقة يقفز بها، بطريقة كلبية إليها، ليعقرني وينقل لي جنونه ومرضه، فهو بلا شكٍّ ضحية لعضَّة كلب مسعور، أصابته بداء الكلب. دخلت إلى دفء الغرفة وأمنها، وأحكمت إغلاق باب الشرفة، وأسدلت خلفه الستار، وأطفأت النور، ورجعت إلى سريري، أحاول أن أستعيد حالة النعاس التي هربت مني، وربما لن تعود هذه الليلة أبدًا، طالما استمرَّ هذا النباح الذي يشبه النواح، إلَّا أن النباح توقَّف بعد فترة، وجاء النوم، لأصحو منه مع دخول أنوار الصباح إلى الغرفة، منزعجًا ممَّا سمعت ورأيت في الليلة الفارطة، خائفًا من هذا الجار الذي لا أمان له، فأمامي، بعد أن أخذتُ حمامي، وانتهيت من حلاقة وجهي- أن أخرج إلى صالة المطعم، الموجودة بالطابق السفلي، أتناول بها إفطاري، ولكنني أخشى إن خرجتُ أن ألتقي به خارجًا هو الآخر من غرفته، يسيل لعابه المسموم فوق ملابسه، ويعلم الله ما يمكن أن يحدث من رجُلٍ مثله لا يتحكَّم في عقله وأفعاله، فَصِرتُ أفتح باب الغرفة ببطء، بادئًا بانفراجة صغيرة أراقب منها الممرَّ، الذي كان خاليًا صامتًا، وكان هذا الصمت وهذا الفراغ يضيفان عليه جوًّا من الرَّهبة، تنتقل إلى فكري، وتصيبني بحالة من الشلل؛ فلا أعرف ماذا أفعل، حتى أسعدني الحظ بأن أرى ممرِّضةً تظهر في الممرِ تحمل في يدها ملفًّا، تهزُّ استدارتها الخلفية، وتتهادى فوق البساط الأحمر بخطوات ذات إيقاع، فأسرعت بترك الغرفة، وركضت خلفها، حتى وصلت بمحاذاتها، وأنا ألتفت نحو باب غرفة جاري؛ خوف أن أرى الرجل المسعور يخرج في ذات اللحظات منه، إلا أن الباب كان مقفلًا، وبقي مُقفَلًا حتى هبطتُ مع الممرضة إلى الطابق السفلي، حيث قاعة الطعام العامرة بروَّاد المنتجع. اخترتُ طاولة صغيرة بجوار النافذة، حيث أشجار الحديقة وأعشابها تسبح في بهاء نور الصباح، في هذا اليوم

الإبريليِ الجميل؛ ممَّا أعاد إلى مزاجي شيئًا من الانتعاش، وأزال عنه ظلال الكروب التي عايشتُها ليلة البارحة.

جلستُ بعد أن أحضرت من البوفيه المفتوح طبق العجَّة، وفنجان الشاي، أتناول إفطاري دون أن أنتبه للجار الذي يجلس مباشرة في الطاولة المجاورة، ويخفي وجهه في صحيفة رومانية يُطالِعها، إلَّا أنه ما إن وضع الصحيفة ليرتشف جرعة من فنجان قهوته، وظهرت أمامي ملامحه، حتى أُصِبتُ بما يشبه الصَّعقة، التي تحدث لإنسان لامَسَ تيَّارًا كهربائيًّا عاليَ الضغط؛ فقد رأيتُ في ملامح الرجل وشَعره الأشقر الرمادي ملامحَ الرجل الكلب الذي رأيته يقطع الشرفة ذهابًا وإيابًا، ماشيًا على يديه وقدميه، ويطلق في الفضاء نباحه الملتاع. نهضت واقفًا قبل أن تعود إليه حالته الكلبية، وغادَرتُ صالة الطعام إلى غرفتي، متخلِّيًا عن تمارين الصباح التي نقوم بها بعد الإفطار في غرفة الجمنيزيوم، منتظرًا مرور طبيب الدورية الدكتور «فالي»، الذي يمرُّ مرورًا روتينيًّا على غرفتي عند الساعة العاشرة كل يوم؛ للاتفاق على برامج الساعات المتبقية من اليوم، وعندما حان موعد مجيئه، وسمعتُ دقَّاته على الباب، لم أفتح له قبل أن أسمعه يؤَكِّد لي أنه الدكتور، الذي يتحدَّث لغة إنجليزية سليمة؛ فهي لغة التواصل بيني وبينه. وقبل أن يبدأ الحديث عن برامج اليوم، أبلغته بما أصابني من قلق ليلةَ

البارحة، بسبب النباح الذي اكتشفتُ أنه صادر عن رجل مسعور يسكن في الغرفة المجاورة لي، وإنني -لدهشتي البالغة- وجدتُ الرجل يجلس بجواري عند تناول الإفطار؛ ممَّا جعلني أترك إفطاري وأعود إلى غرفتي، مُبديًا له استغرابي من أن يأوي المنتجع مريضًا مثله، مكانه عيادات أمراض السعار، ثم يتركه يتحرَّك بحرية بين زبائن المنتجع، ويتناول معهم إفطارهم في صالة الطعام، دون اعتبارٍ لما يمكن أن يحدث من كوارث على يديه لهؤلاء الزبائن، إذا ما عاوَدَت الرجُلَ الحالةُ الكلبيَّةُ السُّعاريَّة الهستيرية، كالتي رأيتها بنفسي في الليلة الماضية، وأبلغته بأنه لم يخدعني مظهره الوادع، وهو يقرأ صحيفته مع الإفطار؛ فهي حالة مُفتعَلة، صنعَتها الأدوية وعقاقير التهدئة، التي لن تفلح في إبقائه طويلًا في هذا المظهر الوادع، وكان أول ما قاله الدكتور هو أنه يريدني أن أطمئن بأن الرجل ليس مصابًا بالسعار، ولم يتعرَّض لعضة كلب مريض، كما تهيَّأ لي، وإنما هي حالة عصبية أصابت رجلًا من أصحاب العقول الكبيرة، أجهد عقله كثيرًا في حلِّ عظيم المعضلات، حتى أصابت هذا العقل حالة من التعب والإجهاد الطارئ، جاءته نتيجة الصدمة التي أحسَّ بها عندما فقد كلبًا عزيزًا يبادله المحبة والثقة، بعد أن ضربته سيارة مسرعة، بجوار إحدى المنتزهات؛ فلم يجد طريقة يعبِّر بها عن بالغ حزنه، إلَّا أن يتماهى مع عالم الكلاب، وكأنه أصبح واحدًا منهم، ويحاول أو يتفاهم معهم ويتواصل مع أبناء جنسهم، باللغة التي يفهمونها، وينقل إليهم، بإحساس فاجع، نبأ المصاب الأليم، الذي أصابه، والرُّزء الكبير، الذي مُنِيَ به عالم الكلاب، وهي حالة معروفة في علم النفس، وهناك علماء أطبَّاء يعرفون أسرارها، ويباشرون التعامل مع هذه الضحية من ضحايا هذه الحالة، وسيشفى منها. ورغم ارتياحي لما قاله عن أن حالته ليست سُعارًا، ولا تشكِّل خطرًا على الآخرين، فإنني استغربت لوجود هذه الحالة في منتجع للاستشفاء والنقاهة، بدلًا من وجوده في عيادة نفسية، تُعنى بضحايا الأمراض النفسية والعقلية ممَّن هم في مثل حالته، وأفصَحتُ له عن هذا الرأي، فرأيته يلتفت يمينًا وشمالًا، رغم وجودنا منفرِدَيْن في الغرفة، ويبقى صامتًا للحظة وجيزة، كأنه يشاور نفسه عمَّا إذا كان من سلامة التفكير أن يصارحني بما في سريرته، ثم ينحني نحوي، ليدسَّ رأسه في رأسي، ويخاطبني هامسًا، قائلًا بأنه لن يكون دعايةً طيِّبةً للحزب، وللأيديولوجية الشيوعية -التي يعتنقها- إذا عرف الناس أن فيلسوف الحزب وصاحب الأطروحات التي تُعنَى بتجديد أفكاره، وتطويرها، وتقديمها للهيئات العليا في الحزب؛ لصياغتها في سياساتٍ وقراراتٍ وقوانين- يتلقَّى العلاج في مستشفى المجانين؛ فالرجل الذي يسكن الغرفة المجاورة ليس إلا البروفسور «فلوريان بوبيسكو»، فيلسوف الحزب الشيوعي الروماني، وصاحب الكلمة العليا فيه، بعد أمينه العام السيد «شاوشيسكو»، وأنه هنا لمجرد النقاهة والتحضير لكتابه الجديد في هذه الأجواء الشاعرية الهادئة التي يتيحها منتجع «آنا أصلان» العالمي لضيوفه ومريديه، فلا أحد يعرف بحقيقة مرضه، عَدَا الأطباء الذين يعالجونه، وأغلبهم من خارج المنتجع، بل إن قليلين من أهل البلاد يعرفون بوجوده أصلًا هنا، اعتمادًا على أن المنتجع، منتجع عالمي، غالبُ روَّاده من أغنياء العالم القادمين من خارج رومانيا، ممَّن لا يعرفون السيد «بوبيسكو»، عندما يختلط بهم، كما حدث معي، رغم أنني أعمل ضمن البعثة السياسية لبلادي في بوخارست؛ وهو ما أتاح لي أن أختلط بالأغنياء في هذا المنتجع بحجَّة العلاج الذي تدفع ثمنه البعثةُ لأعضائها، مهما كان غالي التكلفة، إذا جلب من طبيب البعثة المعتمد ما يفيد بأنه بحاجة لهذا العلاج، وهو ما فعلته؛ حتى يتأتَّى لي الدخول إليه، لإنقاص بعض الكيلوات من وزني الزائد. وهو وزن ساهم في إنقاصه قلق البارحة، دون

حاجة لعناية الدكتورة «أصلان»، مديرة المصحة، وعقاقيرها المعنيَّة بإذابة الشحوم واللحوم. وخطر لي أن أتأكَّد من المعلومات التي قالها لي الدكتور فالي، من الممرضة «ريلكا»، التي تأتي لإعطائي حقنة الفيتامينات؛ تعويضًا لقِلَّة الطعام في الوجبات التي يقتضيها الروتين الصارم للريجيم في المنتجع على ضيوفه، والتي تجيد، مثلها مثل كل أعضاء الطاقم الطبي في المنتجع، اللُّغةَ الإنجليزية، فسألتها بطريقة جعلتها تبدو عفويَّةً عمَّا تعرفه عن فيلسوف الحزب، الذي أسعدني الحظ بأن أكون في الغرفة المجاورة له، وهو يختار هذه العيادة لإنجاز مشروعه الفكري الجديد، فإذا بها تنفجر ضاحكةً، قائلةً بأنني مخدوع مثل الآخرين في أنه فيلسوف جاء لتأليف كتابه الجديد في منتجع «آنا أصلان»، بينما هو في الحقيقة مجرَّد كلب من كلاب الرئيس، تحوَّل من كلب بشري إلى كلب حقيقي، يمارس العواء بطريقةٍ أكثر شراسة وقُبحًا من الكلاب نفسها، وسألتها عمَّا إذا كان هذا المرض حصل له بسبب حُبِّه للكلب الذي فقده في حادث سير، فقالت بأن هذه أيضًا كذبة أخرى؛ لمعالجة الخبر إذا تسرَّب لأبناء الشعب، باعتباره رجلًا مُرهَفَ الحِسِّ، يأسَى ويتأسَّف ويحزن لمصير الكلاب، بينما هو أحد الذين شاركوا في المذابح التي تُقام للمعارضين، ولم يصل إلى مركزه الكبير إلَّا بالعمل جاسوسًا وبوليسًا وقوَّادًا لرئيسه؛ فمن أين تأتي العاطفة ويأتي العطف له، أو لغيره من أصحاب القلوب الحجرية، فاجأني كلامها وثورتها، وأبديتُ لها خوفي من أن يعرف البوليس السري الروماني بمثل هذا الكلام الذي تقوله، فقالت بأنهم يعرفون رأيها، ولن يستطيعوا أن يفعلوا لها شيئًا لأن جدَّها لوالدها كان زعيمًا في الصفوف المعادية للشيوعيين، وعند انتصارهم شنقوه، مع غيره من زعماء المعارضة، في الميدان، الذي أسموه ميدان النصر؛ ولذلك فإن الدولة تعرف مشاعرها، وتضع عائلتها في مصاف الأعداء، ولا تنتظر منها أي تأييد أو مناصرة، بعد أن صادرت أموال عائلتها، وممتلكات جدِّها، ووصل الأمر إلى حدِّ طردها من كلية الطب، فلم يبقى لها إلَّا الاشتغال ممرِّضة، وعندما أشرت إلى أهمية الرجل ومكانته العالية في رومانيا باعتباره فيلسوف الحزب؛ ضحكت مرة أخرى، من أنني صدَّقتُ أن هناك حزبًا، وفيلسوفًا، ورجالًا لهم مكانة عالية؛ لأنه لا وجود لغير عصابة يقودها العَرَّاب الأكبر، السيد «شاوشيسكو»، وما عداه مجرَّد أصفار، لا رأي لهم، ولا مكانة، وإنما دُمًى خشبية لإكمال ديكور الدولة، ولا وجود لشخصٍ ثانٍ بعد الرئيس سوى كلبه «بوبي»؛ فهو الذي يحسده رجال الدولة، أمثال «فلوريان بوبيسكو»، على مكانته؛ لأنه إذا مرض الكلب «بوبي» تسهر الدولة كلها لمرضه، وإذا خرج إلى الشوارع للفسحة في السيارة الرئيسية، أوقف له رجال الشرطة المرور ورفع الناس له قبَّعاتهم، وهو الذي تُفتَح خزائن الدولة للصَّرف على سياحته وألعابه ورفاهيته؛ ولهذا فإن رجال الدولة يحسدونه ويتمنَّون أن يكونوا مثله، وما المرض النفسي الذي أصاب مَن يُسمُّونه بالفيلسوف، إلَّا تعبيرًا عن رغبته في أن يكون كلبًا مثل كلب الرئيس، وكبرت الأمنية في خياله، حتى تحوَّلَت إلى هَوَسٍ وجنون، وحالة هستيرية يرى فيها نفسه كلبًا يسلك سلوك الكلاب، ويمشي كما تمشي الكلاب، وينبح كما تنبح الكلاب.

الحقيقة أن كلام الممرضة «ريلكا»، ومن قبلها الدكتور «فالي»، أثار فضولي للتَّعرُّف أكثر على هذا الشخص المثير، وعقَدتُ العزم على أن أتعرَّف إليه طالما إنه موجود في هذه الإقامة الفندقية، تحت غطاء أنه يؤلِّف كتابًا عن قضايا التجدُّد

في الأطروحات الماركسية، فمَن تراه أفضل منه لمحاورة دبلوماسي أجنبي يريد توثيق اتصاله بالنظريات التي تحكم هذا المجتمع، بأمل أن يستفيد منها ذات يوم في تطوير مجتمعه، الذي ينتمي للعالم الثالث، هذا هو المظهر الذي أردت أن أظهر فيه لفيلسوف الحزب، في حالته الصباحية الهادئة التي يرتدي فيها قِناعَه الرسمي، ويتصرَّف فيها تصرُّفًا طبيعيًّا بفضل الحُقَن والعقاقير المهدِّئة، تكرَّرَت أثناء الليل حالة النباح، فلم تكن لتثير هذه المرة خوفي ولا فضولي، وتعمَّدتُ في صباح اليوم التالي أن أكون أوَّلَ مَن يدخل صالة الطعام لتناول وجبة الإفطار؛ لأتَّخذ لنفسي مكانًا بجوار الطاولة التي رأيتُ الفيلسوف المكلوب يجلس فيها، وأسبقه إلى هناك؛ ليكون سهلًا أن أتلقَّاه بالترحيب؛ تمهيدًا لفتح باب الحديث فيما بعد، وفعلًا، صدَقَ حَدْسي؛ إذ توَجَّه إلى ذات الطاولة، وقبل أن أباشره بالتحية وجدته يطلق تحية الصباح بلغة إنجليزية؛ اعتمادًا على أنني لا بُدَّ أن أكون ضيفًا أجنبيًّا، كغيري من ضيوف المصحَّة، فرددتُ عليه التحية بابتسامة عريضة ووقفتُ ترحيبًا به، ولم أجلس حتى اتَّخذ هو أيضًا مجلسه، ولم أشأ أن أشغله عن تناول إفطاره، وانتظرت حتى انتهي منه، وقبل أن أجد فرصة للكلام، رأيته يفتح واحدة من كومة الصحف التي جاء بها معه، ويستغرق في القراءة، ولكي لا يضيع الوقت، وتنتهي حصة الإفطار، دون أن أفوز بحديث معه قرَّرتُ أن أقاطعه، وهو يقرأ، بكلام لا يكون غريبًا على جو الجلسة، فقلتُ له: «أرجو أن تكون الأخبار التي تنقلها الصحيفة، أخبارًا جيدة»؛ فقال، دون أن يرفع رأسه عن صحيفته: «لا أدري إن كنَّا نستطيع أن نُسمِّيها أخبارًا جيدة؛ لأن الأخبار الصحفية -كما تعلم- تتغذَّى دائمًا على الكوارث والمآسي، ولا تنقل إلَّا أخبار الصراعات والحروب والحوادث الفاجعة». ابتسمتُ لنفسي ابتهاجًا في أنني نجحت في اختراق صمته، وإرغامه على الخروج من عُزلَته وتَبادُل الحديث معي، عاد للاستغراق في صحيفته، وتلفَّتُّ حولي، فوَجدتُ أن أغلب زبائن الصالة قد أكملوا تناول إفطارهم، ولم يبقَ عدايَ أنا وهو، إلا ثلاثة أو أربعة يتناثرون في الزوايا البعيدة. وما إن وضع جريدته جانبًا ليلتقط صحيفة أخرى حتى نهضتُ من مقعدي أمدُّ له يدي، ذاكرًا له، وأنا أقدِّم نفسي، اسمي وصفتي في السفارة التي أعمل بها، واستأذنتُ في أن أجلس بجواره، دون أن أعبأ بالتَّقطيبَة التي ظهَرَت بين حاجبيه، مُعربًا له عن مدى سعادتي وأنا أكتشف أنني أجلس بجوار السيد «فلوريان بوبيسكو»، الفيلسوف المعروف، والمُنَظِّر الاشتراكي الذي يقدِّم، بفيوض علمه، إضافاتٍ لهذا الفكر الذي أنار دروب العدل والمساواة أمام البشرية، ولاحظتُ أن التقطيبة زالت من بين عينيه، وانفرجت ملامح وجهه عن ابتسامةٍ تُعبِّر عن إحساسه بالرضا عمَّا أقول، فواصَلتُ حديثي قائلًا بأن بلادي، التي تنتهج الطريق الاشتراكي، ترنو دائمًا للأفكار الجديدة في هذا المجال؛ ولذلك فإنني راغب في أن أسأله عمَّا إذا كانت كتبه عن الاشتراكية، التي أعرف أن صدورها يتواتَر عامًا بعد عام باللغة الرومانية، قد وجَدَت طريقها إلى الترجمة باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، لكي يسهل بالتالي نقلها إلى العربية؛ لوجود وفرة في المترجمين بهاتين اللغتين، وأمسكت عن الكلام أنتظر جوابه عن كلامي، لكنه لم يجب مباشرةً عن السؤال، وإنَّما آثر أن يفصح عن شكوكه فيما نسمِّيه اشتراكيَّةً في العالم العربي، قائلًا بأن كلمة اشتراكية كلمة خادعة، مُستخدمًا الكلمة الإنجليزية illusive، التي تعني شيئًا أكثر دقَّةً من الخداع، أي أن الاشتراكية كلمة تقود إلى التيه، ويكفي -حسب تعبيره- أن هتلر كان يسمِّي حزبه «الحزب الاشتراكي الوطني الألماني»، الذي يرمز له بالنازية، ويراه كلامًا غير صحيح ما تردِّده الأدبيات العربية عن وجود أكثر من صيغة للنظام الاشتراكي؛ فلا

اشتراكية غير الاشتراكية العلمية، ولا تنظيم غير التنظيم الشيوعي؛ ولذلك فإنه لا أهمية لأن أعرف أن كتبه تُترَجَم إلى الإنجليزية أو لا تُترَجَم؛ لأن هذا النوع من الاشتراكية الذي تروِّج له الأنظمة الثيوقراطية، التي تحكم بعض البلدان العربية، وبلدان العالم الثالث، لا سبيل أمامها كي تستفيد من كتبه، يكفيها، كما قال ضاحكًا، أن تبحث عن الاشتراكية في كتبها الدينية، فتسمِّي اشتراكيتها الاشتراكية الإسلامية، أو الاشتراكية النصرانية، أو اليهودية، مع أن أول شروط الاشتراكية في شكلها الحقيقي هي تناقُضها تناقُضًا جوهريًّا وأساسيًّا، مع البُعد الديني للتعامل مع المعضلات التي يعاني منها العالم، بل إن الدين يشكِّل في حدِّ ذاته إحدى هذه المعضلات.

قضم قضمةً من كعكة الكرواسا، وارتشف رشفة من فنجان قهوته، الذي لا بُدَّ أنه صار باردًا، ورغم أن كلماته استفزَّتني إلى حدِّ الغضب، فإنني كتمتُ غيظي؛ لأنني رأيت أن ليس من المناسب أن أظهر هذا الغضب، إزاء تخرُّصاته الحقيرة ضد الأديان، وبالذات ديننا الحنيف، مع أنه كان بإمكاني أن أُظهِر له جهله بحقائق هذا الدين، الذي سبق نبيَّه «ماركس» بأكثر من ألف ومائتي عام، بالحديث عن المساواة بين البشر في الحقوق والواجبات، بل أكثر من ذلك: كان بإمكاني أن أُظهِر له أنني أعرف أنه مريض بذلك المرض الذي أحاله لمجرد كلب من الكلاب، كلب حقيقي، وليس على سبيل المجاز، ولكنني آثرتُ أن أتحكَّم في أعصابي، لا خوفًا منه؛ فأنا أحمل معي حصانتي الدبلوماسية، التي تمنعه من أن ينالني بأي أذى، وأقصى ما يستطيع فعله، هو أن يأمرني بالخروج من بلاده، لأنتقل إلى بلد لن يكون أسوأ من رومانيا، بما تعانيه من تقشُّف، إلى حدِّ أن الخبز نفسه يصبح بضاعةً نادرة، يقضي الواحد عددًا من الساعات وهو يبحث عن فرن أو متجر تتوفَّر فيه بعض الأرغفة، ومراعاةً لهذه الاعتبارات أصبحت دول مثل بلادي لا ترسل إلى رومانيا إلا العُزَّاب، وترسل أصحاب العائلات إلى بلدان أخرى؛ إشفاقًا عليهم من المعاناة التي سيلاقونها في إطعام عائلاتهم. وبهدوء قُلت له بأن تصحيح هذه المفاهيم واجب، يقع على فلاسفة الاشتراكية من أمثاله، خاصة ونحن نعرف العلاقة الوثيقة الحميمة لأمين حزبه، ورئيس دولته السيد «شاوشيسكو»، بزعماء وقادة الوطن العربي، ولا شكَّ أنه رافقه في رحلاته إلى البلدان العربية، وشارك معه في المحادثات التي جرت بينه وبين كبار المسؤولين فيها، فتفحَّصني بنظرة ثاقبة، كأنه يستغرب أن يكون مثلي ينتمي للسلك الدبلوماسي، قائلًا إن تغيير أفكار الحكام، ليس مكانها مثل هذه الزيارات البروتوكولية التي تقتصر مَهمَّتها على تمتين العلاقات السياسية بين البلدين، واضعين في الاعتبار احترامَ الاختيارات الفكرية والسياسية لكل بلد، وقد يأتي وفد من أمريكا ليزور رومانيا، دون أن يكون في اعتباره إقناعنا بنظامه الرأسمالي، أو نذهب نحن لزيارة أمريكا، أو أي بلد رأسمالي آخر، دون أن يكون واردًا في اعتبارنا إقناعه بنظامنا الشيوعي؛ فهذه أفكار مكانها الكتب، فأبدَيتُ له رغبتي في توسيع مطالَعَتي حول هذه المواضيع، وفهم الطريق الحقيقي للاشتراكية، فقال وهو ينهض من كرسيه مُتَّجِهًا إلى باب الخروج من المطعم، يمكنك طبعًا أن تفعل ذلك لانتفاعك الشخصي، ولكن حذارِ من أن تتوغَّل أكثر من اللازم في فهم الاشتراكية؛ لأن الحُكَّام في بلدانكم –حسب علمي– يخشون هذا النوع من الناس، المقتنعين بالاشتراكية العلمية، كمنهج وطريق في الحياة، ويضعونهم في السجون. تبعته وهو يتَّخِذ طريقه إلى حديقة المصحَّة، ولم أقُل شيئًا؛ إذ إنني لا أستطيع –وفق طبيعة عملي الدبلوماسي– أن أوافق على مَن يتهم بلادي بسجن الناس من أجل انتماءاتهم الفكرية، وفي ذات

الوقت لم أكن أريد أن أعارضه؛ لأن هدفي هو أن أكسب ودَّه، وأصل إلى معرفة الظروف والملابسات وراء مرضه، إن لم يكن إشباعًا لفضولي الشخصي، فمن أجل تقرير أكتبه لوزير الخارجية في بلادي، وأرسله بالشفرة السرية، أو أحمله بنفسي إليه، لأكشف له عن مثل هذا السِّرِّ الخاص بمرض فيلسوف الحزب، والدوافع والأسباب التي أوصلته إلى هذا المرض؛ فهو بالتأكيد ملفٌّ خطير، ما زالت أسراره محجوبةً حتى عن شخصيات قيادية في رومانيا نفسها.

جلس على بِنش خشبي، وفتح صحيفته، فجلستُ بجواره تاركًا هذه الدقائق من الصمت تمرُّ، حتى أستطيع أن أفكر في طريقة، أدفع بها الحديث إلى المناطق الآمنة، التي لا تثير حرجه أو غضبه، منتظرًا أن يفرغ ما بدأ في قراءته، ليواصل حديثه؛ لأنني أحسَستُ بأنه لم يقُل كل ما عنده، ردًّا على كلامي حول استعدادي للتعمُّق في فهم الاشتراكية العلمية، فهو أمرٌ يُشكِّل إغراءً قويًّا بالنسبة لأصحاب الدوجما من أمثاله، ومَصدرًا للسعادة، كتلك التي يشعر بها شيخ دين من شيوخنا، عندما يهتدي إنسانٌ غير مسلم إلى الإسلام على يديه، بل باعتباره، كما تقول الممرضة «ريلكا»، أحد كوادر سيكوريتات، أكبر قوة بوليس سرِّيٍّ ضاربة في العالم أجمع، نسبة إلى عدد السكان، سيكون سعيدًا بأن يجد دبلوماسيًّا من دولة عربية، يتعاطف مع نظرياته وأفكاره؛ ممَّا يفتح الطريق لتجنيده، مع أنني طبعًا أعرف ماذا أفعل، عن تَعمُّد وقصدية، من أجل أن أضع له الطُّعم الذي يستجيب له. وأحسستُ أن السِّنَّارة غمزت، عندما قال: «طالما تجيد الإنجليزية كما أرى؛ فسأعطيك كتابًا من كتبي المترجمة، موجود بالصُّدفة معي هنا في المستشفى؛ لأنهم أحضروه لي من مطبعة الحزب بالأمس فقط». شكرته على هذه الأريحية، وأظهرتُ فرحتي بأن تتاح لي فرصة الاطلاع على أفكاره، مفصَّلة ومشروحة في واحدٍ من كتبه، بعد أن كنت أراها تلميحاتٍ في الصحف، أو في الملخَّصات المكتوبة باللغة الإنجليزية التي يوزِّعها للسفارات مكتب متخصِّص في هذه المهمة، وجلست منتظرًا متى يأذن بالانتقال إلى غرفته؛ لأستلم منه الكتاب الموعود، إلا أننا قبل أن نتحرَّك من مكاننا، أقبلَت فتاةٌ ذات جمال وأنوثة، ترتدي أردية ربيعية زاهية، عبارة عن بنطلون أبيض، وقميص قطني لونه لون الكريمة، وفوقه سُترة من القماش قصيرة الأكمام ذات لون وردي، تتقافز كأنها فراشة، فنهض الرجل لاستقبالها وهي تخفق بذراعيها، قافزةً نحوه، مُرتَمِيةً بين أحضانه، وشعرها الذهبي يتراقص حول رأسها وكتفيها، حتى ليكاد يلامس وجهي، وأنا أقف جنبَ الرجل. انتهى عناقهما، فقدَّمها لي، قائلا بأنها ابنته «أوليفيا»، التي تقوم بدراسات عليا في أكاديمية الفنون، وسألني أن أُذكِّره باسمي؛ لأنه لم يكن قد استوعبه عندما صافحته وقدَّمتُ له نفسي، مع أنه عرف بلدي، فأعَدتُ عليه الاسم، الذي أعاده لابنته، مصحوبًا باسم السفارة التي أعمل بها، ورغم انبهاري بجمالها، فإنني راعيتُ وجود والدها، ومارستُ أكبر قدرٍ من ضبط النفس، فكانت كل حركة قُمتُ بها بحساب وميزان، ولم يَرِد ما قلته عن الكلمات التي يعيد الناسُ ذِكرَها في مثل هذه المناسبة دون تزيُّد، أو تَطرُّف في إظهار شيء من انبهاري وإعجابي، وقد جاءت تحمل كيسًا صغيرًا منتفخًا من قماش أزرق، لم أستطع أن أتكهَّن بما يحويه، فلعلَّه ملابس أو ما شابه ذلك، وعندما أراد أن ينتقل مع ابنته إلى غرفته، دعاني أن أقوم معه لاستلام الكتاب، وسبقني عندما اقتربنا ففتح الباب، وأخرج لي سِفرًا كبيرًا، مُجلَّدًا تجليدًا فاخرًا، وقد كُتِب فوق الجلد البني، بحبرٍ ذهبي، عنوان الكتاب «الطريق الي المدينة الموعودة»؛ فأبديتُ له شكري، وانسحبتُ، تاركًا إيَّاه مع ابنته، وبدلًا من أن أعود إلى غرفتي ذهبت إلى الحديقة أجلس على مقعد بجوار باب الخروج،

أنتظر ابنته عند خروجها؛ فقد صمَّمتُ ألَّا أترك هذه الفرصة تضيع مني، دون أن أسعى لإقامة علاقة معها، لقد قام والدها بتقديمي إليها، كما رأته وهو يدعوني لأن أصحبه إلى باب غرفته ليسلِّمَني كتابًا من كتبه، ومعنى ذلك أنني لن أجد تلك المعاناة، التي أجدها مع غيرها من الفتيات، عندما أحاول أن أتعرَّف إليها بنفسي، بادئًا ممَّا هو دون الصفر.

انتظرتُ وأنا أتصفَّح الكتاب، ناقِلًا بصري بين صفحاته وبين الباب الداخلي للمصحَّة؛ لكيلا أسهو عن «أوليفيا» حين تترك العيادة، طال انتظاري، إلى حدِّ أنه لم يَعُد ثمَّة وقت للساعة التي تعوَّدتُ أن أذهب فيها إلى السفارة أتفقَّد أحوال الزملاء، وأعرف ما يستجدُّ من أحداث، وما يصل من عاصمة بلادي من تعليمات، وأستلم ما يمكن أن يكون قد وصلني من بريد أو رسائل هاتفية، وأستخدم هواتف السفارة في إجراء مكالمات خارجية، مع الأهل أو مع أصدقاء في سفارات أخرى.

هناك دائمًا يوم الغد، أعوِّض فيه ما فاتني من عمل اليوم في السفارة؛ ففرصة أن أترصد لهذه الفتاة قد لا تُتاح مرة أخرى.

أخيرًا، جاء الانتظار بالنتيجة التي أرتقبها، فقد رأيتها فور أن وضَعَت قدمها خارج عتبة الباب الداخلي للمصحَّة، لأنهض وأتقدَّم منها، وأعترض طريقها بحزمٍ وتصميم، ولكن بلُطفٍ وتهذيب، وابتسامة ترتسم على وجهي، وفي يدي كتاب والدها، تميمة حظٍّ وقبول، قائلًا، وأنا أحمله برفق واهتمام، بأنني باشرتُ قراءة الكتاب، ووجدته يشدُّني بقوة إلى أفكاره وأسلوبه، إلى حدِّ أنني لم أستطع تركه، أو أنشغل عنه بأي شيء آخر؛ لأعرف من خلاله طريق البشر إلى المدينة الموعودة، التي يحلم كل إنسان بالوصول إليها. كانت قد ردَّت على ترحيبي بها، عندما قدَّمني لها والدها بكلمات إنجليزية تُقال مُجامَلة في مثل هذا الموقف، عرفتُ منها أنها تجيد التحدث باللغة الإنجليزية، رغم نُدرَة مَن يتحدَّثون بها بين أبناء وبنات الشعب الروماني، إلا أنه كان معروفًا أن أبناء الطبقة الحاكمة يعرفونها معرفةً تُعادِل معرفتهم باللغة الأم؛ لأنهم جميعًا يملكون في البيوت مُربِّيات أجنبيات يعتنين بأطفالهم، وعند أول فرصة يذهبون في مِنَحٍ إلى الخارج؛ للحصول على دروس تقوية في هذه اللغة، قبل أن ينتهي الأمر بهؤلاء الأولاد والبنات إلى تحضير شهادات الماجستير والدكتوراه في أكاديميات ذات البلدان، فمعاداة الإمبريالية، ورفض لغتها، أمرٌ يَخصُّ طبقة البرولوتاريا، المعنيَّة بالصراع مع القوى المعادية، أمَّا أعضاء الطبقة الحاكمة، فهم طبقة الوزراء، وقيادات الجيش والشرطة، وكبار كوادر الحزب، والسفراء، ممَّن يأتي الاتصال بهذه القوى وتسوية النزاع معها بالتفاوض والنقاش، على رأس أولوياتها، وتأتي المعرفة الجيدة للغة هؤلاء الأعداء على قائمة المؤهِّلات المطلوبة لأداء هذا الواجب الوطني. المهم أنني لم أستغرب عندما كلَّمتني «أوليفيا» بلغة إنجليزية راقية، وهي تلك التي يسمُّونها لغة الملكة؛ ممَّا يؤكِّد أن المربية التي أرضعتها هذه اللغة من سِنِّ الطفولة، كانت مُدبِّرَةَ منزلٍ إنجليزية، وإن لم تُطنِب في حديثها ردًّا على ما أفصحتُ عنه من إعجاب بأفكار والدها، وما كِلتُه من مديح لكتابٍ لم يسعفني الوقت إلا بقراءة صفحات مقدِّمته، فقد شكرتني على هذه المجاملة، قائلةً بأن كتابات والدها صارت الآن مرجعًا في أكاديميَّات العالم للفكر الاشتراكي، دون أن تذكر عمَّا إذا كانت هي نفسها مَعنيَّةً بهذا الفكر؛ لأن ما رأيته في مظهرها، وما توحي به شخصيتها

ذات البريق الملكي، لا يوحي بأن هناك بين ضلوعها ضلعًا واحدًا اشتراكيًّا. قالت كلماتها، وواصَلَت مسيرها عبر مَسرَبٍ صغير بين أعشاب الحديقة وأشجارها، إلى منطقة انتظار السيارات، وأنا أسير بمحاذاتها، حيث رأيت سيارة طويلة سوداء، من نوع لا علاقة له بالسيارات ذات الصُّنع المحلي، وإنما سيارة مرسيدس صالون 270، وقد وقف السائق الذي يرتدي الملابس الرسمية، في حالة انتباه، مُمسِكًا الباب المفتوح استعدادًا لأخذ مكانها في المقعد الخلفي، لم يبقَ أمامي كثيرُ وقتٍ لأخذ موعد معها؛ ولهذا ذهبتُ مباشرة إلى هدفي، مُستخدمًا تلك المعلومة الصغيرة عن دراستها العليا في أكاديمية الفنون، فادَّعيتُ بأن لبلادي نيَّة التعريف بفنونها في رومانيا، وإقامة أسبوع ثقافي بها في الأيام القادمة، وقد أسعدني أن ألتقي بها، وأن أسمع والدها يقول إنها تقوم بدراسات عليا في هذا المجال؛ لأنني كنت بالفعل أبحث عن أحد أصحاب التخصُّص في هذا المجال، أستنير برأيه، فإذا كان يروقها أن تمرَّ بالسفارة حيث أذهب إلى هناك، ساعة أو ساعتين كل يوم، فليكن، أو أن نلتقي في المساء في مكان هادئ بواحدة من مقاهي الفنادق الراقية للتشاور؛ فسأكون في غاية الامتنان والشكر. ظلَّت صامتة لبرهة قصيرة، قبل أن تقول: «إذًا، فأنت لا تراه مناسبًا أن نتحدَّث هنا، أثناء زيارتي لوالدي؟»، فأبلغتها بأنني لا أريد أن أشغلها عن والدها، أو أن أسرق جزءًا ثمينًا من اللحظات التي يحتاجها للبقاء معها، وأفضِّل أن نلتقي على انفراد، خارج المصحَّة، فأعطتني هاتف البيت، وسألتني أن أحادثها هاتفيًّا قبل عطلة نهاية الأسبوع، لتتأكَّد من مواعيدها؛ لأنها غالبًا ما تكون خالية من الشغل والمواعيد مساء الأحد، وانطلَقَت بها السيارة، وأنا ألوِّح لها مُودِّعًا، كأنني أودِّع صديقًا قديمًا.

هذه امرأة تُقصَد لِذاتها، ولمتعة أن يلتقي الرجل بها، ويرتشف من مَعين جمالها، ويرى مجد الحياة وبهاءها في أفق عينيها، لا لأنني أريد استخدامها في معرفة مزيد من المعلومات عن والدها، ومهما كانت أهمية هذه المعلومات فهي في الحقيقة لا أهمية لها بالنسبة لي، أو بالنسبة لدولتي؛ فنحن لسنا أمريكا؛ زعيمة المعسكر المعادي، التي يهمُّها العثور على مثالب الأنظمة الشيوعية، والمشاكل التي يصادفها قادَتُها على مستوى الفكر والعمل، بل العكس هو الصحيح؛ فبلادي تحتفظ بعلاقة تقليدية طيبة بهذه الدولة، وتتبادل معها المنافع، والتجارة، وتستفيد من خبرات علمية لها في مجال النفط، وأخرى في المجال العسكري، كما تستقدم أطباء وممرِّضات ومُعدَّات طبية، من مراكزها الصحية، وتستورد أغنامًا من مزارعها ومراعيها؛ لسَدِّ احتياجها من اللحوم؛ فأيَّة معلومة سلبية عن رومانيا، تصل إلى حكومة بلادي، لن يحدث لها أي استخدام، ولن تتمَّ الاستفادة بها، إلا على مستوى واحد، هو مستوى الاقتراب من أسرار هذا البلد، ومشاكله، لتقييمه سياسيًّا، واتخاذ القرارات السليمة فيما يخص تقوية العلاقات التجارية والسياسية، أو عدم تقويتها، على ضوء هذه المعلومات، التي تعطي إشارة لها دلالة عن مستقبل النظام، ومدى قوته أو ضعفه، مقارنة بأنظمة أخرى في المنظومة الاشتراكية، وصل بها الضعف والترهُّل والهوان إلى درجة الاستعانة بالجيش الأحمر لقمع مواطنيها، وإبقاء النظام بالقوة، كما حدث في تشيكوسلوفاكيا، وقبل ذلك في المجر، وكما يحدث الآن في بولندا، حيث صار عَصيًّا على الجيش الأحمر أن يتدخَّل لتفادي الزلزال الذي يعصف بحكومة وارسو؛ عاصمة الحلف العسكري الشيوعي، ويهدِّد نظامها بالزوال.

«أوليفيا»، «أوليفيا»، اسمٌ يليق بصاحبته؛ فهو عنوان لأوبرا مشهورة، ها هو الآن يصبح اسم هذه الفتاة التي تتحرَّك كأنها قطعة موسيقية، من باليه بحيرة البجع، أو أوبرا الدانوب الأزرق، ولا زلتُ لا أعرف لأي فرع من فروع الفنون تنتسب، ولكنني سأحزر بأنها تنتمي إلى الرسم، نعم، هناك موسيقى في حديثها، وطريقة مشيها بهذا الإيقاع الراقص العذب، بل وموسيقى في تموُّجات شَعرها، ونظرات عينيها، وحركات جسمها، ولكنها نوع من الموسيقى الإلهية التي تأتي هبةً من خالق الكون، وتولد مع ميلاد صاحبها أو صاحبتها، ولا تُكتسَب اكتسابًا عن طريق التَّعلُّم أو المران، ولكن الرسم، وهذا الذوق في ملابسها، في تسريحة شَعرها، حتى في المكياج الهادئ الذي تضعه على وجهها، فإنه ذَوقُ رسَّامة، درست الرسم إلى أن صار المهنة التي تحترفها، والصفة الفنية التي تلوِّن شخصيتها، وتنعكس على مظهرها.

هذا الموعد الذي صار يربطني مع ابنته، يجعلني بالضرورة أحاول أن أتقرَّب أكثر للوالد، وأقدِّم له مزيدًا من عبارات الإعجاب، وتكون الفرصة سانحةً لتشنيف أذنيه بأجمل عبارات الثناء على كتابه «الطريق إلى المدينة الموعودة»، بعد أن أكون قد فرغت من قراءته. ودون إضاعة أية دقيقة أخرى، ذهبت إلى غرفتي لأكرِّس وقتي كله لمطالعة الكتاب، حتى حينما جاء وقت الغذاء، نزلت إلى المطعم، وكانت الوجبة هذا اليوم أطباقًا نباتية، فتناوَلتُ، على عَجَلٍ، صَحنًا من السَّلطَة الخضراء، وعُدتُ لإكمال المطالعة، حريصًا على أن أضع خطًّا تحت الكلمات والجُمَل التي تصلح للاقتباس؛ كي أعود إليها وأستخدمها في حواري مع مؤلِّف الكتاب.

جاءت الممرِّضة «ريلكا» تَطرُق بابي، لتعطيني واحدة من حُقَن «آنا أصلان»، التي تحارب -كما يقولون- زحفَ الشيخوخة، وهي حقنة كان يجب أخذها في فترة الصباح، حيث كنت مشغولًا بالحديث إلى ابنة فيلسوف الحزب، واعتذرت لها عن غيابي، قائلًا بأنني كنتُ انشغلت بأخذ حقنة أخرى أكثر قوَّة وفعالية في استعادة الشباب، شحَنَت وجداني بدفقةٍ من روح الجمال في أرقى وأعلى صوره، متجسِّدًا في فتاةٍ ذات جمال وأناقة، اسمها «أوليفيا».

قلت لها هذا الكلام لأنني بعد أن رأيت صراحتها، وعرفت موقفها المعادي من النظام الحاكم؛ قرَّرتُ أن أفاتحها بهذا اللقاء الذي حدث بيني وبين الفيلسوف المكلوب، وابنته «أوليفيا»، وأخبرتها كيف أنني مفتون بجمال الفتاة، ورغبتي في أن ألتقي بها مرة أخرى، لقاءً أرجو أن يتطوَّر إلى علاقة عاطفية، حتى لو كانت علاقة قصيرة عابرة، فسأكون سعيدًا بها، وسأعتبر نفسي محظوظًا لأنني اقتربت من هذه الينابيع الصافية للجمال والأنوثة، إلَّا أن الممرِّضة «ريلكا» أسرَعَت تُحذِّرني من التَّورُّط في علاقة من أي نوع، مع مثل هؤلاء الناس، رجالًا ونساء؛ لأنه لن يأتي منهم إلا الأذى؛ فهم نتاج بيئة فاسدة، مُجرِمة، ومستنقعات لا تنمو فيها إلا الحشرات المؤذية السامة، ومهما كانت الزهرة التي تنمو في هذه المستنقعات فوَّاحةً بالعبير الجميل، بهيجة المنظر، فإنك -كما قالت لي- «ستكتشف عند الاقتراب منها، أنها تحمل في بتلاتها الناعمة، المونِقَة، الزاهية في ألوانها، أخسَّ أنواع الميكروبات، وأكثرها خطورة، والتي قد لا تستطيع رؤيتها بالعين المجردة، ولكنها قادرة على الفتك بك؛ فاحترس تمام الاحتراس»، وأضافت تحذرني، بألَّا أذكر هذه السيرة أمام أحد آخر، بما في ذلك الدكتور

«فالي»؛ لأنه سيصاب بالرعب إذا عرف أن مَصحَّته كانت واسطة التَّعارُف بينك وبينها؛ لأن كل شيء في هذه البلاد مرصودٌ، وتحت كشافات المراقبة ومَجاهرها. ثم قالت وهي تدير أكرة الباب، كي تغادر الغرفة:

– الرقابة، الرقابة، الرقابة، إنها حقيقة من حقائق الحياة في رومانيا، فلا يجب أن تنسى ذلك.

نعم، بالتأكيد، سيكون لقائي مع الآنسة «أوليفيا»، تحت أعين السيكوريتا، وسأحرص شخصيًّا على أن يكون كذلك؛ لأنني لن أقول خلاله شيئًا يثير حفيظة السُّلطة، أو ضد الزعيم أمين الحزب، وإذا جاء ذِكرُ النظام الشيوعي فسأذكره بإكبارٍ وتعظيم، ربما إلى حَدِّ المبالغة، وسأذكر –بنفس الإكبار والتعظيم– الصديقَ الصدوق للزعيم الليبي، والزعماء العرب جميعًا، الرفيق المبجَّل السيد «شاوشيسكو»، ليعرفوا من خلال أجهزة التصنُّت أنني أتحدث من موقع الصداقة والولاء، لا موقع الاستنكار والعداء، أمَّا ما يمكن أن أجنيه من متعة من وراء هذه العلاقة، أو ما تشعر به «أوليفيا» نحوي ودافعها إلى لقائي، فهو شأن من شؤون القلب الذي لا يجب أن يكون شُغلًا شاغِلًا لأجهزة الأمن، المعنيَّة بحماية النظام والحفاظ عليه، خاصَّةً وأنها علاقة تتمُّ في الهواء الطَّلق، حتى لو أسفَرَت عن علاقة حميميَّة بيني وبينها، كما هي علاقات الأحِبَّة في هذه البلاد التي يتَّحِد فيها لقاء العاطفة والوجدان بلقاء الجسد، فلن يكون في ذلك شيئًا يهدِّد أمن وسلامة النظام في رومانيا.

في الليل تكرَّر النباح، بذات القوة والإلحاح، بذات التعبير المشحون بمعاني الألم والعذاب، بذات العدوانية والعنف، ورغم رغبتي لأن أخرج إلى الشرفة لأراه، وهو يمارس طقوس جنونه في شرفته، إلَّا أنني قاوَمتُ هذه الرغبة، وبقيت هاجعًا في سريري؛ فالرَّجل صار يعرفني، وقد تحين منه التفاتة فيراني خطفًا، ولم أضمن أن تَعامُلَه معي بعد ذلك لن يختلف، بل ربما يورثني ذلك عداءَه وغضبه وانتقامه، خاصَّةً أن ما أبداه من قبول نحوي، إنما كان مُحصِّلةً لما أبديتُه نحوه من احترام وتوقير، للمكانة السامقة التي يحتلُّها في مراتب الفكر والفلسفة، وسأنكشف أمامه باعتبار أن ما أقوله له مجرَّد كذب، وسخرية.

ازداد النباح سُعارًا وهستيريا؛ ممَّا أشعل فضولي لأن أعرف السبب، إلا أنني أعود وألجم نفسي بقوة عن الخروج، مدركًا أنني إذا فعلت ذلك فإن البناء الذي أفلحت في تشييده، قد يتعرَّض للانهيار في لمحة بصر، ولا غرابة أن ينعكس هذا العداء على علاقتي بابنته؛ فيفُسِدها قبل أن تبدأ.

لم أستطع صبرًا على استفحال حالته وتواتُر نباحه، عنيفًا قويًّا، مُحمَّلًا بشحنات الرعب والكراهية والجنون، فقُمتُ من سريري، مُتَّجِهًا إلى باب الشرفة، وإرضاء لحالة الفضول التي استبدَّت بي، فتحت الباب بما يكفي لأن أطلَّ من الشرفة وهي مظلمة، إطلالة تجعلني أستطيع أن أراه، دون أن أكشف نفسي أمامه، فقد تصوَّرتُ، من قوة وشراسة ورعب النباح الذي كان يصدر عنه، أنه ولا بُدَّ وأن يكون قد باشر بنهش وعضِّ شيء ما، وإن لم يجد ما ينهشه، فسينهش لحمه هو نفسه، كأن يبدأ بعض يده، أو ذراعه، أو قدمه، أو أي طرف من أطرافه تصل إليه أسنانه، إلا أنني لم أستطع أن أتبيَّن حقيقة ما يفعله بنفسه، مع هذه الحالة من السُّعار، ولم أشأ أن أقترب أكثر لكي لا أكشف نفسي، وقد بدت لي حاله غريبةً؛ فطالما أنهم يستطيعون السيطرة عليه أثناء النهار، وإرجاعه بالحقن والمهدئات إلى وضعه الإنساني الطبيعي، فلماذا لا يفعلون ذلك

معه أثناء الليل، ويجعلونه ينام في هدوء وسلام، ويترك الآخرين من أمثالي، ممَّن شاء حظهم العاثر أن يجاوروه في السكن، ينامون هم أيضًا دون إزعاج؟ وكان هذا هو السؤال الذي جلست على قلق أنتظر الدكتور «فالي» لأسوقه إليه، عندما يأتي موعد زيارته، بعد الاعتذار عن غيابي في موعد الأمس، إلا أنه بادرني لحظة وصوله إلى غرفتي بقوله إنه يعرف أنني كنت مشغولًا خلال صباح الأمس مع السيد فيلسوف الحزب، وأنني قابلتُ ابنته «أوليفيا»، وقال لي إن مصدر معلوماته هو السيد «فلوريان بوبسكو» نفسه، الذي أبدى استغرابه من وجود شابٍّ مثلي في منتجَعٍ يعالج أمراض الشيخوخة، فأخبره الدكتور «فالي» بالسبب الذي أوصلني إلى هذا المكان، وهو إذابة بعض الأكياس الدهنية المحيطة بالكبد والرئة، ثم طمأنني بأن السيد «بوبسكو» يحمل انطباعًا جيِّدًا عني. فذكرتُ للدكتور «فالي» الحالة التي وجدت عليها الفيلسوف من الهدوء وحضور الذهن وسرعة البديهة، وهي حالة تتناقض تمامًا مع نوبات النباح المرعب التي تداهمه ليلًا، ونقلت له حيرتي، عن كيف تنجح المهدئات والعقاقير في إعادته إلى حالته الطبيعية، ثم لا يتمُّ استخدامها معه ليلًا، فتستمر معه حالة الاسترخاء وهدوء الأعصاب وحضور العقل، فأجابني بأن المسألة التي أراه عليها نهارًا لم تكن بسبب المهدئات والعقاقير، التي كنتُ بالتأكيد سأراها تتبدَّى في حديثه وحركاته وطريقته في المشي، فهو يتحرَّك ويتكلَّم ويحاور ويفكر بشكل طبيعي جدًّا؛ لأن جسمه نظيف من هذه العقاقير، يمارس حياته كإنسان سَويٍّ في النهار، دون ظهور أي أثر أو عرض من أعراض المرض الذي ينتابه ليلًا، وهي حالة لا تأتيه إلا عندما يشرع في النوم، بل هو يفعل ما يفعله، وهو في الحقيقة نائم، فهذا المرض يتَّصِل بمنطقة بعيدة، غائرة في عمق العقل الباطن، ولا تستيقظ إلا أثناء النوم، فتجعله يُصدِر هذا النباح، وهو غاطس في نومه، بمعنى أنه أشبه تمامًا بالسائرين نيامًا، الذين لا يدرون ما يفعلون، وعندما يستيقظون، لا يتذكَّرون شيئًا ممَّا فعلوه أثناء النوم، وأبلغني أن السيد «فلوريان» ليس واعيًا بهذه الحالة التي تنتابه أثناء النوم، ولا يعرف عنها شيئًا؛ لأن أسرته نفسها خبَّأت عنه ما يقوم به من أفعال غريبة أثناء استغراقه في النوم، وكان يمكن أن يبقى أمر هذه الحالة الكلبية التي تصيبه، ونوبة النباح التي تداهمه، سِرَّ العائلة الذي لا يعرفه صاحب الداء، لولا أن حدثًا رسميًّا أرغم العائلة على أن تكشف له حقيقة مرضه؛ إذ كان الرئيس الروماني يستعدُّ بزيارة إلى موسكو، يصحب فيها فيلسوف الحزب، وخشيت العائلة عاقِبَة هذا السفر، عندما يؤوب مع الرئيس إلى النوم في أجنحة الضيافة بقصر الكرِملين، ثم تداهمه نوبات النباح، وسط هذا القصر الشهير من قصور الحُكم والسُّلطة؛ فتكون الفضيحة، ويكون العقاب، الذي قد يلحق بكل أفراد العائلة لأنها كتَمَت هذا السِّرَّ؛ فاضطرت الأسرة إلى أن تكاشف الأب بما يفعله ليلًا، واستدعت طبيبًا ينتمي بصِلَة قربى إلى الأسرة، لكي يبقى السِّرُّ داخل العائلة، وينصح بما يجب فعله، فكان رأيه، أن الرئيس يستعدُّ للسفر، ولا بُدَّ من إبلاغه بالحالة المرضية، ربما دون تفاصيل، هذا أولًا، وثانيًا لا بُدَّ من الاستعجال بمعالجة الحالة قبل استفحالها، والحرص على أن يكون العلاج في مصحَّة «آنا أصلان»، بعيدًا عن المصحَّات العقلية والنفسية؛ درءًا للفضيحة. وقبل اختتام زيارته لي قَدَّم لي الدكتور «فالي» عرضًا للانتقال إلى غرفة في قاطع آخر من المصحة، بعيدًا عن هذا المكان، إذا كانت جيرة الرجل تزعجني، فرجوته ألَّا يتعب نفسه في البحث عن غرفة أخرى أنتقل إليها؛ لأنني تعوَّدتُ على هذه الغرفة، وعلى التعامُل مع الطاقم الطبي الذي يعمل في هذا القاطع، وتعوَّدتُ أيضًا على الحالة التي تنتاب جاري ليلًا، ولا اعتراض في أن أبقى في غرفتي لهذه الأيام

القليلة المتبقية من مدة علاجي، وعرفت منه قبل ذهابه أن حالة السيد فلوريان قابلة للشفاء بالتأكيد، ولكن بعد فترة من العلاج لن تزيد عن بضعة أشهر.

ربما كنت سأحاول أن أتحرّى من ابنته، ولو بشكل غير مباشر، لحظة اللقاء بها، عن مدى ما تعرفه من حقيقة مرض أبيها، ولكنني الآن، وبعد ما سمعته من الطبيب «فالي»، صِرتُ متأكِّدًا أن «أوليفيا» تعرف تمامًا بمرض أبيها، وربما أكثر بكثير ممَّا يعرف هو عن نفسه؛ لأنه حتى وإن كان قد تلقَّى في النهاية علمًا بما يفعله ليلًا؛ فلا إمكانية أن يتصوَّر أسلوب وطريقة النباح الذي يصدر عنه، وهو ما عرفته العائلة وتعايَشَت معه، ولا بُدَّ أنها واجهت إحراجًا كبيرًا وهي تحاول أن تُظهِر للجيران أنه صادِرٌ عن كلب من كلاب الحراسة، حتى وإن لم يكن هناك مثل هذا الكلب، فلا بُدَّ من تدبيره، وإظهاره أمام الجيران، على أنه صاحب هذا النوع من النباح الغريب.

لم يكن مُهمًّا أن أضع أحدًا من زملاء البعثة الديبلوماسية في صورة ما حدث بيني وبين هذا الرجل الكبير من رجال الدولة في بوخارست، أو اتصالي بابنته، ولكنني رأيت ضرورة أن أفعل شيئًا، من باب الاحتياط، واستباقًا لأي أحد من كُتَّاب التقارير الليبيين، سواء من أعضاء البعثة أو أعضاء الجالية، ممَّن لو شاهدوني مع هذا الرجل الحزبي الخطير، أو رأوني عند لقائي بابنته؛ لأسرعوا للإبلاغ عني، وأسرعوا يُسمِّمون الأجواء أمامي لدى أجهزة الأمن الليبية، فهي ستتحوَّل في تقاريرهم إلى صِلةٍ مشبوهة بأخطر أركان النظام، والصواب، كما بدا لي، هو أن أُفاتِح رئيس البعثة بالأمر، وهو قائم بالأعمال، وأمضى زمنًا طويلًا في هذه الدرجة، تربو على عشرين عامًا، وينتظر أن ينتقل إلى درجة سفير، التي تأخَّرَت عليه كثيرًا، وقد زادت مساعيه في الفترة الأخيرة للحصول على هذه المرتبة، لكي لا تسبقه إليها رسالة الإحالة إلى التقاعد بسبب بلوغه سِنِّ المعاش القانونية، وهو يدعو نهارًا أو ليلًا أن تأتي الترقية قبل التقاعُد؛ لكي يذهب إلى تقاعُدِه بدرجة سفير سابق، يكتبها في بطاقة الزيارة، ويُعلِّقها يافطة على بيته، ويقدِّم نفسه إلى الناس، وتصبح «السيد السفير» صِفةً تسبق اسمه، ويناديه بها الناس إلى نهاية العمر، وكما يقولون في السلك الديبلوماسي: «عندما يكون الإنسان سفيرًا فهو سفير إلى الأبد»، وهذا النهم الخطير للحصول على المنصب المأمول يجعل الرجل خطيرًا؛ لأنه مستعدٌّ لتقديم أيَّة تنازُلات في هذه المرحلة، ولا رادع لديه أن يقوم بأي عمل خسيس حقير يُقرِّبه من هدفه، وفي ذات الوقت فهو يجعله ضعيفًا، سهل الانقياد، يستجيب لأي طلب، إذا أبنتَ له أنه يحمل بصيصًا يقرِّبه من حلمه، وهذا ما فعلته، فقد وَضَعتُه في حالة تأهُّب واستنفار لعملية كبيرة، سأجعله شريكًا فيها؛ لأنني سأشرح فيما بعدُ كيف أن اقترابي من الفيلسوف المكلوب، وتوثيق الصِّلة بابنته، جاء بتكليف من رئيس البعثة، ومهما كان البند السياسي، الذي يخوِّل رئيس البعثة حقَّ الصرف على أعمال سرية، بندًا فقيرًا، فإن المصاريف التي ستتكلَّفها هذه العملية لن تكون كبيرة، فقد نشتري نُسَخًا نرميها في المخزن من كتب الفيلسوف، لمجرَّد إظهار اهتمامنا بأفكاره، وقد أحتاج، إذا وصَلَت العلاقة بابنته إلى مرحلة متقدِّمة، تبيح تقديم الهدايا، شراءَ حليةٍ متواضعة الثمن لها؛ لضمان أفضل النتائج لهذه المهمة السياسية السرية– فوافق على ذلك؛ ليقينه أنه يستطيع أن يقدم الموضوع إلى رؤسائه في طرابلس باعتباره سبقًا سياسيًّا ودبلوماسيًّا، خاصَّة وأنني أقنعته بأن مرض الفيلسوف ما زال سِرًّا محصورًا في أضيق دائرة في قمة جبل السُّلطة في رومانيا، ويستطيع أن يتأكَّد من ذلك عندما يلتقي بهم في حفلات

أعياد بلادهم القومية، شرط ألَّا يُفشي السِّرَّ لأحد، وأن يسأل، بذكاء، ومن بعيد؛ لكي تبقى المعلومة سِرًّا لا يعرفه، خارج دائرة السُّلطَة العليا في البلاد، إلَّا نحن، ونبَّهته أيضًا أن يبقى داخل السفارة سِرًّا بيني وبينه؛ لأنه إذا عرف به أي عنصر ثالث أو رابع في السفارة؛ لن نضمن بالتالي السيطرة على الموضوع، وسيضيع جهدنا أدراج الرياح. وتمَّ الاتفاق بيني وبينه ألَّا نبلغ وزير خارجيتنا به الآن، حتى نستكمل كل أوراق الملف؛ لتحقيق التأثير الذي نريد، وإحاطته بما يستحقُّ من أهمية، فلا مراسلات بشأنه عن طريق البريد، وإنما يجب أن نحمله كلانا إليه في رحلة إلى العاصمة الليبية، مخصَّصة لهذا الموضوع، وستُظهِر القيادة في ليبيا اهتمامًا أكيدًا بشأنٍ يتَّصل بقيادة هذه البلاد وقمَّة السلطة فيها، خاصة أن العقيد الليبي سبق أن قام بزيارة إلى هذه البلاد، ودعا رئيسها إلى زيارة بلادنا، وأدار حوارًا معه ومع مرافقيه في تلك الزيارة من أركان حُكمه، مِمَّن لا بُدَّ أن يكون الفيلسوف واحدًا منهم، باعتباره الواجهة الفكرية لنظام بلاده، المدافع في الأوساط السياسية عن نظريتها وأطروحاتها، وكل هذه الخلفيات تصبُّ في خانة الإنجاز السياسي والدبلوماسي الكبير الذي سيتحقَّق على يده، وعلى يدي.

وكانت نصيحته لي هي ألَّا أواعِدَ الفتاة في فنادق الدرجة الأولى؛ لأن هذه الفنادق هي أكثر الأماكن الموبوءة بعناصر الأمن السري، ترصد وتسمع وتراقب وتقوم بالتسجيل؛ مسموعًا ومرئيًّا، كذلك فإنه لا حاجة -تحت أي ظرف من الظروف- إلى جلبها إلى السفارة، حتى لو أرادت ذلك، أو دعوتها لزيارتي في مقر إقامتي، وأن هناك في أكبر حدائق بوخارست، حديقة «هيراسترو»، مجموعة من المقاهي تطلُّ على البحيرة، وفيها أركانٌ تحيط بها عرائش من شجيرات الورد والنباتات المتسلِّقة، يمكن أن تكون مكانًا آمنًا، لا تصله أعين الفضوليين، باعتبار أن لا حاجة لإشهار هذه العلاقة في مرحلة البداية؛ لكي لا تنتهي قبل أن تبدأ، وزيادة في الحذر، رأى أن يكون موعدي معها بعد غياب آخر ضوء للنهار، حيث يصبح متعذِّرًا، عندما أعبر بها بعض مناطق الحديقة أو أجلس بها في هذه الأركان، لأيِّ أحد يعرفها، وتَصادَف وجوده أو مروره هناك، أن يهتدي بسهولة إلى شخصيَّتها، وقلت له بأنني لا أشكُّ في وجود أحد من السيكوريتات يتبعها، ولكن أن يعرف الأمرَ عنصرٌ واحدٌ خيرٌ من أن يصبح مَشاعًا بين كل الأجهزة، وزيادة في التمويه، واستباقًا لأي سؤال يثيره لقائي بها لدى هذه الدوائر الأمنية، إذا ما وصل إليها الخبر؛ رأيت ضرورة أن تذهب رسالة من السفارة إلى إدارة البروتوكول، والإدارة الثقافية في الخارجية، بأن في نِيَّة البعثة الليبية، وأُسوَةً بما تقوم بها بعثات أخرى، الشروعَ في ترتيب أيام ثقافية ليبية في العاصمة الرومانية، يتمُّ الاتفاق فيما بعدُ على موعدها، وتنتظر البعثة أن تجد من أجهزة الدولة الرومانية كل ما تحتاجه من مساعدة في نجاح هذه الأيام، وهي رسالة -كما قلت لرئيس البعثة- لا يترتَّب عليها أي التزام على السفارة، ومع ذلك فهي تنفع كوسيلة جيدة للتمويه والتغطية، أمام الأجهزة، وأستطيع أيضًا أن آخُذَ منها نسخة إلى الآنسة «أوليفيا»؛ لتعرف أنني أتحرَّك في إطار مَهمَّة رسمية، وليس مجرد ذريعة اختلَقْتُها من أجل تسهيل اللقاء معها.

رأيتُ في اليوم الثاني أو الثالث، وأنا عائد من السفارة، فيلسوفَ الحزب، يجلس مع ابنته في الحديقة، ومعها سيدة ذات وقار وجمال، خمَّنتُ أنها زوجة الرجل؛ فتعمَّدتُ أن أتسلل عبر الحديقة إلى الباب الداخلي دون أن يلحظني أحدٌ منهم؛ خوفَ أن يُفسِد لقاءٌ بيني وبينها، في حضور والديها، الموعِدَ الذي أريد ترتيبه معها، خاصَّة إذا حدث عرضًا أن

ذكَرَت الفتاة أني أريد لقاءها لأمر يتَّصِل بحَدَثٍ فنِّيٍّ تُعدُّ له السفارة؛ فلا ضمان ولا أمان أن تدقَّ أجراس الإنذار في رأس هذا الحزبي العريق، الذي لا بُدَّ أنه عمل في صباه وشبابه تحت الأرض، عندما كان الحزب الشيوعي حزبًا مُطارَدًا، واعيًا بأساليب الاختراق التي يمكن أن يقوم بها عنصر يعمل في سفارة أجنبية، والتَّسلُّل إلى داخل بيته عن طريق ابنته؛ فثقافة بلدان الستار الحديدي –كما تُسمَّى في الغرب– تعتبر أن السفارات ليست إلَّا مَوئلًا للجواسيس.

راقَبتُ الأسرة من شرفة غرفتي، ومن زاوية لا أظهر فيها أمامهم، حتى انتهى اللقاء وغادَرَت الفتاة وأمها المصحَّةَ، فأمهلتُ نفسي نصف ساعة قبل أن أهبط إلى الطابق الأرضي، حيث يوجد الهاتف العمومي، الذي يعمل بالعملة المعدنية، وهاتَفتُها، وعندما ردَّت بما يفيد استعدادها للقائي يوم الأحد، بادرتُ أحدِّد موعدًا يناسب فترة الغروب، وأخبرتها بوجود مطعم شرقي في حديقة «هيراسترو»، فاعترَضَت على تناول العشاء؛ لأنها لا تملك وقتًا لذلك، وهو ما توقَّعتُه؛ فاقترحت مقهى قريبًا من المطعم، ستجدني في الوقت المحدَّد واقفًا أمامه في انتظارها. واحتفالًا بالموعد الذي حصلت عليه قرَّرتُ أن أتناول غدائي في مطعم «الباشا» الموجود في الحديقة، وأتفقَّد أيضًا المقهى الذي واعَدتُها فيه؛ لكي أختار الرُّكنَ الذي أقودها إليه داخل المقهى؛ فهي امرأة يَحِقُّ لي أن أحتفي بها، وأضع ترتيبًا مُحكَمًا للقائها؛ لكي أتلافى أي خطأ يمكن أن يحدث.

وكان الأحد هو اليوم التالي، يوم الاسترخاء والهدوء، وقلَّة البرامج العلاجية؛ فهو يوم إجازة لأغلب العاملين، وهو اليوم الذي سأقضي جزءًا منه أباشر الاستعداد للقاء تلك الهِبَة التي وعدتني بها ملائكة الحب والجمال، وضمنَت لي موعدًا معها هذا المساء، فأخذتُ حمام الساونا لكي أكون في تمام لياقتي وانتعاشي، وحلقت ذقني، ووضعت أفضل أنواع الكولونيا فوق وجهي، وارتديتُ أفضل حُلَّةٍ أملكها، وقدت سيارتي إلى قلب الحديقة حيث المقهى، وقريبًا منه المطعم اللبناني، الذي قضيتُ فيه وقتًا أستمتع بغداء متأخِّر، بعد أن تفقَّدتُ المقهى، واخترتُ مكانًا ملائمًا لجلوسنا، وكان مؤسِفًا أن أراها قادمة من خلف صَفٍّ من الأشجار، يقع أمام المكان المخصَّص للسيارات، وهي تصحب معها سيدة في منتصف العمر، ترتدي بذلةً نسائيَّةً زرقاء، أقرب في شكلها إلى الزي الشتوي لشرطيات المرور، إلا أنه زيٌّ مَدنيٌّ لا شُبهةَ عسكريَّة فيه، خالية من أية مسحة لها علاقة بالجمال، رغم الشعر الأشقر، والوجه البالغ الاحمرار، بينما كانت «أوليفيا» ترتدي زيًّا ربيعيًّا لا يختلف كثيرًا عن ذلك الذي رأيتها ترتديه عند أول لقاء بها في حديقة المصحَّة، وقدَّمَتها لي باعتبارها السيدة «كارمن»، سكرتيرة لجنة الفنون بقسم الدعوة والتثقيف بالحزب الشيوعي، وبمجرد أن أخذنا مجلسنا في ركن مُطِلٍّ على البحيرة، حتى أخرجت من جيبي نسخة من الرسالة الموجَّهة من السفارة إلى إدارة البروتوكول، وإدارة الثقافة الخارجية؛ لأثبت لهما أنني أتكلَّم جادًّا عن مشروع هو في مراحل التحضير.

أبديَتَا اهتمامًا بما احتوته الرسالة، وقالت «أوليفيا» إن وجودها، طالِبةَ دراسات عليا في أكاديمية الفنون، لا يعني أنها تفهم مثل هذه القضايا العملية الإجرائية التي تتَّصِل بإقامة الأنشطة والفعاليات الثقافية، وأن السيدة «كارمن»، حتى وإن لم تَكُن ذاتَ اختصاصٍ أكاديمي في الفنون، فإنها تملك الخبرة بمثل هذه الأمور، وتعمل في الموقع الذي يؤهِّلها لتقديم النصائح

والمشورة؛ إذ إنها سبق وشاركت في تنظيم مثل هذه المناشِطِ، وأشرفت على رحلات ثقافية رومانية إلى الخارج؛ ولهذا رأت «أوليفيا» ضرورة إحضارها؛ لضمان الجدوى والفائدة من مثل هذا اللقاء، ورغم أن موضوع الأيام الثقافية لم يكن بالنسبة لي إلَّا ذريعةً للقاء الفتاة، فقد صار الآن أمرًا لا بُدَّ من التعامُل معه بجدِّيَّة واهتمام؛ لكي لا أكشف أوراقي، بعد أن جاءت بهذه السيدة معها، فلا بُدَّ أن أتقن الدور، وأثبت أن هناك أسئلة حقيقية تشغلني، تتَّصل بإعداد هذا الأسبوع الثقافي، والبحث في أفضل السبل لإنجاحه. وكانت السيدة كارمن قد ذكَرَت بأنها مستعدَّة كي تضع كل خبرتها تحت تصرُّفي، حتى قبل أن تتلقَّى تكليفًا رسميًّا من إدارتها؛ لأن مثل هذه المناشط تشجِّعها الدولة، وهي دائمًا موضوع ترحيب وحفاوة، وفي مثل هذه الحالة، وبالرجوع إلى السوابق، فإن رومانيا تقوم عادة بتوفير قاعات ودور العرض مجانًا، سواء كان ذلك معرضَ رسم، أو حفلًا موسيقيًّا، أو فنونًا شعبية، أو عرضًا مسرحيًّا، أو ندوة ثقافية، أو أمسية شعرية، أو معرضًا للكتب، ولا بُدَّ من تحديد الموعد، ربما قبل مُهلةِ عامٍ كامل من إقامة الموسم؛ لكي يتمَّ حجز القاعات ودور العرض.

«نعم»، قلتُ لها، مؤكِّدًا أن ذلك لن يكون صعبًا، ولكنني أريد أيضًا أن أفهم شيئًا آخر، وهو مدى اتِّساع الهامش المتاح في رومانيا لقبول إنتاج الفنانين، بدءًا بأهل الرسم على سبيل المثال، فأنا أعرف أن للمدارس الواقعية في الفن الأولوية هنا، ولكن هناك في بلادنا فنانون ذوو اتجاهات سيريالية، وتكعيبية، وتجريدية، غير المدارس الطبيعية والكلاسيكية والواقعية، وطبعًا يمكن أن ينطبق هذا القول على أهل الشعر الحديث والتقليدي، وأهل الموسيقى، مثل الجاز وغير الجاز، وأريد أن أعرف إذا ما كانت هناك قواعد في رومانيا تحكم مشاركات الدول الأخرى في برامج التبادُل الثقافي، فأجابت بأنه لا أحد يتوقَّع أن تكون الأعمال الفنية القادمة من خارج رومانيا كلها مُتَّفِقة مع السياسات المُطبَّقة في البلاد، وما لم يحمل الأثرُ الفني أو الأدبي دعايةً مباشرة لأيديولوجية معادية للحزب الشيوعي، أو يحمل إساءة لدولة صديقة، من دول الكتلة الاشتراكية؛ فإنه لا حصر على عرضها، وتقديم عيِّنات منها للجمهور، هذا فيما يخصُّ مشاركات الدول، أمَّا ما يتصل بالسوق التجاري، وما يدخل إلى رومانيا للبيع والترويج تجاريًّا، فهو يخضع لإدارة مختصَّة بالرقابة، تهدف دائمًا إلى حماية المستهلك من المادة الفنية الهابطة التي تخاطب الغرائز، وتسعى للإثارة وابتزاز الجمهور، وهي مسألة خارج السياق الذي نتحدث عنه.

كانت السيدة كارمن تتحدَّث لغةً إنجليزيَّةً بلكنة ثقيلة؛ ممَّا يعني أنها تعلَّمتها عن كِبَر، ربما لكي تحظى بوظيفيَّة أحسن من الوظائف الروتينية الأخرى، ولم أسألها عن ذلك، بل سَرَحتُ أفكِّر في حديث آخر مع «أوليفيا» الجميلة، أضاعه وجود هذه السيدة، وانتبهتُ من سرحاني على نقاشٍ حادٍّ نشب بين «أوليفيا» وبين المسؤولة الحزبية؛ لأنها ترى بأن إدارة الرقابة لا تقوم حقًّا بواجبها في حماية الوطن من الفن التجاري الهابط، وضرَبَت مثلًا بأفلام أمريكية وإيطالية تُعرَض في قاعات العرض السينمائي، لا تحمل أي قيمة فنية أو مضمونًا هادفًا، ووقفَت أمام أفلام مصَّاص الدماء دراكيولا، مُتسائلة عن الهدف والرسالة، وما يمكن أن نسمِّيه «حماية المواطن» في مثل هذه الأفلام، فأوضَحَت امرأة الحزب بأنها لا تريد أن تدافع عن مثل هذه النوعية من الأفلام، ولكنها تفهم أن لمثل هذا السوق اعتبارات تتَّصِل بالربح والخسارة، فلا يصحُّ أن تبقى مثل هذه الدور استنزافًا دائمًا لخزينة الدولة؛ ولهذا كان لا بُدَّ أن تفوز بهامش صغير تتيح لها الاستجابة لقوة السوق، وتحقيق

هامش من الربح، يُغنيها عن معونة الدولة، وتوافقها أيضًا على أن أفلام دراكيولا -بالذات- ليست أفلامًا تتَّفِق مع المبادئ الاشتراكية، ولكن هناك جانب وطني رومانيٌّ هو الذي حسم الموقف لصالحها، باعتبار أن أسطورة أمير الظلام دراكيولا، هي أسطورة رومانية، نابعة من الفلكور الروماني، بل إن ما يُعرَض من أفلام دراكيولا في دور العرض هنا، هي تلك التي تمَّ تصويرها في رومانيا، وأظهرت سحر وجمال الطبيعة في الريف الروماني، وجمال المعمار في القصور الرومانية القديمة، التي هي جزءٌ من إرث الماضي في رومانيا؛ ممَّا يشكِّل دعاية سياحية للبلاد، ويسهم في الترويج لزيارتها، وجلب العملة الصعبة لخزينتها، بل هو يُحبِّب المواطن الروماني في جمال وتراث بلاده، ويدفعه للقيام بسياحات داخل حواضرها وأريافها. ومراعاةً لوجودي معهما كان الحديث بينهما يدور باللغة الإنجليزية؛ ممَّا استدعى أن أكون طرفًا فيه؛ تقديرًا للجهد الذي تبذلانه من أجل إفهامي، فلم أجد بُدًّا من الدخول في نقاشهما الذي يتنافسان فيه عمَّن هي أكثر التزامًا بأهداف الحزب وشعاراته، واخترت جانبًا بعيدًا عن الأيدولوجيا، بأن ادَّعيتُ الجهل بأصل هذه الأسطورة، وسألتهما عمَّا إذا كان هناك أصل في الواقع تستند إليه قصة دراكيولا، فانبرت لإجابتي سيدة الحزب، قائلة بأن الكونت دراكيولا، حاكم منطقة «ساكان» في القرن السابع عشر، وهو كونت حقيقي بهذا الاسم، وما زال قصره موجودًا هناك، كما يظهر في الأفلام التي اختارت أن تكون لقطاتها من عين المكان، وهو مَزارٌ ينهال عليه الزوار في كل الفصول، وسبب انبثاق الأسطورة، ليس لأنه حقًّا كان يعيش على مصِّ دماء البشر، أو أن له جناحين يطير بهما في الفضاء؛ وإنما فعلًا حاز أثناء حياته على لقب مصاص الدماء؛ لأنه كان حاكمًا قاسيًا، شديد العنف في تعامُله مع الخارجين على القانون، وحيث إنه جاء في فترة كَثُرَ فيها النهب والسلب واختراق القانون؛ فقد جعل عقوبة الإعدام هي العقوبة التي يتمُّ تطبيقها على كل مُخالِفٍ للقانون، مهما كانت المخالفة، كبيرة أو صغيرة، ويتساوى مَن يسرق رغيفًا أو دجاجة، أو قميصًا من فوق حبل الغسيل، بمن يسطو على بيتٍ ويقتل صاحبه. الإعدام، الإعدام، حتى صار سفك الدماء اسمًا لهذا الكونت، الذي نجح، بهذا العلاج الدموي، في استئصال شأفة الإجرام من تلك المنطقة، فلا أحد يمدُّ يده على رزق أحد، أو يرنو لامتلاك شيء ليس له.

وكأن «أوليفيا» جاءت بهذه السيدة فقط لتُناكِفَها لوجه المُناكَفة، وتردَّ بعكس ما تقوله امرأة الحزب، فقد كنت أعرف أن المرأة صادقة في روايتها، وهي ذات المعلومات التي سبق أن قرأتها، إلا أن «أوليفيا» انطلقت تقول بأن هناك روايات ونظريات أخرى ترى أن التاريخ الروماني عرف حقًّا شخصيات مثل دراكيولا الموجود في الأفلام، تعيش باستخدام السحر الأسود، وتنام في التوابيت، وتجترح معجزات التَّحوُّل إلى طيور في الليل، وتحيا على مَصِّ الدماء، وبطبيعة الحال نفت سيدة الحزب إمكانية أن تكون هناك أدنى مصداقية لمثل هذه الحكايات، التي لا بُدَّ أنها انحدرت من عصر الجهالة والخرافات، والتفكير الغَيبيِّ، لكنه لا يمكن أن يكون لها وجود في بلاد ينيرها الفكر العلمي الاشتراكي، ويضيء عقول أهلها.

وتحدِّيًا لها قالت «أوليفيا» إنها ستحضر لسيدة الحزب الكتاب الذي قرأت فيه هذه النظريات، لكيلا تتَّهِمَها بالترويج لحكايات تناقُض التفكير العلمي الاشتراكي. وأسرَعَت سيدة الحزب قائلة بأنها إطلاقًا لا تقصد أن أفكارها تتناقض مع

الفكر العلمي الاشتراكي، ولكن الأفكار، التي اخترعت أصلًا تاريخيًّا، يتطابق تطابقًا كاملًا مع ما تعرضه السينما، هي التي لا يمكن أن تكون إلَّا نِتاج وهم وخيال.

أحسستُ أن الجوّ بين المرأتين قد شابَهُ بعض التَّوتُّر، ولم أكن طبعًا أريد إنهاء الجلسة، بل لم يكن أمرًا لائقًا حتى لو أردتُ، ما كان يعنيني هو أن أجد في هذا التوتُّر بينهما ثغرةً أستخدمها لصالحي، ومع ذلك بدا لي أنه لا ضرورة لمثل هذا التَّنطُّع أو التَّطفُّل لاستغلال الموقف بين صديقتين، يعرفان بعضهما بالتأكيد قبل أن أظهر لهما هذا الظهور العارض الطارئ، الذي يرتكز أساسًا على مُبرِّر كاذب، لا وجود له، ولن أضمن ألَّا يستديرا ضدِّي إذا عرفتا خُبثَ نيَّتي وغرضي. ربما أقصى ما أقدِّمه لإنقاذ هذه الجلسة من التأزُّم هو اقتراح موضوع جديد، وبسرعةٍ انتبهتُ إلى أن بعض أبواب المقهى وشرفاته تتميَّز بمعمار كلاسيكي قوطي، لا يشبه المعمار الذي حولها، وتهيَّأ لي أنه مبنًى كَنسيٌّ، تحوَّل عن أغراضه، وصار الآن هذا المقهى؛ فانتهزت فرصة لحظات الصمت التي طالت بينهما، وسألتهما عن التاريخ الذي ينتمي إليه هذا المقهى، فتناوَبَتا كلتاهما على إجابتي عن تاريخ المبني، الذي يمتدُّ عمره إلى ما قبل إطلالة القرن العشرين، أي ما يقرب من قرن مضى من الزمان، في عهد الملك «رالف»، الذي كان يحب الفنون؛ ليكون استراحة له على البحيرة، وصمَتَت السيدة، فأضافت «أوليفيا» بأنه صحيح تمَّ بأوامر الملك «رالف»، لكن بإشراف وتوجيه الملكة، التي كانت شاعرةً ورسَّامة ومُحبَّةً للفنون، وكانت تختار هذه الاستراحة على ضفاف البحيرة، تكتب شِعرَها، وترسم لوحاتها، وكانت تقيم حفلات الرقص الملكية في هذا المكان، وتستدعي الموسيقيين والفنانين والرسامين والشعراء، حيث كانت تقدِّم لهم الرعاية، وأفصحتُ عمَّا رأيته شيئًا يمُتُّ للمعمار القوطي الكنسي، فأفهمتاني أنه إحساس صحيح؛ لأنه من تقاليد القصور والاستراحات أن يكون هناك مكان للصلاة، وربما كان هذا الجانب هو ذلك الرُّكن المُخصَّص للصلاة، وله طابع كنيسة صغيرة؛ لأن الاستراحة ليست فقط هذا المقهى، ولكن كل هذه الأبنية، وقد كانت إحداها مطعمًا شرقيًّا؛ هو مطعم «الباشا»، وثمَّة جزء تحوَّل إلى مكاتب لحراسات الغابات، وقادنا الحديث إلى عهد قديم كانت فيه بوخارست تسمَّى «باريس الصغيرة»، وكانت تربطها بالعاصمة الفرنسية وشائجُ كثيرة، صنعها الأدب والفن، وكان حديثهما عن الماضي مشحونًا بالحنين إلى عالمٍ أبهى وأجمل عرفته هذه المدينة، وهذه البلاد، وقلتُ في نفسي بأنه إذا كان هذا حقًّا شعور امرأتين تنتميان للحلقة الأولى من حلقات الحكم، وأرباب الامتيازات والحياة الناعمة المرفَّهة؛ فكيف إذًا ببقية الناس، هناك بالتأكيد شيء في حاضر البلاد، لا يروق لأهلها، هناك شيء ما خطأ، أو بتعبير شكسبير في هاملت: «هناك شيء ما يتعفَّن في الدنمارك»، و«دينماركنا» في هذه الحالة هي رومانيا، ولعلَّ هذا العفن، وهذا الخطأ، هو الجرثومة الناغلة في دم النظام، التي ستتحوَّل إلى سرطانٍ يقضي عليه.

أعرف، حدسًا، أن الجلسة تقترب الآن من نهايتها، ولا بُدَّ أن أتدبَّر طريقة، لا أدري ما هي، ولا كيف، للاحتفاظ بعلاقتي مفتوحة بالآنسة «أوليفيا»، هناك إحساس غامض، أحسَّ به، وهو أن في قلبها مَوجدَة ما ضد النظام، لا تفسير ولا تبرير ولا مُسوّغ لهذا الإحساس، عدا أنني أري ضيقًا يبدو على وجهها أثناء ذِكر النظام والأحزاب والرئيس، وبراحًا وهناءً عندما يأتي ذِكر عالمَ الأمس، الذي كان سابقًا لهذا العهد، ولا بُدَّ لي من استكناه حقيقة هذا الإحساس لديها، ما زالت المهمَّة مُعلَّقة، وهذا اللقاء لم يقرِّبني شبرًا واحدًا من الهدف الذي أسعى إليه، فماذا أفعل يا ترى؟ انتبهت امرأة الحزب

إلى امرأة تدخل المقهى وتشير إليها بالتحية، كانت امرأةً تقاربها في العمر، مع رجل من فئتها العمرية أيضًا، فقامت لتحيتهما؛ الأمر الذي جعلني أحظى بلحظة انفراد مع المرأة التي استهدفتُ لقاءها، قائلًا لها بأنني شديد الامتنان لأنها أحضَرَت سيدة من أهل الاختصاص، غير أن الحديث مع سيدة الحزب يجعلني لا أستطيع الإحاطة بكل جوانب الموضوع، لكي لا أستفزَّ الجانب الرسمي الحزبي لديها، ولكن معها أستطيع أن أتحدَّث لا عن الجوانب الإدارية الإجرائية، ولكن عن الصيغة الفنية والأشكال والمضامين والتأثير الذي يَكسَب للتراث الفني والأدبي الليبي أصدقاءً بين أهل بلادها ووسط أهل الفن والأدب، يجب الحرص على أن تصل الدعوة إلى أصحاب هذا المجال في الأكاديميات الفنية، عدا المبدعين، وهو أمرٌ يخرج عن اختصاص امرأة الحزب، ويقع في إطار العون الذي ألتمسه من إنسانة أكاديمية من بنات هذا المجال مثلها، واكتفيتُ بهزَّةٍ من رأسها بالموافقة، لأقول، بسرعة أسبق بها عودةَ سيدة الحزب إلى جلستنا، بأنني أرجو أن يكون اللقاء في نفس الموعد من يوم الأحد القادم.

كان الكتاب الذي أهداه لي، قد احتوى في المقدِّمة نبذة قصيرة عن السيرة الرسمية للمؤلف، تقول إنه انضمَّ منذ صباه إلى الخلايا السرية للحزب الشيوعي الروماني، قبل أن يصبح الحزب قوَّةً سياسية تسيطر على إدارة البلاد، بفضل النضال البطولي لقوى الثورة، ومناصرة قوى التحالُف الشيوعي العالمي، وتضيف هذه النبذة عن حياته الحزبية أنه تعَرَّض للاعتقال أثناء نشاطه السري وضبطه وهو يوزِّع المناشير، وقد استطاع بفضل اجتهاده أن يتقدَّم الصفوف، ويصبح عضوًا في المكتب السياسي لمدينة بوخارست، ثم احتلَّ وظائف حزبية على المستوى الوطني، بفضل ما أظهره من عمق التناول والمعالجة، في مجال التنظير الماركسي، وما استطاع تقديمه من إضافات للاشتراكية العلمية، أوصلته إلى أن يأخذ مكانه في اللجنة المركزية للحزب، ثم عضوًا في المكتب السياسي «البوليت بيرو» أمينًا للفِكر والدعوة والتثقيف. ولم أكن أنتظر من مثل هذه الفذلكة التاريخية عن مؤلف الكتاب أن تقول كل ما صار شائعًا بين الناس، عن حقيقة الوصول إلى المناصب العليا في الحزب والدولة، فهي لم تكن يومًا من الأيام تعتمد على الجدارة أو الكفاءة، وإنما على أساليب أخرى أشبه بأساليب المافيا، فلا وصول إلى المراكز العليا في أي حزب من هذه الأحزاب الشيوعية الحاكمة إلا بتقديم الثمن؛ تَجسُّسًا على الأصدقاء، وكتابة التقارير عنهم، وعن خصوم الزعيم والحزب، حتى لو كانت هذه التقارير ستؤدِّي بهم إلى السجن والإعدام، بل كثيرًا ما طلبت هذه الأحزاب أن ينفِّذ الأصدقاء حكم الإعدام في رفاقهم وأصدقائهم؛ إثباتًا للولاء والوفاء، ولا شكَّ أن هذا المرض الكلبي الذي تفاقم معه، حتى كاد أن يتحوَّل من إنسان إلى كلب، ليس إلا نتيجة للتَّشوُّهات النفسية الناتجة عن مسيرة التَّطوُّر التي حقَّقها في مراتب الحزب، وصولًا إلى أعلاها شأنًا، وهي الرجل الثاني في الحزب بعد أمينه العام، وحصادًا مؤلِمًا مُرًّا لهذه المسيرة.

ولم يكن ثمة سبب يدعوني لمواصلة الاحتكاك به، والاقتراب منه، إلا حرصي على توثيق العلاقة مع ابنته وتعميقها، والوصول بها إلى الهدف المنشود، فلا شَكَّ أن المحافظة على نوع من المودَّة معه ستخدم مستقبل العلاقة مع ابنته «أوليفيا»؛ ولهذا فإنه عندما حانت الفرصة لأن ألتحق به في الحديقة لم أتردَّد في اهتبالها، متسلِّحًا هذه المرة بما استطعت أن أحيط به من أفكار، عبر قراءة متأنِّية لأكثر من مائة صفحة من الكتاب، وقد أثارني وأنا أقرأ هذه الأفكار ما كان يثيرني دائمًا وأنا

أقرأ الأدبيات ذات التوجُّهات الإنسانية والأهداف النبيلة الراقية لأنظمة وأحزاب تمارس أبشع أنواع القهر والقمع لشعوبها، هو هذا التَّبايُن المرعب بين عالم الأفكار، بما يزخر به من مُثُلٍ عليا، وأهداف نبيلة، وبين الواقع، المفعم بأنواع لا حصر لها من المخازي والسقوط الإنساني، وسؤالي له حول هذا الموضوع سيكون سؤالًا شائكًا، يتماسُّ مع أكثر المناطق خطورة وحساسية في سياسات دولته، وكان لا بُدَّ أن أختار أسلوبًا لا يستفزُّه، ولا يوقظ هواجس الخوف من الأجانب، المزروع في عقل وقلب كل مواطن في رومانيا، مسؤولًا أو غير مسؤول؛ ولذلك فإنني ما إن وجدته يتَّجه إلى الحديقة، حامِلًا صحيفته، يطرحها أمام وجهه، ويجلس في مكانه المعتاد؛ حتى ألقيت التحية، وجلست على طرف المقعد المستطيل، أنتظر أن يرفع رأسه من الصحيفة، وعندما حان الوقت لتبادُل الكلام معه، قلت، وأنا أراعي كل كلمة أقولها؛ لكي لا أقع في خطأ الإفصاح عن الطوايا الخبيثة للسؤال:

– هناك فجوة يشير إليها أهل الفكر، ويقترحون شتَّى الوسائل لردمها، بين عالم الأفكار وعالم الواقع، خاصة لدى أولئك الذين استهدفوا أن يكون الواقع انعكاسًا لأفكارهم، والسؤال هو: لماذا في رأيكم يصبح الواقع دائمًا عصيًّا عن الخضوع والامتثال لعالم الأفكار، والاستجابة لما فيه من نُبلٍ ورُقيٍّ؟ وهل ثمة طريقة حقًّا لتجسير هذه الفجوة بين الاثنين؟

ظلَّ صامتًا لفترة قصيرة، ينقل نظره واهتمامه إلى الصحيفة التي كان مُمسِكًا بها ما يزال، كأنه يتابع قراءة مقال لم يكمله، بينما كان في واقع الأمر، وهذا ما أدركته من نظرته الثابتة، التي لم تكن تتابع الأسطر والكلمات التي أمامه، يحاول أن يكسب وقتًا لإيجاد إجابةٍ تعفيه من قول الحقيقة، فالسؤال الذي حرصت على أن أقوله بأقصى درجة من اللياقة، لم يكن بريئًا، وإنما يحتوي على حمولة خطيرة، لا يمكن أن يغفل عنها، رجل قضى عمره سائرًا، وسط حقل ألغام السلطة والحزب المفيوزية، ويبدو أنه استحضر ما يريد أن يقوله، فقد رفع رأسه عن الصحيفة قائلًا: «لا بُدَّ أنه ساذج جدًّا، إن لم يكن غبيًّا، مَن يتوهَّم أو يتصوَّر، أو يخطر على باله، حتى بشكل عابر، احتمالُ أن يحدث هذا التطابق المستحيل بين الواقع والتنظير الفكري، مهما اجتهد هذا الواقع في محاكاة الفكر، ومهما اجتهد الموكل إليهم تطبيق هذا الفكر، على أن يكون صورة صادقة لما نقوله في عالم الأفكار والمبادئ والمُثُل، وأقصى ما يطمح إليه أي مجتمع هو تقريب المسافة بين الاثنين».

«أهل الفكر، يرون الواقع، ويلتمسون مشاكله، ويعرفون احتياجاته، ولكنهم عند وضع أفكارهم على الورق، هم ليسوا ممارسين، وليسوا غاطسين في أرض الواقع، وإنما يُطلُّون عليه من عَلٍ، إنهم يركبون ما تسمِّيه لياليكم العربية، بساط الريح، فيرسمون الخرائط لواقعٍ يرونه من مكانهم العالي، واضحًا جليًّا، ويستطيعون من ذلك المكان، فهم حدوده وتضاريسه، ووضع أفكار تنسجم مع معطيات هذا الواقع المكانية والزمانية، ولكن أثناء التطبيق لا وجود للبساط السحري، هناك أرضٌ وطينٌ وأوحال ومستنقعات وصخور وأحراج تسكنها وحوش ضارية وحشرات سامَّة؛ ولذلك فعندما تهبط بهذا الفكر إلى الواقع، فإنك لا تستطيع إطلاقًا أن تمنع تأثُّره بهذا الواقع، أو تحول بينه وبين أن يتلوَّن ببعض ما فيه من أوحال ومستنقعات ووحوش وحشرات، كما يمكنه أن يتأثَّر ويتفاعل إيجابيًّا، بما في هذا الواقع من كائنات سليمة مفيدة إنسانًا وحيوانًا

ومُعطيات إيجابية في الطبيعة والبيئة، حجرًا وبحرًا وأرضًا. ميزة الاشتراكية العلمية أن رؤيتها للعالم رؤية أكثر إنسانية ورحمة ورأفة بالإنسان، وفهمًا لاحتياجاته، من أية نظريات أخرى تحكم المجتمعات، وأراها أيضًا، من واقع الخبرة المباشرة، أنها أكثر حرصًا على الوفاء بهذه الاحتياجات، المادية والمعنوية، والتطبيق هنا لا يقاس بالمطابقة، وإنما بمدى الاقتراب من تحقيق هذه الأهداف، وبسبب نُبل ورُقيِّ هذه الأهداف، فإن أي اقتراب يُحقِّقه التطبيق هو سير في الاتجاه الصحيح، بعكس نظريات أخرى، دينية أو رأسمالية أو ذات تلوينات عنصرية، فإنها منذ البداية تضع تصوُّرًا بعيدًا عن النُّبل الإنساني الموجود في الاشتراكية العلمية، إنها تتحدَّث عن فوارق طبقية، وتصنع لها المبرّرات، أحيانًا تقوم هذه النظريات على العِرق أو الدين أو المذاهب أو الطائفة أو الجنس؛ ممَّا يجعلها تتَّخذ منطلقات كارثية، لن تصل في التطبيع والواقع إلَّا إلى نتائج كارثية، ولا تحدثني عن دويِّ التوجُّهات والأنظمة الدينية الثيوقراطية؛ لأن ما يعنيها هو عالم ما بعد الموت، فلا سبيل لأن تتكلَّم هنا عن تطبيق ولا هُوَّة تفاوت بين الفكر والممارسة؛ لأنك لن تصل إلى حقيقة ما تقوله هذه الأنظمة وهذه الأفكار إلا بعد أن تموت».

قال كلمته ونهض واقفًا وهو ينظر إلى ساعته ويطوي صحيفته، كأنه كان يلقي درسًا انتهى وقته في فصل مدرسي، قائلًا إن هناك حصة تمارين علاجية حان موعدها.

نعم، قلت في خاطري، لا بُدَّ أن مستنقعات الواقع، التي رآها تنتظر أفكاره ذات المنحى الاشتراكي العلمي، لم تكتفِ بتلويث إنتاجه الفكري عند التطبيق، كما يقول، وإنما وصلت إلى عقله أيضًا، إذا استطعتُ أن أفهم فحوى إجابته على سؤالي، بأن هنا تلوُّثًا هو جزء من معطيات الواقع وتجلياته، لا بُدَّ من التعامل معه والقبول به والتسليم بنتائجه.

لن يستطيع فيلسوف الحزب أن يكشف أكثر من ذلك، ولم أستَطِع، حسب مقتضيات اللياقة والدبلوماسية، أن أمضي في طرح الأسئلة وكأنها تحقيق قضائي أو مُساءَلة قانونية. لا بُدَّ أنه ضاق بالسؤال، وأجاب مُرغَمًا عليه، منتهيًا إلى ذلك الغمز الموجَّه لذوي المسحة الدينية في فكرهم وأنظمتهم؛ إذ لم يكن ممكنًا أن يقابل سؤالي بالصمت، الذي يعني الهروب، ثم أفتعل سببًا للانسحاب من الجلسة، دون أن يضيرني ذلك، طالما أنني أسعى لتحقيق هدف له سُمُوٌّ ونُبلُ الأهداف الكبيرة، هو الارتباط بعلاقة ودٍّ ومحبَّة مع ابنته «أوليفيا»، راجيًا أن يبتعد التطبيق في هذه الحالة عن كل مستنقعات الواقع وأوحاله.

بدا واضحًا أن الطبيعة تُحابي هذه الفتاة، التي استعارت بعض ألوان الفراشات، ورشاقتها ورقَّتها وعذوبة تفاعُلها مع مناخ الربيع وأزهاره؛ فقد تجلَّى الطقس في أبهي حالته، وجاء المساء عامِرًا بأنسام منعشة، تعبق بعبير الزهور التي تحفل بها حدائق هيراسترو، وجاءت «أوليفيا» ترتدي ثيابًا لها ألوان الربيع، كأنها باقة من أجمل ورود الحديقة، وكنت سعيدًا بأن أراها قادِمةً نحوي، لا تصحب أحدًا، كما كان الحال في المرة السابقة، فهرعت إليها أرحِّب بها، مُتَّجِهًا بها إلى نفس الركن، قريبًا من حافَّة البحيرة، حيث قطعان البجع والبط تسبح في سلام، تحوم فوقها وحولها اللقالق، وتلعب معها، وتضفي على الجو لمسةً من البهاء والأمان.

سألتني «أوليفيا» لحظةَ جلوسنا إن كنت قد وجدت السيدة «كارمن» مفيدةً للمشروع، فعبَّرتُ لها عن بالغ شكري؛ لأنها قامت بتعريفي بهذه السيدة، التي ستكون مفيدة جدًّا للمشروع عند البدء في تنفيذه، ولكن التحضير والاختيار وانتقاء اللوحات والفقرات الفنية والبرنامج الأدبي، يحتاج إلى أهل التخصُّص الفني أمثالها، وليس للإداريين ونساء الحزب.

ضحكت «أوليفيا» ضحكتها المميَّزة، ذات الرنين المرح، لدى سماعها كلمة «أهل التخصُّص الفني»، وأعادتها كأنها جملة أكبر من مستواها؛ فلم أشأ أن أبالغ في الثناء عليها، وأعارض سخريتها من هذا الوصف، وانتهزتها فرصة لأقول إن هذا الجو البديع، لا يجب إضاعته في أحاديث العمل والوظيفة، وإنما استثماره في أشياء أكثر قيمة من ذلك، فقالت بسرعة، ودون أن أرى فيما تقوله أي خبث أو نَصبٍ للفِخاخ، يمكن أن توحي به الطبيعة الملتبسة لسؤالها– قالت تسألني:

– مثل ماذا؟

«نعم»، قلتُ في نفسي، إنه بالتأكيد سؤالٌ وجيه، فما هي هذه الأشياء الثمينة التي نستثمر فيها بهاء الطقس وجماله، ربما كانت الإجابة هي الأحاديث التي تتصل بالعواطف وشؤون القلب، باعتبار الحب هو أكثر الأشياء ملاءمة لمثل هذه الأجواء الربيعية، وإذا كانت الكائنات الأخرى، التي لم يمنحها الله عقلًا مثل البشر، تدرك بالغريزة والبداهة هذا المعنى، وتباشر معانقة بعضها بعضًا، فماذا عن البشر، أليسوا هم الأَوْلَى بالتفاعل مع الطبيعة في دورتها المتجدِّدة الخصيبة، والاستجابة لندائها، نداء الحب والبهجة، إلا أنه حديث سابق لأوانه كثيرًا، قلت أذكِّر نفسي، وربما كان سببًا في إنهاء العلاقة قبل أن تبدأ، لما سيثيره من شكوك لديها، وربما إحساس بأنني «داخل على طمع» في الفوز بها والاستمتاع بجمالها، فبادرتُ قائلًا بأنه ليس في عالمنا، إن لم يكن في الكون كله، حديثٌ أجمل وأرَقُّ وأكثر روعة وسحرًا من حديث الفن؛ فهو الأقرب للتعبير عن العواطف والمشاعر الإنسانية، وإظهار أنبل وأعظم ما تملكه الكائنات البشرية. وطبعًا، قلت مضيفًا، ليس الفن في سياق المَعارِض، والتَّبادُل الثقافي بين المؤسَّسات الحكومية، ولكن الفن، باعتباره إبداعًا، وخَلقًا، وحرية، وجمالًا، وشرفًا للإنسان، وتعميقًا لإنسانيته، وارتقاء بها، وارتفاعًا إلى أعلى المراتب التي أرادها الخالق للإنسان، عندما اختاره خليفه له فوق الأرض. ورأت هي أن ما أقوله عن الفن كلام صحيح، ولكنه ليس واضحًا في أذهان الناس؛ ولذلك فهم لا يستفيدون منه على الوجه الأكمل، ويمكن لإنسان –كما قالت– أن يقضى حياته دون أن يقترب من الفنون، إلَّا تلك التي تقتحم عليه حياته فيتلقَّاها مُرغَمًا، مثل الغناء الذي نسمعه في المناسبات والأعياد، أو عبر مذياع أو تلفاز دون إمكانية أن يتجنَّبه أحد من الناس، إلا إذا كان أصمَّ، أمَّا أن يذهب إلى مشاهدة مسرحية، أو عرض أوبرا، أو حضور عزف أوركسترالي، أو الذهاب إلى معرض رسم، وقراءة رواية أو ديوان شعر، فهذا قد لا يحدث أبدًا في حياة بعض الناس، وبينهم مَن وصل مراحل متقدِّمة في التعليم، وأشارت إلى حديثنا السابق، عن ماضي رومانيا في الفنون، والنظر إلى بوخارست كعاصمة للفنون تنافس باريس، باعتباره مجدًا غابرًا، وماضيًا لن يعود في ظل مثل هذه الآلة الحزبية، التي تعمل مثل آلة البلدوزر؛ مَهمَّتها أن تسوِّي كل شيء بالأرض؛ تطبيقًا لشعار المساواة، بشكله المشوَّه، الذي يقضي على النبوغ والتفوُّق والنجاح، وينتهي إلى تجريف الأرض، وقتل كل بادرة إبداع في مجالات الأدب والفن.

كان كلامها مفاجأة لي، وقلت، بغرض استجلاء ما تقول، واستفزازها للتوضيح والشرح، بأني كنتُ أظن أن الأحزاب الشيوعية تؤمن بالثقافة للشعب، وتعمل جاهدة على نشر الفنون والآداب وتيسير وصول المنتج الثقافي، إلى بسطاء الناس، فقالت إن هذا ما تقوله النشرات الدعائية، وما تقوله الشعارات، ولكن الحقيقية عكس ذلك، فهذه الأحزاب والأنظمة، تعرف أن لا حياة لها، ولا استمرار في الوجود، إلا بتدجين المواطن، وسجن إرادته، وتزييف الوعي لديه، ومسح ذاكرته؛ ولذلك فهو زَيفٌ لا يقتصر على الفنون والآداب، وإنما يتصل بجوهر العملية السياسية، وحقيقة النظرية التي تقوم على ديكتاتورية البروليتاريا، دولة العمال والفلاحين، وحكم أغلبية الشعب؛ فكله كلام لا أساس له، إنه الكذب العاري، خاليًا من أي تزويق، فلا عُمَّال ولا فلاحين ولا أغلبية، وإنما فردٌ واحد أحد، لا شريك له، إنه «لينين»، ثم «ستالين»، ثم حالة تتكرَّر مع كل دولة من دول الكتلة الاشتراكية، وطغاة يتشابهون ويتناسلون، ويسند بعضهم بعضًا، هذا ما أفلحت هذه النظرية في إنتاجه حتى الآن.

قد لا تصدق أن رومانيا كانت بلدَ النجوم، في المسرح والغناء والموسيقي وألوان الأدب: شعرًا، وقصة، وفلسفة، ونقدًا... نجوم لها إشعاع في العالم أجمع، أمَّا الآن فإنني أتحدَّى أن تعرف أنت، الرجل الذي يعمل ويعيش في بوخارست، اسمًا واحدًا في هذه المجالات، لكي تتأكَّد من حجم التَّصحُّر والتجريف الذي حدث.

قلت لها، مداعبًا، بأنني أعرف الفيلسوف «فلوريان بوبيسكو»، فردَّت، دون اعتبارٍ لأن ما قلته كان على سبيل المداعبة، وأسدلت ملامح وجهها في تجهُّم وجدِّيَّة، وهي تقول:

– أعرف أن ذلك حدث صُدفَةً، عندما اكتشفت أنه نزيل في نفس المصحَّة.

وأضافت، بعد أن ارتشفت جرعة من كأس الشاي، تُبلِّل به جفاف حلقها:

– والدي رجل مظلوم، مائة في المائة؛ فقد دخل الحزب مناضِلًا حقيقيًّا، وليس على سبيل التربُّح والكسب الشخصي كما هو حال مَن دخل بعده، تحمَّل السجن والملاحقة في سبيل أفكار آمن بها، وكانت جزءًا من قناعاته في مرحلة الشباب، وكان مستعدًّا أن يقدِّم حياته فداءً لهذه الأفكار والقناعات، فلا أحد يستطيع أن يُزايد على مواقفه. كل الذين تراهم في قمَّة السلطة الآن التحقوا بالحزب، بعد أن صار الحزب هو الحكم والسُّلطَة والثروة.

– ولماذا تعتبرينه مظلومًا.

– مظلوم؛ لأنه وجد نفسه مُحاصَرًا. تحوَّل الحزب إلى فيضان من الزيف والكذب، ووجد نفسه مُحاصَرًا ومغمورًا بهذا الفيضان، أو الطُّغيان، إذا أردتَ أن تُسمِّيه باسمه الحقيقي، فماذا يفعل؟ رؤوس الذئاب المعلَّقة، موجودة فوق كل الأسوار. هل يصمت أم يثور؟ اختار الصمت. وأكثر من الصمت: اختار أن يقفل عقله، فما فائدة العقل إذا كان كبيرًا وعظيمًا، وتعطَّل عن العمل؟ إنه يصبح هو والحجر سواء. يعرف والدي أن المطلوب ليس إنتاجَ الفكر الخلَّاق، إبداعًا وتجديدًا، وإنما تكريس الواقع، خدمة للنظام وأبقاره المقدَّسة.

أبديت لها استغرابي؛ لأنني أسمعها تقول هذا الكلام، وهي ابنة الطبقة الراقية المحظوظة، التي تنعم بالجاه والسلطة والثروة، فأعادت كلمة السيد المسيح «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». وقولًا ثانيًا له أيضًا، هو: «ما فائدة أن يكسب الإنسان العالَمَ ويخسر نفسه»، وصارحتني بأنها تخطِّط فعلًا للفرار من هذا الواقع، ربما تحت غطاء دراسة عليا، ربما في بريطانيا، التي تعرف لغتها، وتميل إلى فنونها وتراثها.

خرَجتُ من اللقاء مصعوقًا بما سمعته من نقمة على الأوضاع السائدة في بلادها، وهو بَوحٌ أسعدني من ناحية أخرى؛ لأنه يعبِّر عن عمق التواصل التي حدث بيني وبينها، وحجم الثقة التي أَوْلَتها لي، ولم يَمضِ على لقائي بها غير وقت قصير، واستطَعتُ إقناعها بلقاء في نفس المكان ونفس الموعد، من الأسبوع القادم، فاستجابَت، وهي تعود إلى ضحكتها ذات الرنين البهيج، قائلة:

– أرجو أَلَّا يكون الطقس جميلًا في الأسبوع القادم لكي نعود إلى الحديث عن الأسبوع الثقافي الليبي في رومانيا.

كان ما أذهلني، بالإضافة إلى صراحتها، وضيقها بسياسة بلادها، هو أنها اختارت لهذه المكاشفة رجلًا أجنبيًّا، ديبلوماسيًّا، هو أنا، في بلد أعرف أن الخوف صار فيها، أسلوب حياة وتفكير، إلى درجة أن الناس يخافون أحيانًا من أفراد أسرتهم؛ إذ يمكن أن يخاف الزوج زوجَتَه أو الزوجة زوجها، وأحيانًا الأب من ابنه أو ابنته، فكيف لا تخاف هذه المرأة رجُلًا غريبًا، تلتقي به لقاء عرضيًّا طارئًا عابرًا، سعى لمقابلتها مُستَخدمًا أعذارًا واهية، تدعو إلى الريبة أكثر ممَّا تدعو إلى الثقة، فتغامر بهذه المكاشفة التي تفضي إلى الهلاك إذا وصَلَت إلى الأجهزة الأمنية.

وحاولتُ أن أجتهد في التفسير، ذاهبًا إلى أبعد من التباهي بأنها أحبَّتني، وبدافع هذا الحب صارَحَتني بمكنون نفسها، وكان أحد هذه التفسيرات انطباع والدها عني؛ فقد أخبرتني أثناء اللقاء أن والدها أحسَّ من سؤالي له عن الفرق بين الواقع والمثال أنني أملك رؤية نقدية للتجارب الاشتراكية التي تبشِّر بفكرٍ فشلَت في تجسيده على أرض الواقع، ووقعت في هذا التناقض المريع بين الممارسة والشعار، وهو ما فهمت منه «أوليفيا» أنني أرى الأوضاع الكارثية التي تعيشها بلدان الاتجاه الواحد، والأحزاب القائدة، الرائدة، ذات التوجُّهات التقدُّميَّة، الزائفة، الكاذبة، المريضة، وليست بلادها استثناء من ذلك، إن لم تكن الأسوأ بين الجميع. ويأتي، بعد ذلك، ما يمكن أن أسميه الانجذاب المتبادل، كدافع آخر لهذه المكاشفة، فقد أحسَّت بطبيعة الأنثى، وشفافية أهل الفن، أنني منجذبٌ إليها، وربما مفتون بها، وقد وجَدَت في نفسها استجابةً لهذا الانجذاب، وثقة أنني لن أفعل شيئًا يؤذيها، خاصَّةً وأنني لست مَعنيًّا بأن أخدم أجهزة بلادها، أو أكون مرشدًا لها، فالرائج والطبيعي بالنسبة للديبلوماسي أن يكون عينًا على مثل هذه الأجهزة لصالح أجهزة بلاده، لا عينًا مُرشِدًا لصالح البلد الذي يعمل فيه، ولعلها كانت بحاجة إلى إنسان تصارحه بما يضيق به صدرها، ولم يكن متاحًا مثل هذا الإنسان في الدائرة القريبة منها، ليس فقط خوفًا من الوشاية، ولكن أيضًا الخوف على هذا الإنسان نفسه، رجُلًا كان أو امرأة، فقد تجلب عليه بلاء من حيث لا يدري، إذ يكفي أن تصل نأمَةٌ إلى السيكوريتا بأن أحدًا تكلَّم مُنتَقِدًا النظام أمام إنسان آخر، ليصبح الاثنان في دائرة الشبهة والاتهام، حتى لو أنصت إنصاتًا سلبيًّا لا يرافقه أي تعاطف أو تعليق، فإن جريمته تبقى أنه سمع ولم يقُم

بالتبليغ، حتى لو كان صاحب النقد أخًا أو أبًا أو أمًّا؛ لأن مصلحة الوطن، ومصلحة الحزب، تأتي قبل وفوق القرابة والصداقة.

كان لا بُدَّ أثناء ذهابي إلى السفارة، ولقائي بالقائم بالأعمال (واسمه عباس) أن أتلقَّى سؤالًا عن تطوُّرات الموقف مع فيلسوف الحزب، وقصة علاجه من مرضه العقلي النفسي، ومتى يكتمل الملف الذي يجب أن نضعه أمام السيد أمين الخارجية، ليضعه هو بالتالي أمام القادة، ولم أعرف كيف أنقل له أن حماسي قد تبخَّر لإثارة الموضوع، والوصول به إلى دوائر الحكم العليا في ليبيا، بل أجد أن أهميته نفسها ليست بالحجم الذي تصوَّرتُه في البداية، وسألته إرجاء الموضوع حتى أجد حقائق أكثر أهمية تحت يدي، وأن مثل هذا الأمر يحتاج إلى مزيد من الوقت والصبر، وعلى مضضٍ تقبَّل السيد عباس كلامي؛ فهو يستعجل وجود ورقة تعزِّز مساعيه للحصول على الترقية التي يرنو إليها، قبل أن يواجه قرار الإحالة إلى التقاعد، بينما أطلب أنا وقتًا وصبرًا، من رجل صار يحسب ما تبقَّى له في الوظيفة العامة بالأسابيع، وليس بالأشهر والأعوام، ولكنه مهما أحسَّ بالضيق والغيظ، فإن قدرته محدودة على أن يفعل أي شيء لتفريغ شحنات غيظه، ولعل البديل هو أن يفسد اللعبة، طالما أحسَّ أنه لم ولن يجني منها فائدة، إلا أنها ليست قابلة للإفساد، فلا شيء منها يقع مباشرة تحت سيطرته. إنه حدث يمضي في سياقه، ولا سبيل أمامه غير الترقُّب والمشاهدة والانتظار كما يشاهد أحداث فيلم لا بُدَّ أن يبقى جالسًا في مقعده، عاجزًا عن فعل أي شيء إزاءها، سواء راقت له أو لم ترُق، وما عليه إلا الانتظار، بأمل أن يحصل شيء ممَّا قلته له سابقًا، عندما أكتب له تقريرًا يأخذه إلى طرابلس، يحتوي كلامًا عن حالة فيلسوف الحزب، مصحوبًا ببعض المعلومات التي تبرِّر مخاطبة الوزير، ومن بعده القيادة، وآخِذًا على نفسي عهدًا بألَّا أجازف إطلاقًا بالكشف عن أية حقائق أو معلومات أعرفها عن طريق «أوليفيا»، تكون قد أبلغتني بها بدافع الثقة والمحبة؛ لأن ذلك سيكون خيانة لثقتها بي وحبها لي، مهما كان حجم الفائدة التي سأجنيها من ذلك، ولن أكون صغيرًا أمامها، أو صغيرًا أمام نفسي، فأرتكب مثل هذه الخطيئة.

عقدتُ العزم على أن أكاشفها بحقيقة مشاعري نحوها لحظة أن ألتقي بها في المرة القادمة، وأذكر لها كيف بدأ الأمر إعجابًا بذوقها في اختيار ملابسها، وعذوبة شخصيتها، ورشاقة قوامها، وجمال وشفافية ملامح وجهها، وتحوَّل الإعجاب إلى حبٍّ، بعد أن زادت معرفتي بها. كنت قد أحجمت في اللقاء السابق عن البوح بقوة وعمق ما أحمله لها من عاطفة؛ لأنني كنت أخشى أن أتلقَّى ردَّة فعل غاضبة منها، ربما تكون سببًا في إنهاء العلاقة خاصة، وأنني توسَّلتُ للوصول إلى هذا اللقاء بذريعة الأسبوع الثقافي، فأن أحيله منذ اللحظات الأولى إلى عمل من أعمال الغرام، سيكون أمرًا يدعو إلى الريبة، وسيكون صعبًا القبول بأن ما أقوله يعبِّر عن شعور صادق، وربما رأت فيه خديعة، وغشًّا في اللعب. أمَّا الآن، وبعد حديث المكاشفة الذي سمعته منها، فلم يَعُد هناك ما يدعو إلى التحفُّظ في التعبير عن عواطفي، بل إن حجب هذه العواطف سيكون خطأً في حقها وحق جمالها، وحق ما أبدته من سلوك إيجابي نحوي، ونحو العلاقة التي تربطني بها، ويقينًا ستجده

كلامًا يحمل خاتم اللا أمان لها؛ فهي الآن عندما تفصح عن حقيقة موقفها المعادي للنظام، لا تفصح عنه لمجرد صديق عرفته عن طريق الصدفة، وإنما لإنسان مُحبٍّ، لا سبيل لأن يؤذيها أو يكشف سرَّها.

قبيل أن يحين موعد لقائنا بثلاثة أيام، وقد أصبح مساء الأحد موعدًا له، وفي صباح يوم الخميس، خرجت صحف بوخارست، وكلها صحف حزبية حكومية، تحمل عناوينها الرئيسية، بالصفحات الأولى، أخبار الكشف عن حلقة من حلقات التجسُّس والتآمُر ضد الدولة، وأن صقور الأمن الوطني انقضُّوا يوم أمس على أوكار هؤلاء المتآمرين الجواسيس، وقادوهم جميعًا إلى المعتقلات، في انتظار مثولهم أمام القضاء، لتعرف الإمبريالية العالمية، وأعداء التوجُّهات الاشتراكية، أن للبلاد حُماتها الأحرار الذين يمثِّل النظامُ الاشتراكيُّ عقيدةً بالنسبة لهم، تستحق افتداءها بالروح والدم. وكشفت الصحف عن بعض تفاصيل ما حدث، وكيف تمَّ استقطاب فتاة رومانية، من قِبَل مخابرات ألمانيا الغربية للعمل جاسوسةً ضد بلادها، وهي فتاة تنتمي إلى منطقة من رومانيا، ذات ازدواجية إثنية، لغوية، رومانية ألمانية، وتتعرَّض هذه المنطقة لمحاولات اختراق متكرِّرة من قِبَل المخابرات الألمانية الغربية، وأفلَحَت في زرع الفتاة للعمل سكرتيرة بإدارة الحزب، في العاصمة، واستطاعت سيكوريتا أن تلتقط إشارات لاسلكية تنطلق من منطقة تسكنها تلك الفتاة، وبعد التحرِّي الدقيق لمصدر هذه الإشارات، تمَّ الاهتداء إلى أن جهاز الإرسال موجود في شقتها، وعند ضبطها في حالة تلبُّس اعترفت الفتاة أنها جزء من حلقة من الجواسيس المتآمرين، العاملين تحت الأرض لتقويض النظام الاشتراكي، ودلَّت أجهزة الأمن الروماني على عدد من العناصر العاملين في صفوف الحزب، وآخرين يعملون داخل أجهزة الحكومة. وجارٍ، كما تورد هذه الصحف، ملاحقة هؤلاء العملاء والقبض عليهم، وقد تمَّ تشديد الرقابة على المنافذ البرية والبحرية والجوية؛ لكيلا يتسلَّل منها بعض عناصر المؤامرة ممَّن تجري ملاحقتهم ومحاصرتهم، ومنعهم من الفرار.

بدا واضحًا أن موجة من الرعب الأسود تجتاح البلاد، وعرفت من أهل الخبرة من أعضاء السلك الديبلوماسي أن مثل هذه الحملات هي عملٌ دَوريٌّ يتكرَّر بمعدَّل مرَّة كل بضعة أعوام؛ لإجراء عمليات التطهير التي يقتضيها نظام الحزب الواحد، واستبعاد كل مَن يُظهر شيئًا من الاستقلالية، أو يُعبِّر عن وجهة نظر مخالفة للقائد، أو يحمل في حديثه نغمة نقد واحتجاج على الطريقة التي تدار بها البلاد، وقد رافقت هذه الموجة، ومنذ اللحظات الأولى للإعلان عنها، حالة من الفزع والرعب، شملت كل فئات المجتمع، وازداد خوف الناس من الاحتكاك بالأجانب، إلى حَدِّ أن صاحب دكان البقالة كانت تعتريه حالة من الارتعاش، بمجرَّد أن يرى ديبلوماسيًّا من زبائنه يدخل الدكان، ويكتسي وجهه بشحنة متجهِّمة، تختلط بشيء من الاضطراب، يتبدَّى في النظرات الزائغة، كأنه يتوقَّع مجيء قوة للقبض عليه، ولا يتنفَّس الصعداء حتي يغادر هذا الديبلوماسي الأجنبي حانوته.

اعترتني حالة من الخوف على صديقتي ابنة الفيلسوف؛ فلعلَّ أحدًا من أعضاء البوليس السري كان يتابعها، أو زرع ناقِلَ صَوتٍ في ثيابها، وعرف حقيقة ما تُضمِره للنظام، وما تفصح عنه من نقمة وكراهية له؛ فيصبح أمرًا بديهيًّا أن يشملها

الاتهام بالضلوع في المؤامرة؛ لأنه لا أحد يملك حصانة ولا حماية، طالما وقع في مثل هذه الخطيئة، حتى لو كان مثل «أوليفيا»، ابنة الرجل الثاني في الحزب.

إنها مؤامرة، كما يقول أهل الخبرة بالنظام وتقنياته وأسراره، تصبُّ هذه المرة في هدف التمكين للزوجة السيدة «إيلينا»، وإفساح مساحة أكبر أمامها لممارسة السلطة؛ لأنها طالت –كما تقول الإشاعات التي يتداولها الناس همسًا– أناسًا معروفين بانتقادهم للسلوك الأرعن للسيدة «إيلينا» زوجة الرئيس، التي تَصعَّد دورها في الحكم بسبب ما يراه زوجها تخفيفًا لأعباء لم يَعُد يستطيع أن يتحمَّلها بمفرده، ولا يجد أحدًا أكثر ثقة وأمانًا من زوجته، التي ترضى بدور الظِّلِّ لزوجها، والعمل على تنفيذ رغباته ونزواته.

فكَّرتُ في مهاتفة «أوليفيا» في البيت للاطمئنان على أنها بأمان وسلام، إلَّا أنني تراجَعتُ؛ لأنها لو كانت حقًّا قد دخَلَت دائرة الاتهام؛ فستكون مثل هذه المكالمة هديَّةً لأجهزة الأمن لاستخدامها دليلًا ضدها، في تهمة الاتصال بعناصر أجنبية. ولم أجد وسيلة لتهدئة مخاوفي إلا الاستفسار من أهل المصحَّة عن والدها، أو ربما الالتقاء به، باعتباره نزيلًا مثلي، لن يضيره أن يلتقي في مطعم المصحة أو حديقتها بنزيل آخر، وعندما انتظرتُه ولم يظهر، سألت عنه، فقيل إنه موجود في غرفته، التي آثر ألَّا يغادرها، لكي يتفادى استفحال نزلة برد أصيب بها، كما تجنَّب أيضًا الالتقاء بزوَّاره؛ لأنه لا يريد لأحد أن يلتقط عدوى المرض منه، بما في ذلك أفراد أسرته، فكل الزيارات مؤجَّلة إلى حين الشفاء تمامًا من هذه الوعكة، التي ربما تكون وعكةً مرضيَّةً سياسية، كما خمَّنتُ؛ لأنني لا أستطيع الجزم بصحة ما سمعتُ، كما أنه لن يكون غريبًا، في مثل هذه البلاد، بكل ما يُروَّج فيها من أكاذيب رسمية، وما يتفنَّن فيه أهلُ الحكومة من نسج المؤامرات الوهمية المنسوبة زورًا للمعارضين، أن تكون نزلة البرد التي أصابت الفيلسوف أكذوبةً أخرى من أكاذيبهم، وأن الرجل قد شملته دائرة الاتهام والاعتقال، وأخذوه في الفجر مخفورًا إلى أحد المعتقلات، وأبقوا أمر اعتقاله سِرًّا، تحت ذريعة أنه مريض يلزم غرفته. ولن يصعب عليَّ معرفة حقيقة أو كذب هذا الكلام، من قضاء الليلة في غرفتي بالمصحة، حيث كنت أتركها من حين لآخر، لأنام في إقامتي الخاصَّة، وسأقضى هذه الليلة في المصحة خصِّيصًا لأعرف عندما تتعالى من غرفته نوبات النباح أنه حقًّا موجود. وفعلًا في موعده الذي لا يُخلِفه تصاعد العواء من الغرفة المجاورة، إلَّا أنه هذه المرة أقلُّ حِدَّة وشراسة ممّا كان عليه في الليالي السابقة، ويأتي عبر الظلام واهنًا ضعيفًا؛ ممَّا أعطاني انطباعًا بأن الرجل حقًّا يعاني حالة بردٍ حادَّة، وصَلَت إلى حنجرته، وأضعَفَت أوتار الصوت، ونزعت القوة من قصبته الهوائية، وتركت أثرها واضحًا على قوة النباح الصادر عنه. ومع ذلك فإن احتمال وجود جانب سياسي لهذا المرض احتمال وارد، واتَّخذ نزلة البرد ذريعةً ليتجنَّب حرج الموقف، وهو يجد أن زوابع المؤامرة وصَلَت إلى بيته، وعصَفَت بأحد أفراد أسرته: ابنته «أوليفيا»، فهو يعرف –أكثر من غيره– أن قُربَّه من الرئيس، ووجوده في المراتب العليا في السلطة، لا يعفيه أو يعفي أفراد أسرته من المحاسبة، وكل مَن يدخل في الدائرة القريبة منه، والمستفيدة من امتيازاته. إنه هنا مُطالَبٌ —وأُسرَته، أكثر من غيرهم– بإظهار غيرته على النظام، حكومة وحزبًا، وإظهار أقوى مشاعر الولاء لهذا النظام ورئيس النظام، الحامي والحارس له ولأصحاب السلطة وربِّ نعمتهم، ولعله الآن

مُطالَب –إذ وصل الاتهام لابنته– بأن يعلن إدانته لها، ويبرئ ذمته من سلوكها، ويكون أول مَن يصبُّ اللعنات على ما أظهَرَته من مروق، وما شاركت فيه من تآمُر وخيانة.

لم يكن مُمكِنًا أن أعرف على وجه اليقين إن كانت «أوليفيا» حقًّا قد وقعَت في شباك السيكوريتا، ولم يكن أمامي إلا انتظار موعدنا القادم، في الساعة الخامسة من مساء الأحد، ولكن موجة من الكآبة هاجَمَتني، وزرَعَت إحساسًا في نفسي بأنها لن تأتي، ولكن هذا الإحساس لم يجعلني –ولمدة دقيقة واحدة– أفكِّر في التخلُّف عن الذهاب إلى مكان اللقاء في الموعد المحدَّد، ورأيته إجرامًا في حقِّها أن تأتي ثم لا تجدني واقفًا في انتظارها، كما حدث في المرتين السابقتين، مع اقتناعي تمامًا بأنه من الصواب، بل من الحكمة، حتى لو نجت من الملاحقة والاعتقال، ألَّا تأتي لهذا اللقاء في مثل هذه الحالة من الهستيريا التي تجتاح البلاد، وترمي بالتُّهَم جُزافًا على كل صاحب موقف أو صاحب رأي، ولكنها بالتأكيد أكثر قدرة مني على تقدير الموقف، وسأذهب، مصطحبًا معي صحيفةً أو مجلَّةً أسلِّي نفسي بمطالعتها، إذا كنتُ سأبقى وحيدًا أنتظر قدومها دون أن تأتي، واحتياطًا؛ سآخذ معي الأشرطة والاسطوانات، ليس فقط تنفيذًا لوعدٍ قطعته على نفسي، أو لِما رأيته يدخل في سياق العمل الذي اتَّخَذتُه ذريعةً لهذا اللقاء، بل لِما قدَّرتُ أنه سيكون عُذرًا أمام أية جهة أمنية بأن اللقاء كان لدواعٍ ثقافية عملية، ذات طابع رسمي، وليس لشيء آخر، وليتفضَّلوا بفهم ما يريدون فهمه بعد ذلك.

كانت مفاجأة جميلة أن أجد، عند وصولي إلى المقهى، أن «أوليفيا» قد سبقتني إلى هناك، جالسة في نفس الطاولة التي تعوَّدنا استخدامها، والتي تقع تمامًا على حافة البحيرة، وقد ارتدت نظارة كبيرة سوداء تكاد تغطِّي نصف وجهها، ولا أدري إن كان جوُّ الملاحقة والحصار هو الذي أملى عليها أن ترتدي هذه النظارة، أم أنَّ ارتداءها جاء بحثًا عن بعض الإثارة والتسلية؛ لأن النظارة لم تكن حقًّا سوداء، داكنة السواد، وإنما هناك لون أرجواني جميل يُخالِطُ لونها الأسود، يؤطِّر الوجه الجميل المتورِّد، بشعاع الشفق، مصبوغًا بألوان شمس شتويَّةٍ حمراء، لحظة سطوعها، ويعطي الوجه سَمْتًا جديدًا، كذلك الذي يسمِّيه أهل الموضة وصناعة التجميل: «نيو لوك». ورافقت ذلك تسريحةٌ أنيقة لشعرها، جعلته ينطلق في خصلات تهفهف على الجبين والعنق، وتلامس الكتفين والنهدين، فلعلها حقًّا شغوفة بما تشغف به بعض الفتيات، من مثل هذا التغيير في المنظر، عندما يضفي لمسة جمالية على الفتاة، عبر اللباس، وتسريحة الشَّعر، والاكسسوارات التي ترتديها؛ إذ من حقها، وهي في مثل هذه السن، المونقة، المزهرة، ولديها هذا الذوق، وهذا الوعي، وهذه المعارف الفنية الجمالية– أن تزهو بشبابها وجَمالها، وقد استرعى انتباهي أكثر من أيِّ مرَّةٍ سابقة كل هذا الاهتمام بمظهرها؛ لأنه أعطى لي فكرة عن أسلوب تعاطيها مع الحياة ببالٍ رائق، ونفس خالية من الهم والقلق. ولم يكن الطقس هذه المرة في تمام اعتداله، فقد زحفت الغيوم تخفي نور الشمس، وهبَّت دفعات ريح باردة، تتحرَّك معها أمواج البحيرة، وتصل إلينا بلسعات بردها، وبادرتني «أوليفيا» بالقول إنها جلست في هذه الطاولة لكي أستطيع رؤيتها عند وصولي إلى المقهى، ولكنها لا تراها مناسبة لمثل هذا الطقس، واقترَحَت استبدالها بطاولة داخل المبنى الزجاجي للمقهى، وممَّا ساعد في توفير جلسة هادئة، ومريحة، خالية من الإزعاج الذي يُحدِثه الزحام؛ أن المقهى كان شبه خالٍ من الزبائن، وقد تفضَّلت «أوليفيا» بتقديم تفسير لذلك، وأنها حالة ترافق دائمًا لحظات التأزُّم السياسي، وانتشار أجواء الريبة والخوف؛ لأن كل مواطن يريد ألَّا يكون ظاهِرًا. نوع من طاقية

الإخفاء، التي لم يصل البشر إلى معجزة اختراعها إلَّا في عالم الخيال، فيحاولون تطبيقها بشكل رمزيٍّ مَجازيٍّ إيحائي، يجعلهم في حالة اختفاء عن أعين الآخرين، وبالذات أعين السُّلطة وأجهزتها ورُقَبائِها، وأخبرتها بما اعتراني من قلق عليها وعلى أسرتها، خاصة عندما رأيت والدها يلتزم البقاء في غرفته بسبب ما قالوا إنه نزلة برد أصابته، وأنني، نتيجة ما سمعته من آراء صريحة لها في النظام، رَجَوتُ أَلَّا يكون شيء من كلامها قد وصل إلى الأجهزة، ووضعها هي الأخرى في دائرة المغضوب عليهم، وأنني، لكي أَصدُقَها القول، فوجئتُ بوجودها في المقهى، حيث كنتُ أُرجِّح فكرة تَخلُّفها، لكي لا تطلق العنان لأي تفكير سلبي إزاءها. فقالت إن العكس هو الصحيح؛ لأن مجيئها للقائي يعطي معنى الثِّقة في نفسها، وأن ليس لديها ما تخشاه أو تخاف منه، وأنها تواصل حياتها بشكل طبيعي، فكما التقت بي قبل ذلك أكثر من مرة، إحداها مع عضو من أسرتها؛ هو والدها، ثم بحضور سيدة قيادية في الحزب؛ هي «كارمن»، ثم لقاء انفرادي معي؛ فلا ضَرَرَ من أن تواصل هذه اللقاءات، ولعل انقطاعها هو ما يثير لديهم الشك في أنها تُخفي شيئًا.

كانت «أوليفيا» تتكلَّم بثقةٍ، ودون أن تُظهِر ذَرَّة خوف في صوتها أو في سلوكها، بينما كنتُ ألتَفِتُ شمالًا ويمينًا، وألقي بنظرات أخرى خلف ظهري، وداخل المقهى وخارجه؛ لأطمئنَّ أن لا وجود لأحدٍ ينصت لما تقول. هناك في المقهى، داخله وخارجه، بعض الناس متناثرون، أغلبهم من كبار السن، وعلى مساحة بعيدة من مكان جلوسنا، بحيث نستطيع أن نأخذ راحتنا في الكلام، دون خوف، وكان الكلام يأتي من جانبها وليس من جانبي، يفصح هذه المرة عن جوانب أكثر خطورة من كل ما سمعته منها سابقًا، في هجاء النظام، حكومةً وحزبًا، مع بعض تفاصيل العلاقة التي تربط أسرتها بالنظام ورئيسه، واقتصرَت مشاركتي في الحديث على استهلال الجلسة بتلك الكلمات التي عبَّرتُ فيها عن القلق الذي ينتابني خشيةَ أن ينالها الأذى جرَّاء هذه الحملة، وأَتبَعتُ ذلك بالإفصاح عن عميق العواطف التي أحملها لها، وحقيقة أنها أضحت تحتلُّ رُكنًا حميمًا ودافئًا في قلبي، ورغم أنها استقبلَت كلماتي دون تعليق، فقد أحسستُ بأنها راضية عمَّا سَمِعَت، وأن عواطفي نحوها التي أجَدتُ التعبير عنها هي التي شجَّعَتها بأن تمضي في طريق البوح والكشف عن أسرار ومشاعر، بدا واضحًا أنها تَكتَّمَت عليها لأزمنة طويلة، وقد وجَدَت الآن شخصًا رأته جديرًا -فيما يبدو- أن يكون موضِعَ ثقتها وموئل أسرارها، وكان أول ما قالته هو تأكيدها لما سمعته يدور في بعض الأوساط الديبلوماسية، على سبيل التخمين، في حين تُورِده هي هنا على سبيل اليقين، من أن الإنسان الذي أرسل هذه العاصفةَ من الإرهاب الحكومي، الذي أرعب الناس، ليس الرئيس «نيقولا شاوشيسكو»، وإنما زوجته، السيدة «إيلينا»، وهي -كما تقول «أوليفيا» مثالٌ للجهل والسَّفَه والابتذال، لا ثقافة ولا ذوق ولا معارِفَ عامَّة ولا خاصَّة، ولديها مواقف تتحوَّل على ألسنة المحيط السياسي والاجتماعي الذي يشاهدها ويسمعها، إلى مساخِرَ وفكاهاتٍ ونوادر؛ لِما تحتويه من عَتَهٍ وجهل، لكن زوجها يريد شخصًا مثلها يَثِق فيه ويعتمد عليه، وصاحب شخصية ممسوحة وممسوخة، لا يُمثِّل تهديدًا لسُلطَته، إلى حَدِّ أنها أصبَحَت نائبةً للرئيس، بحُكم الأمر الواقع؛ لأنه لا وجود لقرار أو تشريع يعطيها الحق في ذلك؛ فهي تنوب عن الرئيس في افتتاح بعض الاحتفاليات، التي كان آخرها -كما تقول «أوليفيا»- افتتاح الموسم الفني لأكاديمية الفنون، واختاروا لليلة الافتتاح أوبرا الناي السحري

لموزارت؛ باعتبارها تحفة فنية لهذا الموسيقار المعجزة، الذي يسمُّونه طفل السماء، يستهلُّون بها الموسم، إلَّا أن السيدة «إيلينا»، بشكل صادم، أثناء هذا الحفل، طلبت اختصار الأوبرا؛ باعتبارها -كما قالت- عملًا طويلًا يجلب لها الضَّجَر، وطبعًا قوبِلَ الطلب بالاستهجان والاحتقار والسخرية، والرفض القاطع لإجراء أي تحوير أو اختصار يرضي ذائقتها الشائهة الممسوخة، قائلين لها إن مثل هذا الاختصار سيكون انتهاكًا للتقاليد الأكاديمية، لا أحدَ يجرؤ عليه.

وأصبح ما طالَبَت به نادِرةً يردِّدها الوسط الفني، بهزءٍ وسخرية. هذه إذن هي المرأة التي يعطيها الرئيس حقَّ تصفية الخصوم، والزَّجِّ بهم في السجون، وقد يصل الأمر إلى القتل والإعدام. وأضافت بأن مَن يسمع هذا الكلام يَظنَّ أن الرئيس يُعامل زوجته باحترام وتقدير، بينما هي مجرَّد خادمة لسيدها، بل إن وصفها بالخادمة يضفي عليها شرفًا لا تستحقُّه؛ لأنها أكثر انحطاطًا ورخصًا وسقوطًا من أن تكون خادمةً؛ فهي تعمل قوَّادة لزوجها، يستخدمها لجلب النساء إلى فِراشه، فهل تصدِّق -تسأل «أوليفيا»- أن هناك زوجة في العالم تقوم بمثل هذا الدور لصالح زوجها؟ أجبتُ -في اندهاش- بأنني لأوَّل مرة أسمع أن هناك زوجة تفعل ذلك لصالح زوجها، فقالت:

– إذًا صَدِّق أن «إيلينا شاوشيسكو» استطاعت تأمين مكانة لها في التاريخ من مثل هذا الباب. ولعلها أول امرأة تكاد تكون أُمِّيَّة، وتحمل مع ذلك ثلاثًا وعشرين شهادة دكتوراة فخرية؛ فقد أُرغِمَت جامعات رومانيا، وبعض جامعات البلدان الشيوعية، على منح كل هذه الشهادات لامرأة لا تستطيع أن تكتب اسمها صحيحًا، وهي تمنع مذيعات التليفزيون من عمل المكياج أو ارتداء الملابس الأنيقة؛ بحجَّة أن ذلك يتعارض مع السلوك الاشتراكي، وليس ذلك صحيحًا، وإنما تفعله حسدًا وغيرة، ولكي تبقى الملابس الأنيقة والمكياج والاكسسوارات الغالية حصرًا عليها؛ لأنها تذهب في رحلات خاصة إلى بيوتات الأزياء العالمية، مثل «إيف سان مونتان» و«شانيل» و«بيير كاردان» و«باكو رابان»؛ لاختيار الملابس والعطور، لها ولزوجها، بينما يقف المواطن يومًا كاملًا في الطابور للحصول على حذاء لطفله. وعلى ذِكرِ الأطفال؛ فإن الأغاني التي يتلقَّونها في المدارس تتعامل معهم باعتبارهم أطفالًا بلا آباء ولا أمَّهات؛ فلا أبَ إلا «شاوشيسكو» ولا أُمَّ إلا «إيلينا»؛ فهي سياسة لانتزاع ولاء المواطن وتوجيهه إلى بيت الحاكم منذ سنوات الطفولة.

وخطر لي أن أرى كيف ينظر والدها إلى مثل هذه المباذل، فقلت:

– كان الله في عون والدك، الذي لا شكَّ أنه كان يعاني وهو يرى هذه المباذل والمهازل، ولا يستطيع أن يفعل شيئًا.

– نعم، حدث أنني أعرف بطلة الجمنازيوم الرومانية «ناديا كومينيتشي»، التي جلبت إلى رومانيا أكبر عدد من الميداليات الذهبية في الأولمبياد، لقد شَكَت لي أن صبيًّا مراهِقًا ومتخلِّفًا عقليًّا يقولون إنه ابن الرئيس، كان يضايقها ويرسل إليها حُرَّاسه الشخصيِّين، يجلبونها إليه في بيته لاغتصابها، وتَكرَّر الموضوع؛ فاستنجدت بي باكيةً، صارخةً أن أفعل شيئًا لمساعدتها؛ فأسرعت أنقل لوالدي خبر جريمة الاغتصاب التي تتعرَّض لها هذه الفتاة، التي هي فخر رومانيا، وحبيبة الشعب الروماني، على يد ابن الرئيس، وفعلًا كان والدي على درجة من الغضب والاشمئزاز ممَّا حصل، ونقل للرئيس ما فعله ابنه من أجل إيقافه ومحاسبته على هذه الجريمة. ورغم أنه وعد والدي بأن ينظر في الأمر، إلَّا أنه لم يفعل شيئًا؛ ظلَّ الابن

مستمرًّا في جريمته، وظلَّت ناديا كومينيتشي تبحث عن طريق للفرار خارج البلاد. ويمكنك طبعًا أن تتصوَّر حجم الإحباط الذي يعانيه كل مَن يحاول الإصلاح في هذه البلاد.

فقلتُ، مُبديًا تعاطفي مع ما تقول، بأن الكثيرين لا يعلمون أن الوصول إلى دوائر الحكم العليا قد يكون ورطةً لا ميزة، إنه مَغْرم وليس مَغنمًا.

– وقع ظلمٌ كبير على والدي. ظُلمٌ يصعب أن تحمله الجبال ذاتها؛ فهو عقل كبير، وهو مناضل حقيقي. إنهم جميعًا التحقوا بالحزب بعد نجاحه، بما في ذلك الرئيس، ولكن والدي التحق به عندما كان حزبًا مُطارَدًا، وعندما تخصَّص في التنظير الفكري، قدَّم إضافات حقيقية للنظرية الاشتراكية، وكان يمكن أن تكون كتاباته إنقاذًا لهذا التيار الفكري من المأزق الذي جعله مُنتِجًا للطُّغاة، ومجانين الحكم. لكن فكر الاجتهاد والتجديد لم يكن مطلوبًا؛ لأن الحزب الشيوعي سيتحوَّل إلى حزب آخر غير هذا الذي قاموا بتفصيله ليناسب مقاسات الأقزام الذين يحكمون الكتلة الاشتراكية. وصارت السياسة الرسمية لهذا الحزب هي تكريس الأمر والواقع، وثقافة الكليشيهات، والقوالب الجامدة، وكان لا بُدَّ لمفكِّرٍ صاحب عقل نقدي كبير أن يسجن نفسه في الأقفاص التي يريدها قادة الحزب؛ وإلَّا اعتبروا فِكرَه تَراجُعًا وانحرافًا، وألحقوه بمن سبقه من أهل الاجتهاد، أي كما حدث لتروتسكي على يد ستالين، وهو مثَلٌ يقول إنك إذا دخلتَ القفص؛ فلا خروج، حتى الهروب ممنوع. طبعًا والدي يرى ويسمع، ويسكت، مُرغَمًا.

وقالت إن والدها كان يمكن أن ينسحب منذ بداية وصول «شاوشيسكو» إلى الحكم؛ لأنه كان قد بدأ يدرك الطرق المسدودة التي يسير فيها الحزب، إلا أن الأمين الجديد استخدم أسلوب التمويه الخدَّاع، وجاء راكبًا موجة التجديد والتمرُّد على هيمنة موسكو على مُقدَّرات الشعب الروماني، ولم يكن أحدٌ يَظنُّه وهو يرفع راية العصيان ضد آلهة الكريملين، أنه كان يفعل ذلك بأمرهم، وباتِّفاق معهم؛ لامتصاص النقمة وإفراغ مشاعر الغضب، وكانوا يستخدمونه بالونة اختبار يجسُّون به اتجاه الريح، فكان أوَّل ما فعله، عندما وصل إلى أمانة الحزب عام 1964، أن قفز فوق سور برلين، مُعترِفًا بألمانيا الغربية، وكان ذلك أحد المحرَّمات، قائلًا إنه لن يكون صوتَ السيد الجالس في الكريملين، وإنما صوت شعبه في رومانيا، وكان هناك حظر فرَضَه الروس على الاعتراف بإسرائيل، فعارض هذا الحظر، واعترف بالدولة العبرية، دون أن يستفزَّ بذلك الدول العربية؛ لأنه جاء متوازيًا مع اعترافه بمنظمة التحرير الفلسطينية، وأقنعها بأن اعترافه بإسرائيل سيساعده في القيام بمَهمَّة الوسيط، والمحاور والمفاوض في الصراع الفلسطيني، والوصول إلى الحلِّ الذي يرضي الجانب العربي، ثم أقدم في عام 1968 على فِعل شيء بدا مُناقِضًا ومُناهِضًا للهيمنة السوفييتية، جعله يرتفع إلى مقام الأبطال الشعبيين في أعين الرومانيين، إذ عارض التدخل السوفييتي في تشيكوسلوفاكيا، وقرار موسكو بإرسال الجيش الأحمر ليدمر ما كان يُسمَّى «ربيع براغ». لقد فعل شيئًا كان بمقاييس ذلك الوقت هو والانتحار سواء، بالنسبة لحاكم من حُكَّام الساتلايتات التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي العظيم؛ لأن حاكمًا آخر، هو حاكم بولندا، أراد أن يتوسَّل بمثل هذا العمل لإنقاذ شعبيته المنهارة لدى الشعب البولندي، ويقلِّد «شاوشيسكو» فيما فعل، فأسرع حاكم رومانيا يحذِّره قائلًا بأنه سيجلب الدمار لنفسه، بدلًا من

إنقاذها، ونصحه بأن يتَّصِل بالكريملين لجَسِّ النبض قبل الإقدام على هذه الخطوة، وعندما اتَّصل جاءه الإنذار من سيد الكريملين بأن الدبابات التي دخلت براغ سوف تنتقل إلى وارسو؛ لهدم قصر الحكم فوق رأسه، إذا قال كلمة يُعارِض بها التَّدخُّل الروسي، وعندما تساءل عن كيف يسمحون لـ «شاوشيسكو» بما يمنعونه عنه، أبلغوه بألَّا يتدخَّل فيما لا يعنيه؛ فبلع لسانه وسكت. وتضيف «أوليفيا» بأنها حتى الآن لا تستطيع أن تجزم بالاعتبارات التي بنى عليها «شاوشيسكو» موقفه، هل هو دورٌ في مسرحية؟ أم أنه أقنع الاتحاد السوفييتي بخصوصية الشعب الروماني وإرضاء النزعات الاستقلالية لديه؟ بمثل هذا الموقف، وغيره من مواقف تُخالِف الخَطَّ الرسمي للشقيقة الكبرى... المهم أن أناسًا مثل والدها، وجدوا أنفسهم متورِّطين في مناصرة «شاوشيسكو»، والوقوف معه في هذه المواقف الاستقلالية، حتى تضَخَّمَت شخصيته، وصار صعبًا، بعد ذلك، الإفلات من شباكه وأقفاصه.

لقد تجرَّع والدها –كما تقول– كميَّةً كبيرة من الإهانات على يد هذا الرجل، وكان البديل عن الصبر هو أن يفقد حياته، وأن تتشرَّد أسرته، بل إن أوحال هذه العلاقة لحقت بها شخصيًّا؛ فقد حصل في مرحلة مبكرة من حياتها أن كرهت والدها، وتبادَلَت معه حقدًا ناتجًا خارج إرادتها وإرادة والدها، تولَّد من رحم العلاقات المشوهة التي تربط الرجل الأول في الدولة بالدائرة الأولى من أعوانه في الحُكم. وهي تقول إن حقد والدها عليها كان يمكن أن يدمِّر حياتها، لولا حكمة أُمِّها، وعمق العاطفة التي تحملها لها، وتحملها لوالدها، ونجحت في تجنيبها الآثار السلبية لهذا الحقد، ومنعته من أن يتحوَّل إلى طاقة مُدمِّرة، تستحقُّ إرادة الحياة، في عقل وقلب كائن هشٍّ ضعيف؛ هو ابنتها، التي كانت في بداية مراحل النمو والتكوين، والسبب الكامن وراء هذه الحالة –كما تقول– هو أن والدتها، السيدة «روكسانا»، كانت لاعِبةَ كرة التنس الأولى في رومانيا، في فترة من الفترات، وحازت على بطولة رومانيا في هذه اللعبة، وكانت بسبب مواهبها وجمالها وأناقتها ومستواها الثقافي ومستوى عائلتها، التي تنحدر من أمراء منطقة أعالي الدانوب– نجمةً تلمع في سماء المجتمع الروماني، أدارت الرؤوس، واستقطبت العقول والقلوب، وأصبح والدها –كما تقول– خطيبًا لأمها، التي رأت في هذا المفكِّر اللامع والعقل الكبير، رَجُلَ الأحلام الذي اختارت الارتباط به عن بقية المتزاحمين على بابها، وبينهم رجل يملك الثروة والسلطة، وصاحب طموح لأن يصبح الرجل الأول في الحزب، جعل من إعجابه بأمِّها كابوسًا يطارد هذه البطلة من بطلات الرياضة، ولم يكن هذا الرجل غير «شاوشيسكو»، الذي تعرَّف على أمها في السنوات الأولى التي أعقَبَت زواجها، وافتتن بها، وكان لا بُدَّ أن يبحث عن وسيلة خسيسة للإيقاع بها، وقد عجز في البداية عن تحقيق أغراضه، إلَّا أن وصوله إلى منصب الرئيس جعله قادرًا على كسر شوكة المقاومة التي أبدتها حيالَ تَحرُّشاته بها، وانتهز فرصة غياب زوجها خارج البلاد، وأوعز إلى زوجته «إيلينا» أن تدعو أُمَّها إلى حفل في القصر الجمهوري، وأرسلت سائقها إليها، وجاءت والدتها لتجد السيدة الأولى في انتظارها، دون وجود حفل ولا مدعوِّين، وسألتها أن تشرب نخب الصداقة بينهما، فجلست أمُّها تلبِّي دعوة المرأة، بانتظار أن يصل بقية المدعوين، ولم يكن الذي حضر غير الرئيس نفسه، مرتديًا روب النوم، مُدَّعيًا أنه كان يأخذ قسطًا من الراحة، وزاد الأمر غرابةً أن الزوجة انسحبت من الجلسة تارِكةً أُمَّها مع الرئيس، الذي أجبرها على أن تدخل معه غرفة نومه، وأن تُسلِّمه نفسها قهرًا واغتصابًا، وكانت مأساة أمها هي كيف تُفاتِح زوجها بما حدث؛ لأن معنى

ذلك أن تضعه وجهًا لوجه في معركة مع الرئيس، الذي بدا في ذلك الوقت يمارس حملات التطهير والتصفية، مُوقِنةً أن زوجها لن يسكت على الإهانة، وأنه بالضرورة سيدخل المواجهة مع الرئيس، وستنتهي المواجهة بقتله؛ ولهذا رأت ألَّا تفاتحه بما حدث لها، وأن تسأله شيئًا واحدًا لكي تعفيه من النتائج الكارثية، وهو الطلاق، قائلةً له إنها لم تعُد تصلح زوجة له، وأنه أفضل له ولها أن يُطلِّقها، وطبعًا لم يكن مُمكِنًا لرجُلٍ يحبُّ زوجته مثل هذا الحب الكبير الذي كان بينهما، أن يستوعب أو يفعل مثل هذا الطلب أو يستجيب له، واثقًا أنه جاء نتيجة حالة عصبية تمرُّ بها الزوجة، وسوف يتمُّ تجاوُزُها بشيء من الصبر، إلا أن عمليات الاغتصاب لوالدتها تكرَّرَت من قِبَل الرئيس بشكلٍ أكثر إجرامًا، فقد كان يفتعل مَهمَّةً في الخارج يرسل إليها والدها، ويرسل حارسات من النساء يحضرن إليه الزوجة بالقوة لاغتصابها، وتفاقَمَت الحالة العصبية لأمها، واضطرَّت لكي تُرغِم زوجها على الطلاق، أن تهجر البيت وتقيم في بيت أهلها، والأب في حيرة وارتباك ممَّا يحدث، عاجِزًا أن يستجيب أو يفهم كيف تحوَّلَ الحب في قلب زوجته إلى كراهية ونفور، إلى أن تطوَّعَت امرأةٌ من العاملات في القصر الجمهوري، تربطه بها صِلةُ تلميذةٍ بأستاذها، بشرح ما حدث، إذ طلبت أن تقابله في تَكتُّم، وعلى انفراد، وتأخذ منه عهدًا أن يحفظ سِرَّها؛ لأنه إن لم يحفظه فسيكون الثَّمنُ حياتها؛ فأعطاها كلمة شرف ألَّا يذكر لأحدٍ اسمها، أو أنها مصدر ما ستقوله له، وأبلغته بأن سبب المرض العصبي الذي أصاب زوجته، وكان دافِعًا لكي تطلب الطلاق منه، لا علاقة له بما ظَنَّه نفورًا منه، أو تبَدُّلًا في المشاعر إزاءه، وإنما هو كراهية لنفسها، ولِما حصل لها من اغتصاب رأته تلويثًا لشرفه وشرفها، من قِبَل الرئيس، الذي اعتدى عليها. وطبعًا وجد الأبُ تفسيرًا مُقنِعًا لسلوك زوجته، ولكنه تفسيرٌ يرمي به في جبٍّ عميق لا يعرف كيف يخرج منه سالِمًا، ولأنه لم يكن يستطيع أن يأخذ مسدَّسًا ويذهب لقتل الرئيس، فقد وضع استقالته في يده، وذهب له طالبًا إعفاءه من كل مسؤولياته، لأن صحَّته لم تعُد تسمح له بأن يواصل العمل، واستخدم معه «شاوشيسكو» الديبلوماسية، قائلًا إنه كادر كبير في الحزب، لا يستطيع هو نفسه أن يقبل أو يرفض الاستقالة التي لا بُدَّ من عرضها على المكتب السياسي، لكى يكسب الوقت، وكان لا بُدَّ أن يعرف أن ثمة معلومة وصلت إلى الأب، ربما من زوجته نفسها، فانتهز فرصة رحلة إلى الخارج، اصطحب فيها والدها، وأثناء نزهة في إحدى المنتجعات، أخذه على انفراد، ليقول له أنه أخطأ في حقِّه عن غير قصد، وأنه وصل إلى زوجته عن طريق الخطأ، مُدَّعيًا أنه لم يكن يعرف إطلاقًا أن «روكسانا» هي زوجة رفيقه وصديقه الأعز «فلوريان»، وإلَّا ما كان سيعاملها إلا معاملة الأخ لأخته، وأنه يعاهده أن أحدًا لن يجرؤ بعد اليوم أن يقترب من بيته أو من زوجته، ويرجوه أن يصفح عنه، وأن يبقى معه على درب النضال، في استكمال بناء الدولة الاشتراكية.

ولأن والدها -كما تقول- يحبُّ أُمَّها، ولأنه يعرف أنها بريئة، وأنها مظلومة؛ فقد أعادها إلى بيتها، وصفح عنها، ولم يكن يستطيع إلا أن يقبل تفسير الرئيس واعتذاره؛ لأنه لم يكن يملك شيئًا آخر يفعله، ولم يكن يضع في اعتباره غير سلامة زوجته، وإبعاد الخطر عنها، وقد برَّ الرئيس بوعده، فلم يَعُد بعد ذلك لمضايقة الأم أو الاتصال بها. ولكنَّ شيئًا حدث، هو ما أورث «أوليفيا» عداء والدها، وهو أن موعد مولدها جاء بعد ستة أشهر من تاريخ انتهاء تلك العلاقة القائمة على الاغتصاب بين أمِّها والرئيس؛ ممَّا جعل الأب يري أنها ثمرة تلك العلاقة؛ فاستقبل ميلادها بروح الانزعاج والغضب، وباشر

ينظر إليها، منذ يوم مولدها، نظرةً عدائيَّةً، ولم ترَ منه وجهًا باسمًا أو تشعر بأية درجة من الحب والحنان يحملها لها خلال مرحلة الطفولة، عندما كانت تنمو، وينمو وعيها بما حولها، وتتطلَّع لأن تتلقَّى ما يتلقَّاه أترابها من عاطفة الأبوَّة، ربما بعكس أختٍ أكبر منها، وُلِدَت قبل تلك العلاقة، ولم تدخل دائرة الكراهية التي تولَّدَت في قلب الأب إزاءها هي، وشكِّه في أنها ابنة سِفاحٍ واغتصاب، وكان هذا الفرق في المعاملة هو ما كان يعتصر قلبها همًّا وحزنًا، وكان يمكن أن ينعكس تشوُّهاتٍ في نفسها، وكراهيةً ليس لوالدها فقط، ولكن لأختها أيضًا، التي تستقطب وتستأثر بحب أبيها دونها، إلَّا أن الأمر الذي أنجاها من أن تتحوَّل هذه المعاملة الى عُقدَةٍ تتحكَّم في مستقبل حياتها وتُفقِدها توازنها النفسي، هو أن أمها، إحساسًا منها بغياب حب الأب، منحتها فائضًا من الرعاية، وجرعات أكبر من الحنان، تعوِّضها عمَّا افتقدته، وتكون ذراعًا يحميها من أن تسيطر مشاعر الحقد والكراهية على شخصيتها، وساعد على ذلك أن كراهية الأب لها لم تصل أن تصبح عدوانًا عليها بالضرب أو بالعنف اللفظي، فلم يكن مُمكِنًا لرَجُلٍ في براحة تفكيره، وعمق معارفه، ونضج شخصيته، أن تأخذ كراهيته لها هذا الشكلَ البدائيَّ، وفشلت الأم في اقناعه بصدق إحساسها أن «أوليفيا» من صلبه، ولم تكن هناك فحوص طبية تستطيع أن تثبت –بشكلٍ قاطع ويقيني– نِسبةَ الطفل لأبيه وأمِّه، إلَّا من خلال فصيلة الدم، التي لم تكن جازِمةً ولا قاطعة في نتائجها، حتى جاء الفتح العلمي في مجال الطب «د.ن.أ»؛ هنا فقط صار ممكنًا إيجاد الدليل الذي لا يلحقه الشَّكُّ، بحقيقة هذا النَّسَب أو ذاك، وكما تقول، فإنه ما إن أصبحت هذه التقنية متاحة للاستعمال العام، حتى هرعَت أمها إلى طبيب العائلة، تطلب منه تجهيز ملفٍّ لابنتها، بعمل تحايل عن نتائج هذه التقنية، ولم تفصح له عن حقيقة استخدامها في إثبات نَسَبها لأبيها، وإنما لِما لهذا التحليل من صِلةٍ بالأمراض الوراثية التي يمكن أن تتسرَّب إلى الأبناء، عن طريق الجينات الوراثية، والتي يمكن أحيانًا تفاديها قبل وقوعها، وفعلًا جاء التحليل يثبت أنها ابنة ابيها، لتصبح نقطةَ تَحوُّلٍ في حياتها، فوالدها بعد هذا التحليل، الذي أثبت يقينًا انتسابها له، لم يرفع فقط الحجاب الذي يحول بينه وبين التوجُّه بعاطفة الحُبِّ الأبويِّ نحوها، ولكنه كان يضاعف جرعات هذا الحب؛ للتكفير عمَّا عانته من ظلم وحرمان على يديه، فيغمرها بالهدايا، ويأخذها في جولات إلى أماكن اللهو والتسلية، وإلى حيث البحر والبلاجات صيفًا؛ من أجل أن يرضيها ويسعدها ويفوز بحبها، وفعلًا –كما كانت تقول– أزالت هذه المعاملة كلَّ التَّرسُّبات الحزينة، الناتجة عن معاملته السابقة لها، وصارت مع تقدُّمها في العمر والتجربة والنضج، تزداد قربًا من والدها، واستيعابًا لفكره، وانتقلت من حب الفطرة والأُبوَّة، إلى تقديره وتوقيره، باعتباره صاحب الفكر الخلَّاق والعقل الرحيب، وتتعاطف مع محنته، وهو يسجن عقله في أقفاص الحزب وقوالبه. وقالت إن الممارسة التي مارسها الرئيس مع أمها، ظلَّ يمارسها مع نساء أخريات، بينهن موهبة كبيرة في مجال المسرح الاستعراضي؛ تمثيلًا ورقصًا وغناءً وموسيقى، وتستقطب حبَّ الشعب الروماني؛ اسمها «فيوليتا»، وبعد أن سعت «إيلينا» لتقديمها هديَّةً لزوجها، وأوصلتها إلى فراشه، استعرَت في نفسها نار الغيرة، ليس فقط من تعَلُّق زوجها بها، ولكن أيضًا غيرة من شهرتها وجمالها؛ فأعلنت حربًا قذِرةً ضدَّها، وعملت على إقفال المسرح الذي تعمل فيه؛ لكي تبقيها في بيتها، ممنوعةً من الظهور على المسرح، وانتهت حياتها الفنية، رغم حبِّ الناس لها، وقالت بأن الرئيس سعى

فيما بعدُ لتزويجها من واحدٍ من كبار موظفيه؛ ليضمن بقاءها قريبًا منه عند الحاجة لاستخداماته الجنسية، انتهت كفنانة استعراضية من طرازٍ رفيعٍ، كانت تُقارَن بزميلاتها في «برودواي» مثل «بربارا سترايسند» و«شيرلي ماكلين».

طالت الجلسة هذه المرة أكثر من سابقاتها، ربما لِما بدا فيها من عفويَّةِ البوح وحميميَّته، وافترقنا على أمل اللقاء في نفس الموعد في الأسبوع القادم، بمعنى أنه صار موعدًا أسبوعيًّا ثابتًا، وخرجتُ من المقهى، وأنا لا أكاد أهتدي إلى مكان سيارتي في الموقف؛ بسبب ما أحسستُ به من دوخة. هل يمكن أن يصل أسلوب المعاملة التي يعامل بها الرئيسُ أعوانه إلى هذا الدَّرك الأسفل من الانحطاط! ثم يقبل هؤلاء الأعوان، بكل هذه المهانة منه، ويواصلون العمل معه، لأن «أوليفيا» قالت إن والدها أفضل حالًا من الآخرين، عندما جامله واعتذر له، وقال إنه لا يعرف بأن «روكسانا» زوجته، وأوقف فعلًا أي اتِّصال بها.

بالنسبة للآخرين، فهو لا يتبع الإهانة إلا بواحدة أكبر منها، إلى حدٍّ أنه يذهب إلى بيوتهم، وينام مع نسائهم، بعلمهم، ويتركون له البيت ليأخذ راحته مع الزوجة، وآخرون يقودون زوجاتهم إلى مخدعه، وحدث مع كثير منهم، أنه هو الذي أمرهم بالزواج من عشيقاتٍ استمرَّ في علاقته الجنسية بهنَّ بعد هذا الزواج، وقالت إنه يفخر بأنه صاحب فحولة في هذا المضمار، إلا أنها فحولة الهرمونات والمقوِّيات التي يشرف على تقديمها له أطباء متفرغون لرفاهية الرئيس الجنسية.

أهم شيء فيما قالته «أوليفيا» أنه يأتي وسط هذه الموجة من الاعتقالات، وكتم الأنفاس، وانتشار الرعب، الذي أصبح أشبهَ بضبابٍ كثيف، يحطُّ في الشوارع وفوق البيوت، وتكاد تقطعه بالسكين كما يقولون، وتأتي هي لتخترق هذا الضباب الأسود الكثيف، كأنها سَهمٌ من ضياء، تُشعُّ جَرأتُه جَرأةً وشَجاعةً وقوَّةَ إرادة وشخصيَّة، امرأة نبَذَت الخوف، وقررت أن تتسلَّق شعاع الشمس، إلى آفاق أرحب وأعلى وأكثر سموًّا من هذه الحفرة التي يحفرها الطغيان لشعبٍ قوامه عشرون مليون إنسان، ويطمرهم قهرًا وجبرًا تحت رماد وأوحال طغيانه.

كنت أسمعها تتكلَّم وأنا أرتجف رُعبًا؛ خشيةً عليها، وليس على نفسي، من تَبِعات ما تقوله؛ فأنا أعرف أنني محميٌّ بحصانتي الدبلوماسية، وأقصى ما يصيبني من أذى، هو الأمر بترحيلي من البلاد، أمَّا هي فإن ما تقوله من كلام لا عقوبة أخرى له غير الإعدام، ولن يقتصر الضرر عليها، ولكن سيلحق بالتأكيد كل أهل بيتها؛ أُمًّا وأبًا وأختًا وأصهارًا.

لم أجد سببًا في مثل هذه الظروف لإنهاء إقامتي في مصحَّة «آنا أصلان»؛ فهي تعطيني ذريعةً للقاء هؤلاء الناس تحت هذا الغطاء، وتعينني على متابعة الملاحقات التي تقوم بها عناصر سيكوريتا، ومعرفة ما يحدث لأهل الحكم، وأقاربهم.

كان من المفروض، وحسب ما قاله الدكتور «فالي»، أن نوبات النباح سوف لن تستمرَّ طويلًا مع الرجل، إلَّا أن اختفاء حالة النباح لن تعني الشفاء تمامًا من أمراضه النفسية والعصبية، وسيحتاج لأن يستمر في تلقِّي العلاج في المصحة لفترة طويلة، غير أن نباحه استمرَّ، وها أنا أنتهي من الأسبوع الثالث وأدخل أسبوعًا رابعًا، وهو ينبح كما كان يفعل منذ

أول ليلة سمعته فيها، وقد تتلوّن طريقة النباح بلون المرض، ويعتريها الوهن والتعب كما حدث منذ أيام مضت، ثم يستعيد قوته ويعود نباحًا قويًّا شرسًا، مرتفعَ الصوت كما كان.

ولأنني رأيته غريبًا أن يستمرَّ نباحه كل هذه المدة؛ سألت الدكتور «فالي» عن السبب، فلم أسمع منه إجابة محدَّدة، بل وجدته يضيق بالسؤال، قائلًا –في نفاد صبر– إنها قضايا طبية شديدة التعقيد والالتباس، يصعب فهمها على غير أهل الاختصاص، ناصِحًا بألَّا أشغل بها بالي، وقد أثار جوابه الشبهات والشَّكَّ في نفسي، وانتظرت حتى حانت حصَّةٌ لي مع الممرضة، التي أعرف صراحتها، وأعرف عداءها الشديد للدولة والحزب؛ لأسألها عن السبب في بطء علاج الفيلسوف، فإذا بها تضحك باستهتار وسخرية، قائلةً:

– لعلَّكَ صدَّقتَ حقًّا أنهم يريدون له الشفاء! والدليل، أن هناك مركزًا طِبِّيًا متطوِّرًا جدًّا في موسكو، ينحصر استخدامه على فئة الحُكَّام في الكتلة الاشتراكية، لماذا لا يأخذونه إليه، إذا كانوا حقًّا يريدون علاجه؟

لعنة الحكم الفردي، يا صديقي، تقتضي، أن لا بقاء ولا دوام ولا استمرار في المنصب لأحد، إلا للزعيم الأوحد، أما من عَداه فهم أحذية أو جوارب، تُرتَدى وتُرمَى، ويبدو أن عزيزنا الفيلسوف قد آن له أن يغادر مركزه العالي، وجاء المرض ليعطيهم الذريعة. علاج؟ أو، العكس هو الصحيح، وضعوه هنا لكي يزداد حاله استفحالًا. وجوده هنا يعني حرمانه من أيَّة فرصة للعلاج.

ثم أضافت قبل أن تغادر الغرفة:

– تحتاج إلى وقت طويل لتعرف آليَّات العمل في دولة الفردوس الأرضي، رومانيا.

هل يمكن تصديق ما تقوله «ريلكا»، الحاقدة الأبدية على الدولة الشيوعية؟ نعم حاقدة، دون شكٍّ، لكن هذا الحقد هو الذي يمنحها المناعة ضد أن تنخدع بأساليب التمويه والكذب التي يعيش عليها نظام الحكم في هذه البلاد، هو نظامٌ يكذب كما يتنفَّس، ولا أحد يستطيع كشف أكاذيبه مثل «ريلكا»، التي اكتوت هي وأسرتها بنيرانه.

زوَّدني حديث الممرضة «ريلكا» بفكرة يجب أن أقولها لابنة الفيلسوف، عندما أقابلها لن أكشف ما قالته الممرضة، لكيلا أسبب لها ضررا، أو أعيد ما قالته من أن الغرض من وجوده في هذه المصحَّة هو تأخير علاجه، وليس العكس، وإنما سأحاول أن أنقل إليها نفس الفكرة باعتبار ذلك نتيجةً وصَلتُ إليها عن طريق التخمين؛ لكي تبحث عن وسيلة علاج لوالدها في مكان غير هذا المكان.

وما إن التقيت بـ «أوليفيا» حتى طرحتُ عليها السؤال الذي يحمل معنًى ضمنيًّا بما عرفته من «ريلكا»، وهو: لماذا لا يذهب والدها للعلاج في الخارج؟ وهناك مراكز تَخصُّصيَّة تستطيع أن تُقدِّم له أعلى ما وصل إليه الطب من أسباب الشفاء. فأجابت بأن كل أفراد الأسرة لا يثقون في مستوى المؤسسة العلاجية في رومانيا، خاصة وأن والدها موجود في

مصحَّة لا تتخصَّص في نوعية العلاج الذي يحتاجه، تحت ذريعة أنهم سيوفِّرون له هذا العلاج التخصُّصي في هذا المكان لتفادي وجوده في مستشفى له علاقة بالأمراض النفسية والعقلية. عُذرٌ مقبول، كما قالت، في بلد يتعيَّش على الشماتة في حُكَّامه، وإضفاء ما يقدرون عليه من إشاعات وأكاذيب فوق الشماتة والحقد، والحلُّ طبعًا هو انتقاله إلى مركز علاجي خارج رومانيا، وهنا تبرز –كما تقول «أوليفيا»– معضلة، وهي أن هذه المراكز ذات المستوى الرفيع موجودة في عواصم الغرب، وللحزب هاجس الخوف من هذه المراكز والمؤسَّسات العلاجية الغربية؛ لاعتقاده أنها تملك من الحيل والتقنيات الفنية ما يجعلها تبتزُّ زبونها المريض القادم من الكتلة الشرقية، وتستنزف كل معلومة لديه، ليس بإرادته، ولكن تحت وسائل التخدير وتغييب العقل، ويتحدثون أيضًا عن استخدامها لأجهزة تنقل الموجات التي يتعرَّض لها المخ، ثم حلِّ شفرتها، أو تصوير ما يمرُّ بالعقل الباطن أثناء النوم، ثم حلِّ شفرة هذه الأخيلة والصور التي يحصل عليها الجهاز، هذا عدا الأساليب التقليدية المتوارثة، مثل تفتيش ما يمكن أن يكون في حوزة المريض من أوراق، أو ما يتلقَّاه من رسائل، والتنصُّت على ما يتبادله من مكالمات هاتفية مع أهله ورفاقه، ورصدها وتحليلها، وذكرت أن رئيس الدولة اكتشف ذات مرة، وأثناء زيارة للأمم المتحدة، أن المخابرات في أمريكا وجدت طريقةً للتدخُّل في الحمام الذي يستخدمه، والحصول على عيّنات من بوله وإفرازات معدته؛ لمعرفة ما يستوطن الجسم من أمراض. وتبقى بعد ذلك مراكز علاجية، ذات مستويات متفاوتة، في عواصم الكتلة الشيوعية، وأهمها موسكو، وهنا يعود سؤال الثقة للظهور؛ لأن أي مركز من هذه المراكز سيكون تحت تصرُّف وتوجيهات سيكوريتا، تفعل بالمريض الروماني، ما تشاء.

أفادني كلامها بأن ما يبدو في الصورة الظاهرة عالَمًا من الرخاء والهناء والمزايا الاستثنائية، يعيش فيه أعوان الحاكم، ليس حقيقةً بالضرورة، وأن حجم المعاناة والمضايقات والمحاصرة التي يعانيها أهل هذه الحلقات القريبة من الحاكم، قد تكون أكثرَ قَسوةً ممَّا يعانيه المواطن العادي.

نعم، تقول أوليفيا، إنها لا ترى مشكلة في نقل والدها إلى دولة اشتراكية، مثل ألمانيا الشرقية، ولكنها لن تدعهم يأخذونه إلى هناك بترتيباتهم التي لا تخلو من الشبهات، وإنما بترتيبات العائلة، وهناك رحلة قادمة لعناصر من أكاديمية الفنون إلى برلين الشرقية، مفتوحة لأعضاء هيئة التدريس، ستشترك فيها، وتستغرق أسبوعين، وخلال وجودها هناك ستتصل بمركز علاجي يتخصَّص في مرض والدها، وستحرص أن يكون بعيدًا عن سيطرة المخابرات الشهيرة هناك، المسمَاة «سيراك»، وستسعى للحصول على طبيب يكون موضِعَ ثِقةٍ، يستطيع أن يتعامل بأمانة مع حالة والدها، دون تدخُّل أجندات وحسابات تفرضها أجهزة الاستخبارات.

تفاجَأتُ بفكرة أنها تنوي قضاء أسبوعين إجازة خارج رومانيا، وتأمَّلت بيني وبين نفسي إن كنت أستطيع تدبير إجازة أقضيها في جوارها؛ إذ إنها فرصة لاختبار مدى حُبِّها وصدق عواطفها نحوي، وأنا أنفَرِد بها في مدينة بعيدة عن مدينتها، وبعيدًا عن بيتها ومحيطها العائلي، حيث نستطيع أن نأخذ حريتنا في التعبير عن عواطفنا، ومحبتنا لأحدنا الآخر،

بمعزل عن الضغوط والرُّقَباء. وأرجأت مفاتحتها في الموضوع، حتى أعيد مراجعة الظروف وجو العمل قبل اتخاذ مثل هذا القرار.

قبل انتهاء اللقاء أخبرتني بأنه أثناء وجودها في الأكاديمية، لمعرفة مزيد من المعلومات عن الرحلة وبرنامجها، عرفَت أن هناك استعدادات لتقديم حفلة موسيقية في دار الأوبرا، يحضرها رئيس الدولة مع ضيف أجنبي، وأنها سألت عمَّن يكون هذا الضيف، ووقَعَت في أذنها جملة تشبه «الرئيس الليبي»، إلا أنها ليست واثقةً، فقد يكون المقصود الرئيس الليبيري أو البوليفي، وسألتني إن كنتُ أعرف بوجود زيارة قادمة لرئيس بلادي إلى هذه البلاد، فقلتُ إنه بالتأكيد خبر جديد بالنسبة لي، ولكن ذلك لا يعني أنه ليس الرئيس الليبي، فتقاليد الدولة الشعبية في ليبيا لا تقضي بأن يخبر الرئيس سفارته في الدولة التي لا يزورها بخبر الزيارة، وصارحتها بأن رئيسًا مثل الرئيس الليبي يعيش هاجسَ الخوف من الاغتيال من جماعات تعارِضُ حُكمَه؛ لذلك يتكتَّم تكتُّمًا شديدًا على تحركاته، وشكرتها لأنها أخبرتني بوجود هذا الاحتمال؛ لكي لا يتفاجأ أعضاء السفارة الليبية في بوخارست بوجوده هنا دون علمهم.

رأينا قاربًا يحمل سُوَّاحًا يقف بجوارنا، عند حافة البحيرة، لكي يتيح لاثنين من زبائن المقهى الانضمام إلى رُكَّابه، وكان هؤلاء الرُّكاب يغنُّون أغنية «مادونَّا» التي اشتهرت تلك الأيام، والتي تقول: «لا تبكي من أجلي يا أرجنتين»، فوجدنا كأن مغناطيسًا يشدُّنا إلى القارب لنصبح في بُرهةٍ صغيرة من رُكَّابه، نشاركهم الغناء، غير أن ما قالته عن الزيارة المزعومة كان يشغلني ويفسد استمتاعي بهذا الجوِّ العامر بالمرح والبهجة.

لم أستطع أن أنتظر إلى اليوم التالي لأعرف من القائم بالأعمال إن كان قد توصَّل بأي شيء من طرابلس يفيد بوجود هذه الزيارة، هاتَفتُه ليلًا، فوجدت أن لا خبر لديه إطلاقًا بأمرها، إلا أنه لم يستبعد مثل هذا الاحتمال، واتَّفقتُ معه أن أَمُرَّ عليه صباحًا لنستجلي حقيقة الخبر من طرابلس، وعندما حصل الاتصال في بواكير صباح اليوم التالي، لم يستطع مدير الإدارة التي تتبعها السفارة أن يفيد بشيء مُحدَّد، ولكن مضمون ما قاله كان يحمل ترجيحًا للاحتمال؛ لأن هناك اقتراحًا بزيارة لعدد من الدول، تبدأ باليونان، ثم بعض دول أوروبا الشرقية، ولعلَّ الوقت قد حان لتنفيذ هذا المقترَح. ورأيت، كما قلتُ للقائم بالأعمال، أن ما سمعناه يكفي لتأكيد الزيارة، وقد لا تصل إلينا معلومات أخرى قبل هبوط طائرته في أرض مطار بوخارست؛ ولذلك فإنه لا مصدرَ لنا يُزوِّدنا بالمعلومات إلَّا بروتوكولات هذه الدولة، وباعتباره رئيسًا للبعثة؛ عليه أن يرفع الهاتف الآن ويُحدِّد موعدًا للقاء رئيس البروتوكول غدًا؛ ليسأله عن الترتيبات التي أعدَّها الجانب الروماني للزيارة، ورغم أنه كان خائفًا متردِّدًا، فقد واصَلتُ الحديث معه، حتى أقنعته، فاشترط أن أذهب معه إلى هناك، وسيستهلُّ هو الحديث ويترك لي إكماله معهم، فوافقته على شرطه، وحدَّدَت لنا السكرتيرة موعدًا معه في ضُحى اليوم التالي، وكانت المفاجأة التي وجدناها في انتظارنا ليس فقط موعد الزيارة ومُدَّتها وجدول الأعمال والمواعيد، وإنما حقيقة أن وفدًا من أمن القيادة الليبية قد وصل وقام بترتيب كل التفاصيل معهم، وقد أخذ الوفد إذنًا بهبوط خمس طائرات مدنية تحمل طواقم الحراسة ورجال الأمن، بدأت تصل تِباعًا، ويتمُّ حجز فنادق كاملة لإقامتهم، وطائرة نقل سادسة، من نوع هيركوليس العسكرية، تحمل

الخيمة التي سوف تُنصَب في قصر الضيافة، مع ناقةٍ، سوف يوفِّرون لها قطعة من حديقة القصر، تكون مرعًى لها، وظلَّ رئيس البعثة المسكين يشكرني على اقتراح فكرة الزيارة إلى رئيس البروتوكول؛ لأنه لولاها لكانت فضيحةً قويَّةً للسفارة أمام مؤسَّسات الحُكم في البلاد، وفضيحة أمام البعثات السياسية، وبدوري أحَلتُ الشُّكرَ إلى مستحقِّيه، وهي الآنسة «أوليفيا»؛ لأنه لولاها لَما استطَعتُ التقاط بداية الخيط الذي أوصلني إلى هذه المعلومة.

وكان لا بُدَّ من مضاعفة النشاط داخل البعثة لإعداد الملفَّات التي يحتاجها الوفد السياسي المرافق للعقيد، الذي سيباشر المباحثات مع الجانب الروماني: ملفذَات التعاون الثنائي، وآخر مستجدَّاته؛ وملف القضايا ذات الطابع الإقليمي والدولي، مع تقارير تحتوي معلومات يحتاجها الوفد، عن الخطوط العريضة لسياسة رومانيا في المجالات الخارجية والداخلية، كما دعونا إلى السفارة بعض أعضاء البعثة التعليمية؛ فقد يريد العقيد الاجتماع بهم، وبعض أعضاء الجالية الليبية المقيمة في رومانيا؛ فهم أيضًا يجب أن يكونوا في حالة استنفار، وقد نحتاجهم جميعًا لتنظيم استقبال شعبي له في المطار لحظة وصوله. ثم أخذني القائم بالأعمال على انفراد ليطلب مني أن أقوم بإعداد التقرير السري الذي وعدته به عن مرض فيلسوف الحزب والرجل الثاني بعد أمينه العام، ليكون بين يدي الرئيس الليبي، في بدء الزيارة، فقلت له إن كتابة هذه المعلومات في تقرير لن يكون أمرًا حصيفًا؛ لأن سيكوريتا لن تترك ورقة من أوراق الوفد الليبي دون تصويرها، ولا ضمان عندما يصل هذا التقرير إليهم ألَّا يعتبروا كاتبه ومقدِّمه من الشخصيات غير المرغوب فيها؛ لأنهما يبثَّان الإشاعات والأكاذيب، ويُسمِّمان العلاقة بين البلدين، والبديل –قلت له– أن نأخذ وزير الخارجية على انفراد، عقب وصوله رفقة العقيد، وأن نقدِّم له التقرير شفاهة، لينقله بدوره إلى رئيسه، وتصير المعلومات في حوزتهما؛ فربما يجدان طريقة لتوظيفها.

لم يحدث ظهور إعلان رسمي عن الزيارة أو تصل أخبارها إلى الإعلام، إلَّا قبل وصول طائرة العقيد ببضع ساعات، وحصلت مواقف عند هذا الوصول، تنتمي إلى الكوميديا السوداء؛ فقد تعوَّد أن ترافقه أثناء سفره طائرةٌ تحمل خيمته وناقته: رمزين يمثِّلان البادية التي يفخر بالانتماء إليها، وفعلًا وصلت الطائرة هيركوليس التي تُقلُّهما، والمطار يضجُّ بالمستقبلين من رؤساء ووزراء، بل إن الرئيس الروماني نفسه كان قد وصل المطار ليكون في استقبال الضيف الذي يصل بعد لحظات، وقبل وصوله حطَّت الطائرة التي تُقِلُّ ناقته وخيمته، وأثناء إنزال الناقة من الطائرة ووضعها في الشاحنة التي ستُقِلُّها إلى قصر الضيافة، فقَدَ العُمَّال السيطرة عليها، وانطلقت ترمح عبر مدرَّجات المطار، دون أن يتمكَّن أحد من إيقافها، وأُعلِنَت حالة الطوارئ، وارتفعت نواقيس الإنذار، وغمرت المطارَ حالةٌ من الرعب؛ خشيةَ أن تصطدم الناقة بطائرة حين إقلاعها أو هبوطها، وقد أخذت قوَّات الحراسة في المطار وضع استعداد بالبنادق الرشاشة لقتل الناقة، ولكن لهذا القتل تبعات سياسية خطيرة، ولا بُدَّ من إذنٍ يأتي من أعلى المستويات؛ ولهذا استمرَّت حالة الفوضى والقلق، إلى أن تمَّت محاصرتها ببضع سيارات عسكرية، وشدُّ وثاقها، واستخدام ونش المطافئ لوضعها في سيارة الشحن المخصَّصة لها. وحصل موقف آخر ينتمي إلى عالم المهازل والمساخر التي ترافق تحرُّكات العقيد الليبي، فالخيمة تأتي عادة مع سيارة خاصة بها، وسائق مسؤول عن تجهيزها ونصبها وتقويضها، ورافق السائق رجلُ أمنٍ من الفريق الليبي، كان قد قضى أيَّامًا في العاصمة الرومانية؛ ليكون دليل السائق في الوصول بالخيمة إلى حيث يقيم العقيد؛ لتكون منصوبةً في انتظاره، إلَّا أن الدليل لم يكن

مستوعبًا خريطة بوخارست؛ فضَلَّ الطريق، وقاد السائق عبر أوتوستراد يمضي بهما خارج العاصمة، واقتضى الأمر استنفارًا للشرطة الرومانية ووضع دوريات مراقَبَة ورصد في مداخل بوخارست؛ للاهتداء إلى السيارة وإرشادها إلى الطريق الصحيح، الذي يقود إلى قصر الضيافة، وكان العقيد قد وصل وطال انتظاره لخيمته، ودخل بسبب الإبطاء في حالة هستيرية؛ لافتقاده للمكان الذي يرمز إلى دولته، ويستقبل فيه ضيوفه، ويحسُّ فيه براحته.

المفاجأة بالنسبة لي كانت إخطارًا جاءني لتلبية استدعاء من السيد العقيد للقائه في خيمته في قصر الضيافة، الساعة العاشرة والنصف ليلًا، وقد نقل لي المعلومة رئيس البعثة وهو شديد الاستغراب، وكنتُ أنا أكثر استغرابًا منه لهذه الدعوة، التي لم تكن مصحوبة بأي معلومة تنبئ عن دوافعها؛ إذ لم يحدث أن قابَلتُ الرجل في حياتي، ولا رابطة تربطني به، ولستُ إلَّا موظَّفًا صغيرًا في أمانة الاتصال الخارجي، لا ألفت نظر أي مسؤول، حتى لو كان بدرجة مدير إدارة؛ ولذلك بدا لي غريبًا أن يسأل عني أكبرُ رأسٍ في الدولة الليبية، ويطلب أن أَمثُلَ أمامه. رأى رئيس البعثة –تخمينًا– أن المقابلة تتَّصِل بالتقرير الشفهي الذي قدَّمه إلى أمين الخارجية، والذي لا بُدَّ أنه قام بنقله إلى العقيد؛ فأثار التقريرُ فضولَه لمعرفة التفاصيل. وكان ردِّي على تخمينه أنه صاحب التقرير أكثر مني، وله فضلُ أن أشار فيه إشارةً عابرة إلى اسمي، وربما كان الأَوْلَى أن يذهب هو للمقابلة وتقديم الشروح المطلوبة، فأجاب معتذرًا عن الذهاب قائلًا إن الموعد حُدِّدَ لي، ولن يستطيع أن يخالف التعليمات، أو يذهب بديلًا عني، أو حتى مرافقتي، وأضاف بأنني يجب أن أرتدي أسوأ ما أملك من الملابس؛ لأن العقيد لا يحب المسؤول الليبي أن يكون أنيقًا أو حليقَ الذقن، أو قائمًا بترتيب وتنسيق شَعر رأسه، وكبرى الكبائر أن أرتدي ربطة عنق، مُذكِّرًا إيَّاي أن العقيد كان قد ألقى خطابًا يقول فيه إنها علامة الصليب، ويراه مارِقًا زنديقًا، صليبيَّ الهوى والميول؛ كلُّ من يقوم بارتدائها.

في الموعد المحدَّد كنتُ في القصر، وجلست أنتظر الموعد في إحدى قاعات الانتظار الشاسعة، المزيَّنة بالمرايا واللوحات، ومن حولي نساء جميلات يخطرن غادياتٍ ورائحاتٍ؛ لأن القاعة كانت تُفضي لغرف جانبية كثيرة، دون أن أستطيع تخمين ماذا يعملن، ولا أرى الحاجة التي استوجَبَت وجودهن في القصر، وتذكَّرتُ ما كانت تقول «أوليفيا»، عن رئيسها الروماني، وكيف كان يُسخِّر أهل الدولة، بل وأهل بيته، لمهمَّة القُوادَة، فليس غريبًا أن يكون العقيد الليبي أيضًا يسير على نفس النَّهج، واستطعت التقاط كلمةٍ تَبادَلَها حارسٌ مع رفيقه، من طاقم حراسات العقيد، كانا يعبران الصالة، أن بين هؤلاء النسوة خبيرات في التدليك، حِيْن يمنحن العقيد لحظة راحة واسترخاء.

وبعد انتظار ساعة ونصف بالضبط، ومتوافِقًا مع دقَّات ساعةٍ في القصر تشير إلى منتصف الليل، جاء مَن يقودني إلى الخيمة التي كانت منصوبةً في الحديقة، وعندما خرجتُ سائرًا إليها عبر مَسرَب مبلَّط بين الأعشاب تحفُّ به أعمدة الكهرباء، رأيت مشهدًا كان يظهر دائمًا في الصور التي تعرضها الشاشة الصغيرة لهذه الخيمة في باب العزيزية، حيث ظهَرَت الناقة في المشهد، ومن خلفها ظهَرَت نار الحطب، في مدخل الخيمة، وقد تصاعَدَ لهبها ودخانها لتدفئة الجو، الذي كان يميل إلى البرودة، وفي ركنٍ داخل الخيمة قريبًا من مدخلها، كان ثمَّة رجلٌ يرتدي العباءة الشعبية، يجلس متربِّعًا فوق الأرض،

يعدُّ الشاي للعقيد، وفي صدر الخيمة كان العقيد يجلس على كرسيِّه الفوتيل، وأمامه طاولة صغيرة، فوقها الهواتف، ومُفكِّرة جلدية، وعلبة المناديل الورقية، وأقلام متناثرة، وكأس ماء، وبجواره، وعلى كرسي خشبي، أحدُ ضُبَّاطه، يتبادل معه الحديث، وما إن وصلت أمام الخيمة، حتى انتصب الضابط واقفًا، وترك لي مقعده، وأشار لي وابتسامة تعلو مُحيَّاه بأن أجلس في مكانه، وأعطى التحية لقائده، وخرج، والعقيد يتبعه بقوله:

– غدًا في الصباح الباكر يا صالح، لا تنسَ.

تقدَّمتُ لأصافح العقيد، وأجلس في الكرسي المحاذي له، فسألني عن اسمي، وعن الجهة التي جئتُ منها في ليبيا، وما إذا كنت قد أمضَيتُ مدَّة التدريب العسكري العام، ولم أفهم ما علاقة التدريب بهذا الاستدعاء، فهل هو هنا في رومانيا للتفتيش عن الليبيين الذين هربوا من أداء هذا التدريب، كما فعلتُ، مفتعلًا بعض الأعذار الطبية! فأجبته بأنني قُمتُ بأداء التدريب العام، لكنني أُعفيتُ فيما بعدُ بسبب الحالة الصحية، وانتظرت أن يفتح الحديث عمَّا أعرفه من مرض فيلسوف الحزب ونباحه، وهو ما تصوَّرتُ أنه سبب دعوتي للقائه، بل ظنَنتُ أن مرض الرجل أحزنه؛ لأن هناك معرفة سابقة بينهما، وربما مناقشات حول النهج الاشتراكي، واختلاف التنظيرات والتطبيقات، إلَّا أن العقيد لم يُشِر أبدًا إلى الفيلسوف المريض، ولا إلى التقرير الذي رفعه القائم بالأعمال إلى وزير خارجيته، كان سؤاله عن مصحَّة «آنا أصلان»، التي تتخصَّص في إيقاف زحف الشيخوخة، وكيف يحتفظ الإنسان بحيويَّته وشبابه خلال سنوات العمر المتقدِّم، طالبًا مني أن أشرح له كل ما أعرفه عنها، وما يقدِّمونه من وسائل العلاج والمعامَلَة لتحقيق هذه النتيجة، وبعد أن أعطيته فكرةً مُوجَزةً عن نوع الخدمة الموجودة في المصحة، سألني إن كنتُ مؤمِنًا بجدوى ما تُقدِّمه المصحَّة من خدمات في هذا المجال، وهل هناك حقًّا أملٌ في تحقيق المستحيل، وهو إعادة الشباب إلى مَن تجاوز هذه المرحلة العمرية، وهل سيَبطُل عندئذ المعنى الموجود في بيت الشِّعر الشهير الذي يقول «ألَا ليتَ الشَّبابَ يعود يومًا»، فقلتُ –مُجامِلًا– إنه ما زال في أوج الرجولة وأوج الشباب، فأجاب ضاحكًا أنه مهما كان واقع الإنسان فهو دائمًا يخشى ما سوف يأتي، وتفادي زحف الشيخوخة سيكون خبرًا مُفرِحًا للبشرية جمعاء، حتى الأطفال، والتفت إلى الرجل الذي يعدُّ له الشاي قائلًا: «ماذا تقول يا حاج حسن؟»، وكان هذا الحاج رجُلًا على مشارف الشيخوخة، حَريٌّ بأن يفرح بمثل هذه التطوُّرات، إلا أنه تفادى الردَّ المباشر، وأجاب بأنه لا يقول العقيد إلَّا ما كان يقوله ويعيده منذ أول يوم نجَحَت فيه الثورة، وعرفت أن الرجل كان قد نصح العقيد بأنَّ أَسْلَمَ طريقة لتأمين نظام حُكمه، هو أن يتزوَّج كل أسبوع امرأة، فيستولدها ولدًا، ويتزوَّج غيرها، وهكذا يضمن استمرار الحكم في عائلته ونسله، والمحافظة عليه؛ لأنه لو أخذ بكلامه لصار له الآن ألف ابن من صُلبه، يمسكون بمفاصل الدولة، ويسيطرون على أمنها وجيشها، ولَما اهتمَّ بالسؤال عن المصحة الرومانية؛ لأن زواج الأبكار يطيل العمر، ويُجدِّد دورة الدم، مُحتَفِظًا للجسم بحيويته وشبابه الدائم. وعاد العقيد إلى القول بأن الرئيس الروماني نصحه بأن يقضي بها بضعة أيام من أجل الاستشفاء، وأنه سيفعل إذا تأكَّد من صدق ما يقوله أهل المصحَّة. ولكي لا يتَّخِذ قراره بناء على أقوالي، التي قد لا يجدها مُطابِقةً لما يريد؛ قلت له إنني أعرف أن رئيس شيلي، السيد «بونيشيه»، جاء يلتمس علاجًا لأمراض الشيخوخة في هذه المصحَّة، وترك تعليقًا موجودًا في سجلَّاتها يُعبِّر عن شكره للأطباء وامتنانه بالنتيجة التي حقَّقها من إقامة بضعة أيام فيها،

فرأيت العقيد يدوس على زرٍّ فوق طاولته، وتنبثق من جوف الليل صيحة فظيعة تقول: «نعم يا سيدي»، ويأتي موظف من موظَّفي القلم، يختلط سواده بسواد الليل، مُعيدًا صيحته «نعم يا سيدي» عدَّة مرَّات، فأمره أن يسرع بمعرفة فرق التوقيت بين رومانيا والأرجنتين؛ لأنه يريد أن يتكلم مع رئيسها إذا كان الوقت مناسبًا، وإن لم يكن، فلتَكُن أوَّل مكالمة يجريها في الغد. ثم نهض واقفًا؛ علامةً على انتهاء المقابلة، فصافَحتُه وخرَجتُ.

إذًا فأسطورة الارتواء من ينابيع الصِّحَّة والشباب، التي تتيح للشيخ بأن يعود إلى صباه، ما زالت تحظى بالاهتمام والتصديق من بعض زُعَماء العالم، مثل زعيمنا الهمام، وهذا الاهتمام والتصديق هو ما دفع السيد العقيد إلى استدعائي إلى خيمته، وليس ما كُنَّا نظنُّه شأنًا سياسيًّا بالغًا في إحاطته بأغلفة التبجيل والخطورة، في حين أنه لا يُشكِّل شأنًا له أهمية ضمن اهتمامات وأولويات الزعيم، فالأنا المتورِّمة، المتضخِّمة، تُمثِّل لدى هؤلاء الزعماء شأنًا يكبر ويعلو على أهمية الدولة وشؤونها. وخرجتُ من خيمة العقيد، دون أن أسمع منه أيَّة إشارة أو سؤال عن صحة فيلسوف الحزب، وحقيقة الحالة الكلبية التي أصيب بها.

لم أستغرب في اليوم التالي خبرَ تمديد الزيارة التي يقوم بها العقيد الليبي إلى رومانيا لمدة ثلاثة أيام، لا برنامج لها هذه المرة؛ لأنها ستتحوَّل إلى زيارة خاصة للاستجمام والنقاهة، كما يقولون بلغة البيانات الرسمية، وفي تكتُّم وسرية انتقَلَت إقامة العقيد إلى مصحَّة «آنا أصلان»، دون ظهور أي إعلان عنها، أو يأتي ذكرها في أية صحيفة، وصدرت التعليمات إلى المصحَّة بعدم السماح لأي مواطن ليبي، أو من أصل ليبي، بأن يتردَّد على المصحة أو يقيم بها خلال إقامة العقيد بها؛ خوفَ حدوث أية خروقات أمنية، وقد شملتني هذه التعليمات، بل هي اقتصرت على شخصي؛ لعدم وجود لأي ليبيٍّ آخر يتعامل مع المصحة غيري.

في اليوم التالي لانتقال العقيد إلى المصحة وصل إخطار إلى السفارة من البروتوكول الروماني، يتحدث عن تنظيم نزهة صيد للضيف الليبي ومرافقيه، في أكبر الغابات المتاخمة للعاصمة، وهي غابة «سينثرون»، وأبدى لي أحد موظَّفي قسم البروتوكول استغرابه لهذه النزهة، التي أصرَّ عليها الرئيس الليبي، رغم تنبُّؤات الإرصاد الجوي التي تؤكِّد أن الجو لن يكون مناسبًا لمثل هذه النزهة، إلا أن عشق السيد العقيد لصيد الغزلان جعله لا يبالي باعتدال الطقس أو عدم اعتداله؛ لأنها فرصة لا تتاح إلَّا نادرًا، كما شرح رجل البروتوكول، وطبعًا تمَّ تدبير كل التسهيلات، وقامت البعثة الليبية بتوفير الخَدَم الخاصِّين بالطهي، وإعداد الأطباق، فهناك طباخ سوداني موجود بمقرِّ السفارة، معروف لدى الأمن الليبي، التحق بالنزهة التي لم يُدعَ إليها أعضاء السفارة، وكان مفهومًا أن ثمة أمطار سوف تباشر الهطول في الجزء الأخير من النهار، لكي يعمل المتنزِّهون حسابهم إذا أرادوا الاستمرار حتى ذلك الوقت، إلا أن النزهة انقطَعَت عند منتصف النهار، وقبل أن يهنأ أحدٌ منهم بالطعام، أو يجد الطاهي السوداني، العم عمر، وقتًا لطهي أو شَيِّ الطرائد التي اصطادها العقيد وأعوانه، وقد وصل منها إلى الطَّبَّاخ ظبيٌ عظيم، أضخم حجمًا من الثور، تنمو فوق رأسه شبكة من القرون ترتفع أمتارًا فوق الرأس، وقد وصل إلى عَمِّنا عمر بتعليمات من السيد العقيد أن يقوم بالمحافظة على دَمِه عند ذبحه، ووضع هذا الدم في جالون من

البلاستيك؛ لأن العقيد يريد أن يستحمَّ بهذا الدم؛ لثقته الصحية التي ستعود عليه من وراء هذا الحمام، الذي سيأخذه ساخنًا فور عودته إلى مقر إقامته، إلَّا أن حمَّامًا أكثر رُعبًا حصل في الغابة، أنهى بشكل فجائي هذه النزهة، وقد اتَّضح أن العقيد لم يأمر بها رغم برودة الجو؛ بسبب عشقه لصيد الغزلان، وإنما لصيد كائن بشري، هو أحد أعوانه، الرائد صالح أبو فروة، وتدبير عملية اغتياله، بطريقةٍ يبدو معها أنه موتٌ عرضي، بسبب رصاصة طائشة كانت تستهدف غزالًا هاربًا، وسبب هذا الاغتيال هو الشَّكُّ في إخلاص الرائد لرئيسه العقيد، واحتمال أن يكون عضوًا في تنظيم مُناهِضٍ لسلطة العقيد وانفراده باتخاذ القرارات بعيدًا عن التنظيم الذي أوصله إلى الحكم، تنظيم الضباط الأحرار، وكان الرائد صالح من نشطاء هذا التنظيم، والمتمتِّعين بقدر كبير من النفوذ والمصداقية بين أعضائه؛ فقرَّر العقيد تصفيته، وإحضاره معه إلى هذه الزيارة لتتمَّ العملية بهذه الصورة، وبعيدًا عن أعين رفاقه الضباط، تأسَّفتُ كثيرًا لمقتله، رغم أنني لا أعرفه معرفة شخصية، عدا اللقاء العارض الذي حدث أثناء دعوتي للمثول أمام العقيد، فقد كان هو ذاته الضابط الذي يجلس مع الرجل في خيمته لحظةَ وصولي إليه، فبادر بالقيام، وسألني أن أجلس في مكاني.

تسرَّبَت المعلومات ممَّن كان حاضِرًا ما حدث أثناء النزهة، من أن القاتل الذي أطلق الرصاصة كان أحد العسكريِّين المرافقين للعقيد، ورئيس حُرَّاسه الشخصيِّين، معروف بشراسته، وقيامه بمثل هذه التصفيات.

لم أعرف، إلَّا بعد انتهاء زيارة العقيد، ومن ابنة الفيلسوف، عقب عودتها من ألمانيا الشرقية، أن الرئيس الليبي سأل أثناء وجوده في المصحة عن والدها، وطلب الالتقاء به؛ من أجل تبادُل الأفكار، ومعرفة ما يراه الفيلسوف في الكتاب الأخضر، بأجزائه الثلاثة، التي تتحدَّث عن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأرسل إليه نسخة مُتَرجَمةً إلى الرومانية لكي يقرأها قبل أن يلتقي به، وعندما حصل هذا اللقاء، في الجناح الرئاسي المخصَّص أصلًا لاستخدام الرئيس الروماني، واستضاف فيه زميله الليبي، لم يستطع الفيلسوف أن يبقى دقيقة واحدة؛ لأنه وجد المكان يزدحم بالكاميرات وما يتبعها من أجهزة إضاءات ومكبِّرات الصوت، جاهزة لتسجيل المناظرة الفكرية التي كان الرئيس الليبي يريد أن يجريها مع فيلسوف الحزب الروماني؛ فأبدى الرَّجلُ اعتراضه على وجود آلات التصوير التليفزيوني، مُهدِّدًا بالانسحاب، رافضًا أي تصوير، شارِحًا لمضيفه أن وجوده في هذه المصحة للاستشفاء والعلاج من وعكة مرضية، ولا يريد أن يظهر أمام الناس وهو في هذه الحالة، التي تنعكس على صوته وهو يخرج واهنًا ضعيفًا، وعلى شحوب وجهه، وربما على اتِّقاد ذهنه، وقُدرَتِه على النقاش، ولم يبدأ الحديث في موضوع اللقاء إلَّا بعد انسحاب المصورين وآلات التصوير وفنِّيِي الصوت والضوء. وشرَحَت لي «أوليفيا» أن والدها لم يستطع أن يقول للعقيد الليبي شيئًا يُفرِحُه ويُدخِل السعادة على قلبه، وصارحه بأن ما يعتبره كتاب العقيد فكرًا اشتراكيًّا وسُلطةً شعبية، لا تراها الاشتراكية العِلميَّةُ كذلك، ولكن اختلاف الرؤى والتَّصوُّرات والتفاصيل، لا يمنع إطلاقًا من الاتفاق حول الخطوط العريضة، حول العدالة الاجتماعية، وسُلطة الفئات الشعبية، والمساواة بين الناس، وأفهَمَتني أن والدها اتَّصل بمكتب الرئيس «شاوشيسكو» يسأل إن كانت هناك توجيهات رئاسية حول التَّعامُل مع العقيد الليبي، فجاء التوجيه يقول بأن عليه أن يتعامل بصراحةٍ معه، باعتبارها قضايا فكريَّة وليست تعامُلًا سياسيًّا يقتضي المجاملة والديبلوماسية؛ ولهذا فإن والدها لم يجد حرَجًا في إفهامه أنه لا يري توافُقًا بين ما قرأه في كتابه وبين الفكر

الذي يؤمن به ويتبنَّاه، وتسير بهُداه الأحزاب الشيوعية الحاكمة في هذا الجزء من العالم؛ وبالتالي فهو لا يستطيع أن يُبدي رأيًا في مدى صواب أفكاره أو اجتنابها للصواب؛ لأنه لا يصلح أن يُكوِّن حُكمًا حولها، طالما أنه ينتمي لمدرسة فكرية مُغايِرَة له.

وعرفت من خلال ذلك أن المعلومة التي نُقِلَت إليه عن مرض فيلسوف الحزب لم تذهب أدراجَ الرياح، كما تصوَّرتُ وتَصوَّر رئيس البعثة، وإنما أراد العقيد توظيفَها توظيفًا قويًّا لصالحه وصالح أفكاره، أي جعلها مَصدَرًا لتضخيم ذاته والانتصار لها، ربما بطريقة شديدة الخِسَّة والابتذال، فهو كان يريد استغلال مرض الفيلسوف، وإخضاعه لمناظرةٍ فِكريَّة أمام كاميرات التليفزيون، وتحت أسماع وأنظار العالم، يُظهِر فيها براعته وقدرته على هزيمة هذا الصوت المتميِّز من أصوات الاشتراكية العلمية، ولعلَّه في مرحلة من مراحل المناظرة سيشير بطريقة شيطانية إلى مرض الفيلسوف وحالته الكلبية، فيجعله يظهر مهزوزًا مهزومًا مُنكَسِرًا، ويسجِّل نقاط انتصار عليه، ليصوِّره إعلامُه فيما بعدُ المفكِّرَ العالميَّ الذي لا يُبارَى، مؤسِّس النظرية العالمية الثالثة، الذي تصدَّى لأكبر العقول الشيوعية في عُقر دارها، فكان قادرًا على إنزال الهزيمة بها، ولعلَّه كان سيأمر أحد طواقم التصوير بأن يأتي ويرفع يده، بعد أن يقوم بالعَدِّ من واحد إلى عشرة، فوق رأس خصمه، الذي أسقطه أرضًا بالضربة القاضية، بطريقته العبثية الإجرامية الجنونية المبتَذَلَة، ولكن فيلسوف الحزب، رغم حالته الكلبية، فقد كان أكثرَ حَصافةً وذكاء، وربما خُبثًا ومَكرًا من خبث العقيد ومَكرِه.

استطاعت زيارة العقيد، بما رافقها من إثارة وطرائف، أن تزيح من طريقها الاهتمامَ بموجة الملاحقة والاعتقالات التي أرسلتها السيدة «إيلينا شاوشيسكو»، وجعلتها تحتلُّ –ولعدَّة أيام– موقِعَ الأولويَّة، ليس فقط بالصحف ووسائل الأعلام، ولكن على مستوى الشارع وأحاديث الناس، وكانت إحدى هذه الطرائف التي ظلَّت موضِعَ استظراف الناس، ونقدهم، ونقاشهم بين الشجب والاستحسان؛ أن الوفد الليبي، برئاسة العقيد، طلب من رومانيا تزويده –وفي دفعة واحدة– بثلاثين ألف ممرِّضة، وكان طلبًا غريبًا بالتأكيد، خاصَّة إذا جاء من ليبيا، التي تقول إحصائيات منظَّمة الصحة العالمية أن عدد الأَسِرَّة في مستشفياتها لا يتجاوز هذا الرقم إلَّا بعدد ضئيل، يعني: بواقع ممرِّضة رومانية لكل مريض ليبي، وهو رقم لم تصل إليه الأرقام القياسية في العالم على مدى التاريخ، والأمر الغريب الثاني هو أن يتصوَّر الوفد الليبي أن هناك فائضًا من الممرِّضات في رومانيا يصل إلى هذا الرقم الجسيم، وهو يعني أنه لا وجود لأية جدية في الطرح، ولا مرجعية لأهل الاختصاص الصحي، وإنما هو، كما رأيته شخصيذًا، تجسيد لما يسمِّيه الليبيون «حلم الجوعانين»، حيث بدا واضحًا لي أنه جاء بضغط وطلب من المجتمع العسكري الذي يحيط بالعقيد، ويريد إشباع ما يعانيه من نَهمٍ إلى ما يظنُّه لحمًا رخيصًا، ليكون علَفًا لشهوات هذه البطانة الفاسدة من جلاوزته وأركان حكمه ومُنفِّذي جرائمه، خاصة وأن هناك أغنية شعبية، راجت كثيرًا بين الليبيين، قالها أحد الزَّجَّالين الناقمين على النظام، أثناء إجازة قضاها على ضفاف نهر الدانوب، أشاد فيها بجمال النساء في هذه البلاد، ومديح الحرية الشخصية التي يستمتع بها بعيدًا عن كوابيس ليبيا، مستهلًّا إيَّاها بأبيات غزلية يخاطب فيها الفتاة الرومانية بكلمة من لغتها، قائلًا:

«تشي فاتشي يا دراجا

حلو البحر الاسود على مذاقه

من ضيم وطننا»... إلى آخر القصيدة(*).

إلَّا أن هذه الفكاهات والمساخر، سرعان ما تراجَعَت، لكي تعود أخبار القمع الحكومي في رومانيا تتصدَّر أحاديث الناس، واهتمامهم، ورغم أنهم يتناقلون أحاديث هذا القمع في تكتُّم وسرِّيَّة، إلَّا أنه كان سهلًا على المراقب الخارجي مثلي، ومثل غيري من أعضاء الوسط الديبلوماسي، أن يتلمَّس النقمة المتعاظِمَة التي تغلي في صدور أهل البلاد ضد النظام ورئيسه، وازدادت هذه النقمة استعارًا، عندما بدأت آلات البلدوزر تطيح بأحياء سكنية، في أكثر مناطق بوخارست عَرَاقَةً وقِدَمًا، وتسكنها أكثر عائلات المدينة أصالة وتجذُّرًا في بيئة العاصمة ومحيطها، وكان التعويض الذي يقدَّم لأصحاب هذه البيوت التي شملها الهدم، شُقَقًا شعبية، بُنِيَت على عَجَل في أطراف المدينة، ولم يكن ثمة سبب وجيه لإزالة هذه الأحياء وإجبار أهلها على الرحيل، غير الذهنية المريضة لذات متورِّمة، هيَّأت لها مظاهر القوة والسُّلطة وأوهامها بناءَ أكبر قصر للحكم في العالم، رغم وجود قصور كثيرة، فخمة وأنيقة، تخلَّفَت من العهود الملكية، صارت ملك يدَيْ هذا الحاكم وتحت تصرُّفه، ولكنه عافها جميعًا، وأراد بناء قصر لا مثيل له في الكرة الأرضية، وفعلًا باشَرَ الرئيس الروماني بناء القصر على أنقاض تلك الأحياء، ووسط استهجان ونقمة أبناء المدينة، وقد رأيت ذلك معكوسًا في كلمات «أوليفيا»، التي ارتفعت وتيرة نقدها لما يجري من أحداث، والتي رأت في هذا المشروع إهانة لشعبها، الذي ما زال واحدًا من أفقر شعوب القارة الأوروبية، في حين يستهتر الحاكم بمشاعر الفقراء، ويباشر بناء قصر يتكلَّف مليارات الدولارات، ينتزعها قهرًا وظلمًا من قوت أناسٍ لا يجدون الخبز الجاف، كما تقول «أوليفيا»، وأكَّدَت لي أن عائلات الأرياف التي تزرع القمح والشعير، لا تجد الرغيف بسبب قلَّة الأفران، التي تمنع الدولة بناءها؛ توفيرًا للعملة الصعبة، ويضطرُّ أهل تلك الأرياف إلى إرسال أبنائهم إلى مخابز العاصمة لشراء ما يحتاجونه من خبز، وهي عملة –كما تقول «أوليفيا»– يصرفها على شراء طائراته الخاصة، واستيراد الولائم من باريس، والأطعمة التي تُصنَع خصِّيصًا لكلبه «بومبي».

لم أكن أريد لهذه اللحظات الثمينة التي أقضيها مع «أوليفيا» أن يزحف عليها الحُكَّامُ الطُّغاة المجرمون من أمثال «شاوشيسكو» والقذافي، ويضيفونها إلى جملة ما يغتصبونه ويلتهمونه من حياتنا؛ فلا بُدَّ، أقول في نفسي، من أن أسرع لانتشال هذه اللحظات من قبضتهم، ونقلتُ لها رجائي من أن ننتبه إلى حياتنا، وإلى عواطفنا، وإلى دائرة أحبَّائنا، وألَّا ندع هؤلاء الطُّغاة يسرقون جَمال ومتعة الأوقات التي نقضيها معًا، فانتبهت إلى شيء أرادت إبلاغي إيَّاه، وهو أنها نجحت أثناء وجودها في برلين الشرقية إلى تأمين مكان لعلاج والدها، لا يقع تحت سيطرة الأجهزة الأمنية، وانتصَرَت على الصعاب التي تواجهها في مثل هذا المسعى، فهي –كما تقول– «ظروف استثنائية»، تمرُّ بها البلاد، بسبب الحراك السياسي المعارض للحزب، والذي يتفاقم ويتنامى، وتقوى فيه شوكة الأجهزة الأمنية وتتضخَّم صلاحيتها، وبحجة استنفار قوى الدولة والحزب

لمواجهة الأوضاع السياسية الصعبة؛ صار ذهاب المسؤولين الكبار خارج البلاد، وغيابهم لفترات طويلة يقتضيها العلاج أو الاستجمام والسياحة، أو حتى الدراسة العليا لمن يحتاجون ذلك- مُؤجَّلًا خلال المدى القريب.

أبلغتُها كيف أن زيارة الرئيس الليبي حرمتني من أن أحظى بإجارة أقضيها قريبًا منها، في ألمانيا الشرقية، واثقًا بأنها كانت ستجد في برنامجها هناك فائضًا من الوقت نقضيه معًا، وهو كلام كنت أقوله لأختبر مدى حماسها لفكرة أن نقضي إجازة معًا، ربما في الأيام القادمة، حتى يأتي الإذن لوالدها بمغادرة البلاد، نعوِّض بها الإجازة التي مضت، إلا أنها استوقفتني عند هذه النقطة، لتتكلَّم بشيء من الصراحة، التي لم تكن غريبةً على أبناء طبقتها، أو أية امرأة عصرية تملك ثقافةً مثل ثقافتها، قائلة بأنه قبل أن نمضي أية خطوة في هذا الاتجاه؛ يجب ضبط العلاقة، وتحديد إيقاعها وسياقاتها، وتقييم منطلقاتها ودوافعها، وأشارت إلى أن اتصالي بها بدأ بحديث عن أسبوع ثقافي ليبي، وهي لن تسأل الآن عن حقيقة هذا الأسبوع كدافعٍ للاتصال، ولا ترى غضاضةً فيما إذا كان مجرَّدَ ذريعة له؛ لأنه لا بُدَّ لأية صداقة أو علاقة بين اثنين أن تبدأ من نقطة ما، ثم تتجاوزها، المهم أنها استجابت لدعوة التعارُف، ربما بسبب ما أثاره صاحب الدعوة من اهتمام لديها؛ ممَّا يعني وجود تجاوب من الطرفين، وأنه تجاوُبٌ يصلح بالتأكيد لإقامة علاقة ما، قد تستمرُّ، أو لا تستمرُّ، وفقَ الظروف والمستجدَّات، وفكرة الذهاب في إجازة معًا، و اللقاء لوقت طويل خارج رومانيا، سيكون بالضرورة تطويرًا لهذه العلاقة، والدخول بها في مرحلة أكبر، وأكثر قوَّةً وعمقًا، وهي هنا تريد أن تستسمحني في شرح نقطة أساسية في العلاقة بين الرجال والنساء، فالتحرَّر والتسامُح الاجتماعي صفةٌ أساسية من صفات الحواضر الأوروبية، لكن هذا التَّحرُّر وهذا التسامح لا يعني دائمًا نفسَ الشيء لكل الناس، بمعنى أنها تعرف زميلاتٍ يستقبلن أصدقاءهن في بيت العائلة، ويدخلون إلى غرف نومهن في حضور الأسرة، وموافقتها، إلَّا أن هذا لا يحدث في بيتها، لا معها ولا مع أختٍ أكبر منها، هي الآن متزوجة وتعيش في مدينة كونستانسا الساحلية، وعن نفسها فإنها لم تَخُض أبدًا تجربة رجل يذهب معها إلى غرفة نومها، أو تذهب هي معه إلى غرفة نومه، وليس ذلك تزمُّتًا منها، ولكنه احترام لنفسها، واحترام لجسدها، واحترام لما يمكن أن يكون حبًّا، لا يكون فيه الوصول إلى الاتحاد الجسدي إلَّا جزءًا من اتحاد أكبر، وهو اتحاد الأرواح والعواطف والقلوب؛ ولذلك فهي لا تريدني أن أُمنِّي نفسي بعلاقة عابرة تنتهي بغرفة نوم مشتركة في فندق في برلين أو براغ؛ لأن ذلك ليس واردًا بالنسبة لها، وبهذه الصورة، فمثل هذه القضايا التي تتَّصِل بشؤون القلب والجسد تحتاج إلى وقت لكي تنضج وتكبر، وتتحرَّك من أفق إلى أفقٍ أكثر عمقًا وقوَّةً واتساعًا، وهو أمر يخضع في جانب منه لإرادتنا وعواطفنا، وثمَّة بالتأكيد عوامل أخرى تتحكَّم في صيرورته وتحديد مصيره، وضربت مثلًا، بالمجال الديبلوماسي الذي أنتمي إليه، حيث العمل في أي موقع أو سفارة محدودٌ بمدَّة، يعود بعدها الديبلوماسي إلى بلاده، أو ينتقل إلى بلاد أخرى، فكيف لا تتأثَّر مثل هذه العلاقة -إن وُجِدَت في حياته- بمثل هذا النقل، ويبقى طبعا السؤال قائمًا عن طبيعة الاستجابة لمثل هذه الحالة، والتعامل معها، ومع المتغيِّرات المصاحبة لها.

قلتُ لها -صادقًا- إنني الآن أقف على فَرقٍ من الفروق التي صنعها الله بين البشر، بما في ذلك الأحِبَّة والعُشَّاق أنفسهم، ربما بتأثير البيئات وتنوُّعها، والجذور التربوية التي تصبح مرجعًا للكائن البشري، وما يتغذَّى به وجدانه منذ

الطفولة، فهي تعيش في بلدٍ يقوم على التخطيط الدقيق، والحسابات التي يحسبها الإنسان لدقائق حياته ومستقبل هذه الحياة، وبمساطر تقيس نوع وشكل الهواء، وأخرى تقيس حجم وشكل الماء في المحيط، أمَّا أنا فابن المجتمعات ذات المعيشة العفوية، والاستجابة الطبيعية لمعطيات الواقع، دون مساطر ولا قياسات، فهي تُسلِم نفسها لتيار الحياة، يمضي بها حيث يشاء.

وانتهى اللقاء، وقد أبقينا الحوار مفتوحًا لاستكماله في لقاء آخر، ولكنني رأيت أنها أقفَلَت ذلك الباب الذي تصوَّرتُ أنه سيقود إلى علاقة جميلة، ذات طبيعة مؤقَّتة، تُقدِّم لي لحظاتٍ من المتعة والتسلية، فأقضي وطري منها وينتهي الأمر.

لم أسعَ لتمديد أو تجديد الإقامة في مصحَّة «آنا أصلان»، بعد أن خرجتُ منها على عجل، بسبب التعليمات الأمنية التي صاحَبَت إقامة العقيد في المصحة، واكتفيت بالتردُّد حسب الحاجة، وبموعد مسبق مع الدكتور «فالي»، ولم يَعُد متيسِّرًا لي أن أرى فيلسوف الحزب، أو أجد دافعًا للسؤال عنه، وكانت «أوليفيا» قد اعتذرت عن عدم قدرتها على أن تأتي في موعد لقائنا الأسبوعي القادم؛ لأنها ستكون صُحبَةَ شقيقتها، التي ستصل العاصمة لزيارة والدها، بأمل أن نلتقي في الأحد التالي. فانتظرت على قلقٍ حتى جاء ذلك الأحد، وقد أدركتُ إلى أي مدى صار التَّوقُ للقائها أشبه بتَوْقِ المدمن إلى التزوُّد بمادة إدمانه، جلست في الركن المفضل لجلوسنا من مقهى «هيراسترو»، إلا أن الوقت مضى دون أن يأتي أحد، وتجرَّأتُ في اليوم التالي على مهاتفتها في بيتها، فلم يرفع السماعة أحد، وظللتُ حائرًا، ترفعني شتَّى الهواجس وتهبط بي، قائلًا في نفسي لعلَّها القطيعة، فبعد إشارتها إلى ما يعترض قيام علاقة عاطفية بيني وبينها من عقبات، قرَّرَت اختصار الطريق، وإيقاف العلاقة عند هذا الحد. أمر ليس غريبًا على نساء محيطها ومَنبتِها، ممَّن يقرأن العواقب، ويجرؤن على بَتْرِ العلاقة قبل أن تتحوَّل إلى تورُّطٍ عاطفي يصعب الخلاصُ منه دون جراحة كارثية، ولكن الغريب هو ألَّا تخبرني بذلك؛ فهي امرأة لا تنقصها الصراحة، ولا الشجاعة، ولا وجود لشيء في هذه العلاقة أو الصداقة يوجب الحرج، إذا قرَّرت إبلاغي بما تنوي فعله.

حالة من القلق ألمَّت بي لهذا الموقف الغامض، الذي لا أجد له تفسيرًا ولا تبريرًا. وأثق بأنني ما إن أجد هذا التفسير، سلبًا أو إيجابًا، حتى أرتاح؛ لأن اليأس نفسه أحد الراحتين، وأكثر هَونًا من مثل هذه الحالة، وفعلًا، وقبل نهاية الأسبوع، جاء التفسير، إلَّا أنه –للأسف– لم يوقف القلق، بل زاده قوَّةً وحِدَّة، فقد حصل ما يشبه الانفجار المعلوماتي المعادي لفيلسوف الحزب البروفسور «فلوريان بوبيسكو»، شمل كافَّةَ أجهزة ومنابر الإعلام المرئي والمسموع والمقروء في رومانيا، ليس فقط عن انحرافه وفساده، وتحميله مسؤولية الجمود الفكري الذي عانى منه الفكر الاشتراكي الماركسي، ولكن أيضًا لدوره التخريبي في إفساد التواصل بين الشعب والحزب، وبين حلقات الحزب ببعضها البعض، تنفيذًا لخطَّة مُبيَّتة، أَمْلَتها عليه قوى خارجية تآمر معها وارتبط بها، ورتَّبت لهروبه خارج البلاد، بعد أن قام بأداء مَهمَّته المطلوبة منه، مقابل

المال الذي أعطته له، لكي يستبدل الولاء لحزبه والولاء لوطنه والولاء لضميره، بولائه للدولار وللدولة التي تملك الدولار، وتستخدمه في شراء الذِّمَم، وهي الولايات المتحدة الاميركية.

أمَّا أبشع ما حدث في هذه الحملة لتدمير سُمعَتِه فهو اتهامه بالجنون، وتأكيد الأجهزة على أن هذا التآمر وهذه الخيانة جاءت متوافِقةً مع انهيار في قواه العقلية، ثم استغلالها من طرف الأعداء، وأظهر التليفزيون صورةً لفيلسوف الحزب وهو يتحرَّك فوق إحدى الشرفات، مُستخدمًا يديه وقدميه في المشي كما تفعل الحيوانات، ويصدر نباحًا مثل نباح الكلاب، وهي صور أعرف أنها حقيقية؛ لأنني رأيتها رؤية الواقع العياني، ولكنها جاءت بأثر عكسي لدى الرأي العام؛ فقد استفزَّت مشاعر الناس وتَسبَّبت في اشمئزازهم من الأساليب الرخيصة التي تلجأ لها الحكومة لتشويه معارضيها، إلى حدِّ أنني سمعت مَن يقول إنه تزوير وفبركة ليس غريبًا على آلة الدعاية الحزبية وفَبْرَكَتها، أو على أجهزة السيكوريتات، وتحوَّل السيد «فلوريان»، خلال لحظات قصيرة من إذاعة المؤامرة، إلى بطل شعبي، يشيد الناس بشجاعته، ووقوفه في وجه الطاغية، مُضحِّيًا بسلامته الشخصية وسلامة أسرته، مجازفًا بحياته، في سبيل الحق والضمير والواجب، على عكس ما يقوله إعلام الحزب والدولة.

وعرفتُ من خلال التَّقصِّي وتَسَقُّط المعلومات التي تدور في الوسط الديبلوماسي، أن السيد «فلوريان»، استطاع الحصول على إذن بالذهاب إلى العلاج في برلين الشرقية، وبترتيب خاصٍّ مع عناصر المعارضة الرومانية في الخارج تمَّ تهريبه عبر الجدار إلى الجزء الغربي من برلين، حيث أعلن من مكانه الآمن في ألمانيا الغربية عن صريح موقفه المعارض للقبضة الإجرامية التي يقبض بها الطاغية «شاوشيسكو» على الحُكم، بمساعدة امرأته الجاهلة، التي لا تملك من المؤهِّلات الكاذبة التي تدَّعيها إلَّا مؤهِّلًا واحدًا، هو روح الشر والانتقام، تمارسها لإرضاء مُركَّبات النقص لديها، في ظلِّ رئيسٍ يكره الكفاءات، ويخاف أهل العقل والحكمة، واعتمد اعتمادًا أساسيًّا على هذا الكائن الكريه، الذي لا يرى شيئًا ولا يعرف شيئًا من أصول الحكم إلَّا التَّسلُّط والإجرام.

ويبدو واضحًا أن الفيلسوف الهارب يستخدم خطة في الهجوم، يتجنَّب فيها استهداف الرئيس شخصيًّا، أو الحديث عن مثالبه، ربما مُراعاةً للعلاقة القديمة الطويلة التي جمعت بينهما، فاختار هدفًا مُقرَّبًا منه يُحمِّله آثامه وجرائمه، هو زوجته، التي دخلت على المشهد دون مؤهِّلاتٍ ولا تفويض ولا غطاء شرعي، حتى لو كان غطاءً زائفًا، فكيف تصبح الشخص الثاني في اتخاذ القرار، وأحيانًا الشَّخص الأوَّل؟ تاركةً خلفها كل أصحاب التفويض الحزبي، مهما كان الحزب في حقيقته أداة تزوير وزيف، فهو الإطار الذي تعمل الجمهورية الرومانية من خلاله، والذي يحتلُّ فيه فيلسوف الحزب وأمين الدعوة والتثقيف، المرتبةَ الثانية التي تلي الأمين العام، وقد شمل هجومه على زوجة الرئيس، لا القرارات التي تتَّخذها، والسلوكيات التي اشتهرت بها في صُنع الخصوم وملاحقتهم والانتقام منهم، ثم البذخ الذي وصل إلى حدٍّ لا يتَّفق مع حزب، جاء إلى الحكم باسم الطبقات الكادحة، وتمثيلًا للعُمَّال والفلاحين، فتتباهى على الناس بملابس مصنوعة في باريس، تقوم بتغييرها كل يوم سِتَّ وسبعَ مرات، وتظهر عليهم بتسريحات شعر تتغيَّر في اليوم أكثر من مرة، وتملك في مخازنها من الألبسة ما

يصنع متجرًا من عشرة طوابق، وأحذية تصل إلى الآلاف، وعندما تناول صاحبه «شاوشيسكو»، بدأ في نقده من هذا الجانب، وهو أنه يفقد شخصيته أمام هذه الزوجة، ويتحوَّل خادمًا مُطيعًا لها، تأمره فيمتثل لأوامرها، دون اعتراض، ولا قدرة على أن يرفض لها طلبًا مهما كان شاذًّا ومنحرفًا، وبموازاةٍ لهذا النقد اللاذع والشخصي للزوجة، جاء نقده لسياسة الحزب، وقوالبه الجامدة، وعدم استجابة كوادره لأي مبادرات أو تجديد، ولعله اختار هذه الجوانب الفكرية لحديثه، باعتباره معنيًّا أكثر من غيره بهذا الجانب، ورأي ضرورة أن يبرئ ذمته ممَّا اعترى الحزب من ترهُّل، فقد كان أي تجديد يطالب به أو يدعو إليه، لا يلقى سوى الرفض من جمعية المنتفعين من الحزب، واعتبار حديثه عن التجديد دخولًا في الخطوط الحمراء التي رسمتها هذه العصابة، مع عصابة أعلى منزلةً، وأكثر قوة ونفوذًا، في دولة السيطرة والسيادة، وهي الاتحاد السوفييتي، فلا سماح بغير تكريس الأمر الواقع؛ لأن أي تغيير لهذا الواقع يعني بالنسبة لهم إلغاء مصالحهم، والإطاحة بهم من مكانهم العالي، وربما الوصول إلى فكِّ الارتباط بالقوة التي تسندهم من خارج الحدود؛ ولهذا فهو يرى أن النظرية بشكلها التي يعتمدها الحزب الحاكم في رومانيا، قد وصلت الي طريق مسدود، ولم يعُد لديها شيء تقترحه لحلِّ مشاكل الناس، ولا مواكبة العصر، ولا الخروج من أنفاق القهر والقمع والجهل والمرض.

وهو كلام ينسحب على بقية فروع الحزب الشيوعي، الذي يرى أنه فشل في تحقيق المدينة الموعودة التي حلم بها ماركس وإنجلز ولينين، وربما كُتَّاب وشعراء مثل «أوليفيان بونين»، و«مكسيم جوركي»، و«مايكوفسكي» و«أنا أخماتوفا». عانى بعضهم اضطهادَ البيروقراطية الحزبية؛ لأنهم ينشدون التجديد والتحديث، وبفضل أهل البيروقراطية، وعصابات المنتفعين من النظام وسَدَنته، ومباركة وتشجيع المتربِّعين على السلطة؛ تحوَّل الفكر الاشتراكي إلى مستنقع آسِنٍ، لا يتجدَّد فيه الماء، ولا ينتج ويستقطب إلا الخسيس من الحشرات، وتصاعَدَت منه روائح العفونة تزكم الأنوف، وصار الفكر الماركسي، كما يقول السيد «فلوريان» في بيان انشقاقه من الحزب، في مرحلته الحالية –وكما تمارسه أنظمة الحكم– بيئةً صالحة لإنتاج العقول الميتة، والمقولات الفاسدة، والنماذج البائرة، والتصنيفات العنصرية، والهويات الزائفة، والاستراتيجيات القاتلة، ولا بُدَّ من حدث ثوري يؤدي الي قلب هذه الأوضاع، ويصنع أُطُرًا وأطروحات جديدة لإدارة المجتمعات على قاعدة الديمقراطية المقرونة بالعدل الاجتماعي، والاستفادة من الفتوحات العصرية التي يطرحها مجتمع المعرفة، والثقافة الرقمية، والتحوُّلات الهائلة التي جاء بها عصر المعلوماتية، وهو عصرٌ يتناقض تناقُضًا فاجِعًا مع أسلوب الستار الحديدي، والانغلاق، والدهاليز السرية لاتخاذ القرار، وسياسة وأد الحريات العامة.

حظي هروب الفيلسوف الروماني إلى الغرب بتغطية إعلامية كبيرة في صحافته ووسائل إعلامه المرئية والمسموعة، بل وفي دوائر السياسة العليا في صنع القرار، لقد كان هذا الهروب محلَّ نقاش ومؤازرة في البرلمان الأوروبي، وموضوع بيانات تظهر من قصور: الإيليزيه، والبيت الأبيض، وداونينج ستريت في لندن، وغيرها... ولقيت أقواله رواجًا ترحيبيًّا في أوساط ليبرالية في الشرق والغرب، مع قدر كبير من التعاطُف داخل رومانيا، لا يخرج طبعًا إلَّا عن طريق الهمس، وأثناء اللقاءات الخاصة بين الأصدقاء، وأفراد العائلة، وبطبيعة الحال، فإن الآلة الحزبية الأمنية الإعلامية في البلاد لم تكن تنتظر هذا الهجوم

لكي تردَّ عليه، وإنما كانت سبَّاقة بالهجوم، الذي كانت وتيرته تزداد مع تواتُر الردود من الطرف الثاني؛ لأن المعركة لم تعُد معركة الفيلسوف لوحده، ولكن دخلت فيها أطراف كثيرة أخرى، في مقدمتها قُوَى المعارضة الرومانية المبثوثة في الخارج، والتي أسهَمَت في تأجيج المعركة إلى حدِّ الشتائم والسباب، ونقل الفيلسوف «فلوريان» هجومَه إلى الرئيس نفسه، بعد أن تجنَّب استهدافه علي المستوى الشخصي، وجعل تركيزه علي الحاشية، والحزب، وعناصر الدولة الأخرى، التي استشرى بينها الفساد، والأجهزة الأمنية التي وصلت حدودًا قصوى في استخدام العنف، ووسائل القمع وكبت الحريات، بادئًا بأكثر جوانب الرئيس شخصية، وهي علاقته بزوجته التي فضح ما فيها من شذوذ وانحراف، يتجاوز المعاني الأساسية، إلى السقوط الأخلاقي والانحراف الجنسي، مُعزِّزًا ذلك بتفاصيل وأسرار هذه العلاقة التي قامت علي الإذلال والاحتقار من طرفه، عندما تستخدمها قوَّادة تجلب له نساء المسؤولين، والابتزاز من طرفها؛ لتوسيع دائرة نفوذها الشخصية؛ إرضاءً لأمراض النقص والدونية، وكيف وصل الرئيس إلى الدرك الأسفل من الانحطاط الأخلاقي الذي لا يراعي معه حُرمَةً لصديق أو قريب، إلى حدِّ الزنا بالمحارم، ولا يعرف قانونًا، ولا يقيم اعتبارًا لشرائع أرضيَّة ولا سماوية، وذكَرَ عن جانبه السياسي وثقافته العامة أنه لم يقرأ غير كتابين، يضعهما جنب رأسه، ويعتبرهما مرجعًا في حكمه وممارسته السياسية والعامة، هما: كتاب «الأمير» لـ «ميكافيللي»، حيث الغاية تُبرِّر الوسيلة، وحيث إن الغدر والخيانة هي أسلوب تعامُل الحاكم مع أعوانه، وتشجيعهم على ارتكاب الفواحش والمفاسد لإبقائهم تحت السيطرة؛ خوفًا من المحاسبة. وكتاب «فاوست»، الذي ارتبط بعقدٍ مع الشيطان، للكاتب الألماني «جوته»، حيث يبيع فاوست روحه للشيطان «مانفيستو»، مقابل أن يفتح له الأبواب المغلقة التي تُفضي لعوالم السلطة والقوة والمال، دون اعتبار للجزاء، الذي سيكون بوَّابات الجحيم، المفتوحة لاستقباله في ختام رحلة الحياة. وينهي هذا الجزء من حديثه بتعليق يقول إن رجلًا مثل «شاوشيسكو»، باع نفسه للشيطان، لا يبقى أمامه رادع لارتكاب أي نوع من الموبقات؛ قتلًا وقمعًا وقهرًا للناس، وظُلمًا للأبرياء، واغتصابًا، إلى حدِّ أن يأمر حُرَّاسه باختطاف فتاة رآها في الشارع فأعجبته، لإحضارها اليه، ثم لا مانع بعد أن يقضي منها وطره أن يقتلها ويرمي بها في نهر الدَّانوب لمنع ظهور الفضيحة. أمَّا مَثَلُه الأعلى في الحياة السياسية والعسكرية فهو «موسيليني»؛ لِما يشترك فيه الاثنان من رابط يجمعهما بالإمبراطورية الرومانية، وهو يعشق قولًا مأثورًا «للدوتشي» الإيطالي، يقول فيه: «الشعوب مثل النساء، موجودون من أجل الاغتصاب»؛ وهو ما يقوم «شاوشيسكو» بتطبيقه بشكل حرفي.

ولم أستغرب عندما تلقَّيتُ مكالمة هاتفية من «أوليفيا»، التي أسمت نفسها في بدء المكالمة «هيراسترو»، على سبيل التَّنكُّر وتضليل أجهزة الامن، وهو اسم الحديقة والمقهى الذي يقع في ركن منها، وجعلناه مكانًا للقائنا، واعتذَرَت عن الظروف التي منعتها من المجيء حسب الموعد إلى المقهى؛ لأن الأحداث تطوَّرَت بسرعة، وكانت تستوجب تحرُّكًا يوازي سرعتها، مع مراعاة الحذر والدقة في كل خطوة، وبأقصى مقتضيات التكتُّم والسرية، وحمدًا لله؛ فهي الآن مع والدها وأُمِّها وبقية أفراد أسرتها، بما في ذلك أختها وزوجها وأطفالهما، في أمان وسلام.

ودون إفصاح عن اسم أبيها، قلتُ لها إنه قد أصبح بطلًا قوميًّا، والناس يتكلَّمون عنه بإكبار وإعجاب، ويثمِّنون عاليًا ما أبداه من شجاعة ومخاطرة، وما أظهره من روح التضحية في سبيل البرازيل. فضحكت وهي تعرف أنني أرمي بكلمة

البرازيل تمويهًا وتضليلًا لأي جهاز يتنصَّت على هذه المكالمة.

لم أستطع معرفة من أي مكان كانت تتكلم، ولكن التقارير الصحفية كانت تقول بأن البلد الذي لجأ إليه والدها أثناء هروبه هو ألمانيا الغربية، وأنه الآن تحت حماية السلطات في عاصمة البلاد، مع كل أفراد أسرته، فهم يعرفون شراسة سيكوريتات الرومانية، التي سبق أن لاحَقَت معارضين في الخارج، ونجحت تحت عوامل الترويع والتهديد، في إرغامهم علي العودة الي بلادهم، وشحنهم شحنًا إليها إذا أبوا، وإذا تعذَّر الإرغام والشحن قامت بقتلهم في منافيهم، وربما استعانت في ملاحقة الفيلسوف بكل أجهزة بلدان الكتلة الشرقية؛ لِما أبداه من عداء لأسلوب حكمها، وللدولة الراعية، وفلسفة الحكم فيها، وما يمثِّله من خطر على أنظمة الحكم في كل هذه البلدان.

ولم يقتصر الرَّدُّ الروماني علي هروب فيلسوف الحزب والرجل الثاني في تراتُبيَّة الحكم، على الحملة الإعلانية العاتية، وإنما أتبعتها حملة اعتقالات وتحقيق وملاحقة، طالت حلقة كبيرة من عناصر الدولة والحزب، وكنتُ قد تابعت الاتصال بمصحة «آنا أصلان»؛ باعتباري مريضًا خارجيًّا، وعرفت أن الدكتور «فالي» قد استُدعِيَ للتحقيق، وعاد يمارس عمله كالسابق، فلم يكن الاستدعاء للتحقيق بسبب اتهام أو شكٍّ في سلوكه؛ وإنما لمجرد استكمال المعلومات عن الفيلسوف الهارب؛ باعتباره كان أحد الأطبَّاء المكلَّفين بعلاجه، بينما استُدعِيَت «ريلكا» الممرِّضة أيضًا للتحقيق، وتمَّ احتجازها لأن هناك سحابة شكٍّ تحوم فوق رأسها، ويقول الدكتور «فالي» إنها ليست أوَّلَ مرَّة، ولن يكون هذا الاستدعاء أخر مرة؛ فقد تعوَّدَت علي حجزها لأيام قليلة، ثم إطلاق سراحها، وبالنسبة لي، فإنني أدرك أن جهاز سيكوريتات يعرف أنني ألتقيت بالفيلسوف أثناء وجودنا معًا في المصحة، وأنني اتَّصلتُ بابنته، والتقيتُ بها بضع مرات، لأن كل ذلك تمَّ في العلن، وأمام أعين الأجهزة الرقابية، وبحضور مندوب عنها في إحدى المرات، إلَّا أن أحدًا من طرف هذه الأجهزة لم يتَّصِل بي، أو سأل عني من قريب أو بعيد، ليس مراعاةً للأصول الدبلوماسية؛ لأن العبث بهذه الأصول هو القاعدة في بلدان مثل رومانيا، وليس الاستثناء، وهناك سوابق كثيرة في التحقيق مع دبلوماسيين أجانب، وحجزهم لدى سُلطات الأمن، ولم يكن ليصدَّهم عن ذلك السلوك مذكِّراتُ الاحتجاج التي يتلقَّونها من السفارات، باعتبار ما قاموا به انتهاكًا لأعراف دبلوماسية، ولم يكن ليصدَّهم كذلك التهديدُ الذي يرافق مثل هذا الاحتجاجات، بأن معاملةً مُماثِلةً يمكن أن يتلقَّاها أعضاء سفاراتهم في تلك البلاد، وانتهاك حصانتهم، وغالبًا ما ينتهي الأمر برسالة اعتذار من إدارة البروتوكول، بحجَّة الخطأ والالتباس. ما كان يمنعهم من استدعائي واستجوابي، هو شيء آخر، وأسباب غير الحصانة، يأتي في أولها زيارة العقيد الليبي، التي لم يمضِ على انتهائها غير بضعة أيام، والتي أعطت العلاقة بين البلدين مزيدًا من الزخم والقوة، وانتهت بتوقيع عدد كبير من الاتفاقيات التجارية، التي يحتاجها الاقتصاد الروماني، ويرى فيها مصدرًا للعُملَة الصعبة، والعامل الثاني -فيما أرى- أنهم لم يجدوا في اتصالاتي وعلاقتي العابرة بالفيلسوف وابنته، ما يمكن أن يشكِّل خروجًا على مقتضيات العلاقة التي تقوم بين مسؤول ورجل من السلك الدبلوماسي، ولا تحمل أدنى درجة من تهديد أمن الدولة وسلامها، أو أدنى علاقة بالأحداث التي أدَّت إلى هروب الفيلسوف وانشقاقه.

ولم يكن في إمكاني الآن أن أفعل شيئًا أستطيع أن أُعين به أحدًا، أو أقدم أي مشاركة تساعد علي تحريك الأحداث باتجاه أكثر إيجابية، لصالح الطرف الذي أتعاطف معه في هذا المشهد المؤسف، لا اختيار أمامي إلا أن أبقى مُراقِبًا، من موقعي كعضو في البعثة السياسية الليبية؛ ربما استطعت لقربي من أبطال الحدث أن أرى الأمور بوضوح أكثر ممَّا يراها آخرون من أبناء مهنتي، وكان بالتالي مُمكِنًا، باعتباري مستشارًا سياسيًّا في سفارة بلادي، أن أكتب لدولتي تقريرًا يحتوي الخلفيات والمعلومات التي لا يستطيع أن يراها أو يعرفها إلا عدد محدود من الناس. وبعد زيارة روتينية إلى المصحة، وجدتُ الحنين يشدني إلى حديقة «هيراسترو»، وإلى المقهى الذي شهد لقاءاتي المتعددة مع «أوليفيا»؛ فاتَّجهتُ بسيارتي إلى هناك. لم أكن قد تناوَلتُ طعامًا، وكان الوقت قد تجاوز منتصف النهار بساعتين أو ثلاث، فطلبت غداءً خفيفًا: هامبرجر، مع سلطة خضراء، ومشروب؛ وختمت بفنجان قهوة عربية (أو تركية، ويُسمُّونها هنا: رومانية)، وفتحتُ حزمة صحف ومجلات أقلِّبها وأطالع العناوين، إلَّا أن فكري سرعان ما شرد مع الذكريات التي استدعتها أجواء المقهى وجلساتي السابقة فيها مع «أوليفيا»، ورأيت أنني أستعيد كل كلمة نطقت بها، وكل حركة ندت عنها، وكل شاردة وواردة في اللقاءات التي ضمَّتنا، كانت هناك كاميرا مثبَّتة داخل تلافيف مخي، مفتوحة وجاهزة للتصوير، مع تركيز واضح على «أوليفيا»، واختزنت بالصوت والصورة، وبالألوان، كلَّ ما صدر عنها من قول وفعل، وأنا الآن أستعيد مشاهدتها، لا استعادةَ مَن يريد أن يرى شريطًا من الماضي القريب، ولكن استعادة الافتتان والعشق، ومحاولة أن أعيش اللحظة مرة ثانية، وألوم نفسي كيف لم أكن مُدرِكًا لكل هذا الجمال، وهذا الذوق، وهذه الرِّقَّة، وهذا السلوك الحضاري، الذي يتجلَّى جميلًا، وشفَّافًا، في كل ما يحيط بها، ووجدت نفسي أردُّ علي نفسي اللَّوَّامة، قائلًا بأنه لا يمكن أن تلتقط هذه المشاهد إلا عين عاشقة، متولِّهة، مُتبتِّلة، في محراب حبِّ هذه الربة من أرباب العزوبة والأناقة والجمال، المسمَّاة «أوليفيا»؛ ولهذا لم أكن غافلًا عن أي ذرَّة من جمالها، وإنما كنت واعيًا بها، بدليل هذا التسجيل الدقيق لكل ما بدر منها.

لأول مرة أثناء هذه الجلسة أرى وألحظ وأعرف على وجه اليقين أن ما ظننته علاقة عابرة للتسلية إزجاء الفراغ، لم تكن كذلك، وإنما هو تورُّط عاطفي كما يمكن أن تكون أقوى درجات التورط وأكثرها عمقًا، ربما إلى حدِّ أنني في هذه اللحظات أشعر بأن حياتي لا يمكن أن تستمر بدونها، وأنها سوف تصبح فراغًا مهولًا إذا خَلَت من هذه الأنثى.

نعم، أعرف أنني متزوج، وأنني أبٌ لثلاثة أطفال، يعيشون في مزرعة العائلة في تاجوراء، مع والدي ووالدتي وأخوتي، ولا أنقلهم معي في هذا العمل الخارجي؛ لكي لا أُحدِث اضطرابًا في دراسة استهلُّوها منذ أمدٍ قصير قبل سفري، فهُمَا: سنة أولى وثانية ابتدائي، وثالث في الروضة، وكان زواجي تقليديًّا، لا علاقة له بأي حب أو عواطف؛ ابنة عمٍّ كانت تعيش في ذات المزرعة، قبل أن تتمَّ قِسمَتُها بين أخوة ثلاثة بعد وفاة والدهم، وواصلت العيش في هذا القسم من ذات المزرعة، عبر سياقٍ تَوارَثه الأبناء عن الأسلاف، يضمن الاستقرار ويحفظ التقاليد، ويتيح للحياة أن تمضي في مسار ثابت داخل المزرعة، غير عابئة بالتحوُّلات الخطيرة التي تحدث خارجها، ولا تقيم اعتبارًا لقِيَم العصر التي قد تقتحم عقول وقلوب الأبناء وتجعلهم يَنشدون أسلوبًا أكثر حضارة وعَصريَّة في تأسيس العائلات وبناء المستقبل، ولا أدري مدى ما كان يعتمل في نفسي من مشاعر بين القبول والرفض، والواجب نحو العائلة، وحتى نحو نفسي، فقد استجبت لسهولة ما تريده التقاليد، وما تُقدِّمه

من عطاءٍ سَمحٍ كريم، فأنا أرى شبابًا مثلي يعانون في توفير المهر والشَّقَّة ومصاريف الزواج، بينما جاءت كلها دون عناء ولا حاجة للتفكير والاختيار، وتدبير النفقات والمصاريف، فما أهمية أن يصرخ قلبي، يريد احتياجًا، لا تستجيب له هذه التقاليد، ولعلَّ خروجي للعمل موفَدًا إلى بوخارست، بمفردي، ودون اصطحاب عائلتي، إنما كان تنازُلًا أقدِّمه للقلب الذي يصبح مُطالَبًا بتلبية احتياجاته، عارفًا أنني في المجتمعات الأجنبية الأوروبية، شرقًا وغربًا، مجتمعات التحرُّر الاجتماعي ويُسر العلاقات بين النساء والرجال؛ سأجد فرصة لإشباع هذه الحاجة التي ينوح من أجلها القلب، حتى وأنا أتأخَّر في الحصول على هذا الإشباع، الذي حُرِمتُ منه في مرحلة المراهقة، وتزوَّجتُ دون أن أجد في الزواج ما يمكن أن يُسكِت نواح الروح والقلب، فإنه لا بأس من أن أحصل علي تعويضٍ يأتي متأخِّرًا، فهو خير من حرمان يستمر مدى الحياة؛ ولهذا جئت بقلب مفتوح للمغامرة، متعطِّشٍ لاستقبال عاطفة الحب التي حُرِم منها طوال ما فات من عمره، وها أنا أستطيع أن أرى نفسي، أحني رأسي فوق النبع، أكرع من مائه الصافي، وأعبُّه دون أي إحساس بالارتواء، كأن عطشًا أزليًّا قد احتلَّ بدني، فلا يزيدني الشراب إلا عطشًا، وقد أورثني حرمان الأعوام الماضية حالة رعبٍ تجعلني أخشى أن يأتي أحد الناس يحمل عصا غليظة، ويطردني من ضفاف النبع، ويمنع عني الاقتراب منه، فهو يقع في أرض مُحرَّمة على أمثالي الاقتراب منها، فلا أملك إلا أن أصيح لماذا؟ لماذا؟ وأهتف باسم الحبيبة كأنها التعويذة السحرية التي ترفع عني الحضر، صائحًا، «أوليفيا»، «أوليفيا»، «أوليفيا». أرجوكِ، ثم أرجوكِ، ثم أرجوكِ ألَّا تتركيني، ولا تتخلَّي عني، وسأذهب خلفك أينما ذهبتِ، مُقدِّمًا أيَّة تضحية يطلبها الحب، وأي ثمن يريد أن يتقاضاه مقابل ألَّا أُحرَم من ماء هذا النبع.

بقيت في المقهى حتى أحاطت به العتمة، ولم يَعُد ممكنًا القراءة في النور الشحيح الصادر عن مصابيح المقهى. أخذت سيارتي وعدت إلى مقر إقامتي، وذهني مشغول بشيء واحد، هو: كيف أستطيع أن أحقِّق تواصُلًا مع «أوليفيا»، يقضي على هذا الإحساس بالوحشة، الذي أسلمني إليها غيابها. وفي سبيل إرضاء هذا التوق لرؤية عينيها، أرى أن لا شيء ممَّا كنت أظنه صعبًا، لا أملك القدرة على القيام به، يمكن حقًّا أن يحول دوني ودون الوصول إليها، بل صِرتُ أراه يسيرًا هَيِّنًا، فما هي صعوبة أن أقطع تذكرة سفر إلى مكان إقامتها، وحتى أن أهجر عملي وأنتقل لأقيم قريبًا منها، وأترك الطفلتين وأمهما في ليبيا إلى عناية الأهل وكرم المزرعة، كل هذا صار يبدو أمامي سهلًا يسيرًا، بعد أن أصبَحتُ أراها معادِلًا للحياة نفسها.

بعد لحظات قليلة من وصولي إلى مكتبي في مقر السفارة، وجدت رئيس البعثة يقتحم مكتبي، ويرمي بملف أمامي، ويجلس قائلًا، دون إبداء سلام ولا تحية:

– إنها ورطة أنتَ صاحبها، وأنت المؤلف الذي أجاد تأليفها، وعليك الآن يا صاحب المبادرات التاريخية أن تُظهِر براعتك في اجتراح حلٍّ يُخرِجنا من هذه الورطة، والآن، حالًا، أرجوكَ.

أخذت أقلِّب أوراق الملف، الذي كان يحتوي ما تمَّ من مراسلات حول تلك الفكرة التي اقترحت أن نتَّخِذَها مدخلًا للتواصل مع ابنة الفيلسوف، وهي فكرة إقامة موسم ثقافي ليبي في رومانيا، وجاءت زيارة العقيد فأضفت علي الفكرة قوَّةً

وزخمًا، وتحمَّس الجانب الروماني لها، كسبيل لإظهار اهتمام الدولة بليبيا، والاحتفاء بفنونها وثقافتها، وجاءت ردودٌ واقتراحات بأماكن وقاعات، وجولة بهذه المناشط الثقافية الليبية، خارج العاصمة، كما جاءت بعد ذلك اقتراحات بمواعيد حجز القاعات ودور العرض، وكانت كل المكاتبات تُحال إلى ليبيا، بأمل أن ينتقل المشروع من مجرد فكرة في الهواء، إلى مستوى التصورات العملية القابلة للتنفيذ فوق الأرض. إلا أن ليبيا لا تجيب، ولا تلقى كلُّ المكاتبات الخاصة بهذا الموضوع غير الصمت والإهمال، ويبدو أن تواترَ الإلحاح من الجانب الروماني دفع القائم بالأعمال أن يحصل على إجابة من المسؤول الإداري في طرابلس، عن طريق الهاتف، ففاجأه هذا المسؤول قائلًا بأنه لا يوجد في ملفَّاته سوابق للموضوع تفيد بأي اقتراح ذهب من ليبيا بإقامة هذا الأسبوع الثقافي، ولا جهة ليبية بادَرَت باقتراحه، ويتساءل عن كيف تريد الجهات الرومانية تحميلهم مسؤولية طلب إقامة أسبوع ثقافي لا تعرف عنه الدولة شيئًا، ويطلب إن كانت هناك حقًّا مراسلة من ليبيا تفيد بذلك، أن نبعث له بصورة منها.

– ماذا تريدني أن أفعل؟

– أن تجد حلًّا؛ فهم لا يجيبون لأنهم يسألون من أين جاءت الفكرة؟ فنحن في هذا المكتب الشعبي لسنا جهة إصدار قرارات، فقرار إقامة موسم ثقافي يأتي من ليبيا، وتأتي معه الفعاليات والمناشط والميزانيات، لا أن نتولى نحن إصدار القرار ونطالب ليبيا بالتنفيذ.

– ولكن من حَقِّنا أن نقترح.

– نعم، من حقِّنا أن نقترح، وننتظر الموافقة على الاقتراح، وهو ما لم نفعله، وانتقلنا دون بادرة من ليبيا إلى مخاطبة الجهات المسؤولة الرومانية نطلب إقامة الأسبوع. فكيف ترى الحل الآن؟

– لن نجد حلًّا عن طريق المكاتبات. ويجب أن يذهب أحدنا لشرح الموضوع الذي تريد رومانيا أن يكون مناسبةً للاحتفال بليبيا، وروح التعاون الصادق، التي تجمع بين الشعبين.

– تعلم أن رئيس البعثة لا يَحِقُّ له مغادرة البعثة، إلَّا بقرار من الوزير، والأسهل أن تذهب أنتَ.

– لا مانع.

– وتَعلَم أنه لا صلاحية لإرسالك على حساب المكتب، وهو أمرٌ يقتضي مكاتبات وأسباب لا تتمُّ الموافقة إلا عند وجود سبب أكثر وجاهة من هذا السبب؛ فهل تستطيع أن تذهب على حسابك باعتبارك في إجازة طارئة أمنحها لك.

– إنه غُرمٌ لا موجب له، وسيكون إهمال الموضوع أفضلَ من الانشغال به. وعمومًا، اترُكْ لي الملفَّ وسأوافيك بالرأي الذي أصل إليه بعد أن أفرغ من النظر فيه.

لاح لي وأنا أقلِّب الأوراق بعد خروج القائم بالأعمال اسم السيدة «كارمن»، باعتبارها واحدة من أهل المسؤولية في هذا المجال، فوضَعتُ في ذهني فكرة الاتصال بها، وتحديد موعد للقائها، ليس بسبب الأسبوع الثقافي، فهو ليس إلَّا ذريعة لاستخدامها في أغراض أخرى، ولا يهمُّني أن تموت فكرة الأسبوع الثقافي، وتذهب إلى الجحيم، فلن يضيرني ذلك في شيء، ما يهمني هو أن ألتقي بها لأعرف ما غمض عني من أحداث رومانية؛ فهي بالتأكيد قادرة على أن تُلقي مزيدًا من الضوء على أحداث خطيرة شهدتها البلاد، وتتصل من بعيد أو قريب بصديقتها «أوليفيا» ووالدها. مرة أخرى سيكون الأسبوع الثقافي ذريعتي لإجراء هذا الاتصال. ودون إبطاءٍ سألت فتاة البدَّالة أن تطلبها لي، لأخبرها –تمويهًا وتورية– أن فكرة الأسبوع الثقافي تتطوَّر بسرعة، وتصل قريبًا إلى مرحلة التنفيذ، وأنني أطمع في أن أتشرَّف بلقاء معها، نواصل أثناءه الحديث الذي بدأناه منذ بضعة أسابيع في مقهى «هيراسترو». واستجابت لأن نلتقي في نفس المكان، ولكن ليس يوم الأحد، وإنما الاثنين صباحًا، وعندما التقينا قالت لي إنها أيام صعبة، وتريد لهذا اللقاء أن يأتي في سياق عملها الوظيفي، الذي تقتطع له جزءًا من الوقت والعمل، وحرصت على توثيقه مع رئيسها في المكتب، وأخذت إذنًا بأنها في مَهمَّة لمقابلتي، وليس مثل اللقاء الأول؛ دخَلَت فيه أواصر الصداقة بالآنسة «أوليفيا»، وقالت إنها ترتبط بصداقة حميمة معها، وتأسف لما حصل لها، وتأسف أكثر لوالدها الذي كان أستاذًا لها ولأبناء جيلها، ولا تستطيع أن تتصوَّر ماذا حدث ليصل الأمر به إلى هذه القطيعة مع وطنه وأهله وحزبه، وقالت إن ولاءها للحزب يأتي قبل ولائها للأشخاص أو عوامل الصداقة، وأن الزعيم «شاوشيسكو» أصبح تجسيدًا لروح الحزب وروح الوطن، وروح النظرية الاشتراكية الماركسية، ولا تتصوَّر أن أحدًا من أهل الولاء الحزبي يمكن أن يقع في خلاف أو خصومة مع هذا الزعيم، وأن كل أعضاء الحزب وكوادره ينظرون إليه باعتباره «زيوس»، كبير الآلهة، أو «جوبيتير»، كما في الميثولوجيا الرومانية؛ ولهذا فهو دائمًا الرفيق «شاوشيسكو»، ولا أحد يذكر أن للزعيم أبًا أو أمًّا، ولا يأتي في تاريخه الشخصي على ذِكرِهما، لتأكيد فكرة يحرص الحزبيون على غَرسها في أنفسهم، وأنفس أبناء الشعب، هي أنه جاء من السماء، وأنه هِبةُ هذه السماء لهذه البلاد، وأنه من سلالة الآلهة وابن النجوم والكواكب التي نراها في قبَّة الكون، فكيف لإنسانة مثلها تَربَّت هذه التربية الحزبية، أن تفهم هذا الخلاف الذي يتكلم عنه السيد «فلوريان» أو ابنته «أوليفيا»، أو غيرهما من البشر الفانين، إنه خلاف مع الزعيم، إن حال هؤلاء، مثل حال إبليس في الميثولوجيا الدينية، عندما أمره الإله بأن يخضع وأن يصلي، فرفض، فهل نأتي اليوم ونقول إن هذا الرفض كان مُبرَّرًا، وأن إبليس عنده حق في رفضه السجود إلى كتلة من طين، ونحكم على تصرُّفه بموازين ومقاييس من خارج الموازين والمقاييس التي تحتكم إليها الميثولوجيا الدينية، هكذا هو الحال هنا، ليحكم من شاء أن يحكم عليه خارج سياق الحزب الذي نؤمن به، وندين له بالولاء، فعبر سياقنا وأيديولوجيتنا لا يكون مثل هذا التصرُّف إلا كُفْرًا مثل كُفْر إبليس بتعليمات خالق الكون.

كان هذا الكلام استهلالًا لا بُدَّ من قوله؛ تحوُّطًا وخوفًا من أن تكون شياطين السيكوريتات تلاحق وتُصوِّر وتقوم بتسجيل ما تقول، وتعويذه إبليسيَّة تحمي بها نفسها وتضمن بها الأمان، ولا أمان في مثل هذا السياق، غير المزايدة والمبالغة إلى حدِّ وضع الزعيم في مرتبة الآلهة، وهو المقام الذي لا مقام فوقه، والذي يعطي عنها صورة الوفاء والالتزام الذي لا يلحقه الشك. انتقلت بعده مباشرة إلى الحديث عن الأسبوع الثقافي، الذي رأته عملًا هامًّا على طريق تعزيز العلاقات بين

البلدين، وكنت أستمع إليها وفي ذهني شيء آخر، فقد أدركت من خلال تسبيحة المديح الإلهي التي سمعتها في زعيم البلاد، أن لا مجال لأن أعرف منها أيَّة تفاصيل عمَّا يحدث في كواليس الحكم، ولا شيء يمكن أن أستفيده منها عن «أوليفيا» أو عن والدها؛ لأنها تناصر مناصرة الرعب والعمى، أي إجراء يحدث ضدهما، فلا تترك مساحة للنقاش والآخذ والرد، وانتقامًا منها؛ اتَّخذتُ قرارًا بأن استخدم معها أسلوب الصدمات الكهربائية، فقاطَعتُ حديثها عن الأسبوع الثقافي قائلًا:

– هل لديكِ رسالة تريدين إبلاغها إلى صديقتك «أوليفيا»؟

بدا الارتجاف واضحًا على كل جسمها، وأطلَّت من عينيها نظرة رعب، وهي تسألني في صوت مكتوم يشبه الفحيح، عامرٍ بالاستنكار والاستغراب:

– هل أنتَ على اتصال بها؟

– لستُ على اتِّصال بها، إنما على اتِّصال بصحفي موجود في بون، قال إنه تحصَّل على تصريح بحضور مؤتمر صحفي يعقده السيد «فلوريان بوبيسكو»، وتحضره ابنته لتقوم بمَهمَّة الترجمة إلى اللغة الإنجليزية؛ بسبب تفوُّق معرفتها بها على معرفة والدها.

– حمدًا لله أنَّكَ لست على اتِّصال بها؛ لأنك ستضع نفسك في مشاكل لن يحميك منها وضعك الديبلوماسي.

– إذًا فأنتِ لا تريدين أي اتصال معها.

– ليست المسألة أريد أو لا أريد. إنها، وكل أفراد أسرة السيد «فلوريان»، مُتَّهمون بالخيانة العظمى، وأي اتصال بهم يضع صاحب الاتصال في دائرة الاتهام أيضًا.

قلتُ؛ لمزيد من الاستفزاز والابتزاز:

–إنه الخوف إذًا؟

– ليس الخوف، ألا تفهم؟ إنه احترام القانون، والولاء للوطن قبل الأشخاص. هل تسمح لي بالذهاب؟

ربما الولاء المبالَغ فيه للزعيم إلى حدِّ التأليه، هو الذي جعلني أبالغ في استفزازها، وأرى فيها نماذج تنتشر في جمهوريات الرعب وحكومات الزعيم الأوحد، كما في ليبيا أيضًا، ممَّن يثيرون في نفسي الاشمئزاز والمرض إلى حدِّ الغثيان، فغامرتُ بدفعها إلى قطع اللقاء والنهوض في حالة من الرعب والجنون. والحقيقة أنني لم أقُل جملتي عن رسالة أنقلها إلى «أوليفيا»، إلَّا لأنني فعلًا صِرتُ على يقين من ضرورة أن أذهب للقائها في بون، وكنت أطمع أن أجد السيدة «كارمن»، تطوي في قلبي سرًّا من الأسرار تصارحني به عن صديقتها يمكن أن يضيء جانبًا من صراعها وصراع والدها مع الدولة، أو معلومة

أنقلها لها، تفيدها في أرض الغربة والمنفى، ولكن حجم الرعب كان أكبر من كل وشائج الود والصداقة بينها وبين الفتاة الهاربة مع والدها من جحيم الاشتراكية الماركسية، التي تراها هذه السيدة نعيمًا أرضيًّا.

نعم، سأذهب إلى لقاء «أوليفيا»، حتى لو حال هذا اللقاء بيني وبين العودة إلى عملي في بوخارست، وجعلني، إذا ما تمَّ رصده من أجناد سيكوريتات، شخصيَّةً غير مرغوب فيها، مطرودًا من ربوع العاصمة الرومانية. سأذهب إلى هذا اللقاء، ولكن لا بُدَّ قبل أن أذهب أن أعرف لها عنوانًا، أو هاتفًا، أو أنجح في تأمين أية وسيلة من وسائل الاتصال لضمان أن ألتقي بها، فلا أذهب أبدِّد وقتي في الفنادق، أنتظر فرصة للقاء مستحيل.

نقلت لرئيس البعثة خبر لقائي بالسيدة «كارمن»، وطمأنته أنها تتفهَّم ظروف المكتب إذا لم نستطع تنفيذ الأسبوع الثقافي في مواعيده المقترحة، وسألته، وأنا أطلب قهوة الصباح في مكتبه، أن يدع أمر هذا الأسبوع الثقافي يمضي في طريقه الطبيعي، فالبعثة هنا ليست وزارة الثقافة في ليبيا أو الخارجية أو المالية، وإن لم تتحرَّك تلك الوزارات، فلن تستطيع البعثة أن تفعل شيئًا باعتبارها أداة تنفيذ وتمثيل. وأضفت بأنه إذا رأيت ظروفي تسمح بأخذ إجازة طارئة فسوف أخبره بذلك؛ لتحريك الموضوع هناك. وعندما رنَّ التليفون في مكتبه وقالت له السكرتيرة إنها مكالمة من قسم البروتوكول، أرَدتُ أن أنهض، إلَّا أنه أشار لي أن أبقى وأكمل قهوتي التي باشَرتُ للتوِّ ارتشافها، وأنهى المكالمة قائلًا:

– أمر غريب أن يطلب البروتوكول حضورك إلى مكتبهم؛ لأن العادة هي استدعاء رئيس البعثة.

وعندما سألته عن السبب. قال إنه ضابط قسم التحقيقات يريد الاستفسار عن شيء ما. فلعل الأفضل أن تذهب، وأن تلتقي به في وزارة الخارجية، قسم البروتوكول، بدل أن يبحث عن طريقة لجَرِّكَ إلى مكتبه في الأمن، دون علم الخارجية.

– ألم يقُل شيئًا عن سبب الاستدعاء؟

– إنه لا يعلم، قد يكون مجرَّد إفادة عن حادث مرور، كما قال، ليس هناك ما تخافه. اذهب، واعرف ما يريدون، وإذا تطلَّب الأمر وجود المحامي، فسيكون جاهزًا في خدمتك، وإذا احتاج إلى تصعيد إلى سلطة أعلى، فلن نفشل في إيصاله إلى الرئيس نفسه.

– متى؟

– إنه في انتظارك غدًا، عند العاشرة صباحًا.

ورأيتُ ألَّا أذهب بسيارتي الخاصة، وإنما بسيارة السفارة، ومعي السائق، الذي وصل إلى إقامتي الفندقية قبل الموعد بوقتٍ كافٍ؛ لضمان أن أكون الساعة العاشرة عند قسم البروتوكول، وقدَّم لي الموظف المسؤول ضابط التحقيق العقيد موللر، من السيكوريتات، الذي صافحني مُرحِّبًا، ومُعتَذِرًا، لأن في عهدته ملفًّا يحتاج إلى استكمال بعض البيانات،

وعرفت، بعد الفراغ من المقدِّمات، أن الملف ليس إلا مَلفَّ السيد «فلوريان بوبيسكو»، وسألته، باندهاشٍ، عن علاقتي بهذا الملف.

– لقد عرفتَ السيد «بوبيسكو» أثناء إقامته في المصحة، وجلستَ تتحدَّث معه عدَّة مرَّات، أليس كذلك؟

– نعم لقاء الصُّدفة، أثناء إقامتي في ذات المصحَّة.

– وعرفت كذلك ابنته الآنسة «أوليفيا»، وقابلتها عدَّة مرَّات في مقهى «هيراسترو»؟

– نعم كان لقاء في إطار العمل، وحَضَرته مُمثِّلة الحزب المسؤولة عن العلاقات الثقافية.

– نعم، هذا صحيح. ولكن دعنا نبدأ من نقطةٍ أعلى قليلًا؛ لقاء رئيس دولتكم مع السيد «بوبيسكو»، في المصحة.

– وهذا أيضًا تمَّ تحت سمع وبصر العالم، ونقلت الوكالات خبرًا عنه.

– نعم، نحن نريد ما خلف الأخبار والإعلام. هل تعلم أن رئيسكم عرض على فيلسوف الحزب –سابقًا– أن ينظر في نظريَّته المُسمَّاة «النظرية العالمية الثالثة»، راجيًا منه أن يتبنَّاها ويُروِّج لها؟

– تعلم إن رئيس دولتنا يقدِّم نفسه بصفتين اثنتين: صفته الأولى: كمسؤول أول في دولة الثورة، والثانية: كصاحب نظرية فكرية سياسية، وفي هذا الإطار كان اللقاء بينه وبين صاحب الفكر والتنظير الرسمي في رومانيا السيد «بوبيسكو».

– ليس هذا هو المهم، ولكن هل تعلم إن كانت دولتكم عرَضَت أموالًا على السيد «بوبيسكو»؟

– لو حدث ذلك فلا أعتقد أنه سيغيب عن أعينكم وأعين كاميراتكم وتسجيلاتكم.

– طبعًا لم يحدث هذا تحت أعين الكاميرات، وإنما في الخفاء، عن طريق وسيط يعرف الرجل ويعرف ابنته.

– هل تقصد أنني أنا هذا الوسيط؟

– نحن نسأل، هل أنتَ ذلك الرجل؟ وأرجوك ألَّا تجد حرجًا في الإفصاح عمَّا تعرفه، ودون خوف، فأنت من ناحية تملك حصانة دبلوماسية، ومن ناحية أخرى فإن لدولتكم اعتبارًا يجعل مَهمَا حدث فلن يؤثِّر في العلاقة، ولكن نريد هذه المعلومات للسِّجلَّات، ولاستكمال الملف، ليس إلَّا.

– لم أكن وسيطًا بين دولتي وأسرة السيد «فلوريان»، ولم أنقل له نقودًا، ولم ألتَقِ به إطلاقًا لقاءً رسميًّا.

– هل لا زِلتَ على اتصال بالآنسة «أوليفيا»، ابنة السيد «بوبيسكو»، بعد هروبها مع والدها؟

– لست على اتِّصال بها، وليس هناك ما يوجب مثل هذا الاتصال.

– ماذا تقول عن المكالمة التي تلقَّيتها منها وهي في ألمانيا؟

– لم يحدث أن تلقَّيتُ منها أية مكالمة.

– أو رسالة مكتوبة.

– لا رسالة مكتوبة ولا مسموعة.

– هل لديك أية أقوال أخرى؟

– نعم، إنني لم أتوقَّع أن أخضع لتحقيق واتِّهام كهذا، ولا أراه يتَّفِق مع عُمق الصداقة بين بلدَيْنا، وسأجد نفسي مُرغَمًا على أن أكتب تقريرًا إلى دولتي بما حدث، ولا ذنب لي إذا انعكس سلبًا على مستوى العلاقة بين البلدين.

نهض موظف البروتوكول واقفًا، وتبعه العقيد «موللر»، ونهضتُ أتنفَّس الصُّعَداء؛ لوصول المقابلة إلى ختامها، عائدًا إلى المكتب، أُحرِّر مُذكِّرةً بما حدث.

لعبتُ لعبًا جميلًا وذكيًّا في المذكرة المرفوعة إلى وزير الخارجية، قائلًا إنني لم أكن المقصود بهذا الاستدعاء أو التحقيق، ولكنه السيد العقيد نفسه؛ لأنني أعتقد –جازمًا– أن الأجهزة الأمنية في الدولة الرومانية، تريد أن تضع اللوم على فرار الفيلسوف على السيد العقيد، الذي استطاع عند لقائه بالفيلسوف، وإهدائه كتابه، وإجراء حوار معه– ممارسة تأثير قوي عليه، هزَّ قناعاته، وزرع داخل نفسه الشك في جدوى النظرية التي عاش خادمًا لها طوال عمره، ولاح له ضوء الحقيقة من خلال ما قرأ وسمع من أفكار جديدة، كان معصوبَ العينين عن رؤيتها، ففتحتهما على هذا النور الذي قاده لأن يرى تلك القوالب الجامدة، للفكر الشيوعي، مقابل توهُّج وإنسانية وجمال الأفكار التي تلقَّاها من سيادة العقيد؛ فهرب من أقفاصه وسجونه، ليلتقي برحابة وبراح الفكر الذي لا تحدُّه الأُطُر الجامدة، وإنما ينبع من حاجة الإنسان إلى الحرية، وشوقه لها، رغبته في تحقيق الانعتاق النهائي من قبضة الحاجة والعَوَز والكبت والقمع والقهر، وأغلال الحكم التقليدي وسطوته وجبروته. وطبعًا كلمة «الانعتاق النهائي» كانت اقتباسًا حرفيًّا من كتاب العقيد الليبي، وسيالاته الفكرية المريضة وهلوساته التي لا ترقى لأن تكون فكرًا، ولا ترتبط بأي منطق عقلي، ولكن غرضٌ واحدٌ يسوقني إلى قول هذا الكلام المعسول؛ هو أن أفلح في نحت كوَّة في الجدار أتسلَّل منها إلى دفء العوالم الجميلة، الكامنة في عينَيْ «أوليفيا»، وعواطف الحب الساخنة التي أتوق إلى أن ألتقي بها في أحضانها. وأرى أن وسيلتي إلى تحقيق ذلك هو «مجنون ليبيا»، كما يسمِّيه الإعلام المصري والأمريكي، ولا أحد غيره.

لم يَمضِ غير أسبوع واحد على إرسال المذكرة، حتى جاء الرد على شكل استدعاء عاجل للحضور إلى ليبيا، لألتقي في اليوم التالي لوصولي بوزير الخارجية، أو الأخ الأمين كما يسمُّونه، الذي نقل لي إعجابه بما قُمتُ به من عمل في رومانيا، وأخبرني أنه رفع التقرير الذي كتبته إلى الأخ العقيد، وكان شديدَ الاهتمام به، وهو يذكر اللقاء الذي حصل بينه وبين فيلسوف الحزب الشيوعي الروماني، الهارب الآن في ألمانيا، السيد «فلوريان بوبيسكو»، وهو على اتِّفاق مع ما قلته من تأثُّر الفيلسوف الروماني بالنظرية العالمية الثالثة، عندما قرأ «الكتاب الأخضر»، وعندما التقى به لاحظ عليه ذلك التأثير وذلك

الإعجاب، إلَّا أن الرجل كان واقعًا تحت قبضة الحزب والحكومة والرئيس، فلم يكن حرًّا في التعبير عن حقيقة ما يشعر به، وامتنع عن إجراء المناظرة مع الأخ العقيد؛ لأنه يعرف أنه لن يستطيع الدفاع عن نظرية حزبه أمام وهج وتألُّق الفكر الجديد الذي أشرق من عمق الصحراء الليبية بزخم الحضارات الإنسانية عبر العصور. ومبعوث هذه الصحراء، الذي يحمل في كل حرفٍ كتبَه بصمات وملامح هذا التراث الحضاري الإنساني العظيم.

وظلَّ الوزير يتكلم وأنا في تمام الإدراك أنه لا يخاطبني، وإنما يخاطب جهاز التسجيل الموجود في كل مكتب من مكاتب الدولة، بما في ذلك مكاتب الوزراء، ليسمع الأخ العقيد، عندما يريد، ما يدور في مكاتب المسؤولين، فالوزير هنا يخاطبه هو، حتى وإن كنتُ أنا الجالس أمامه في هيئة الاستماع، وهو كلام كاذب، زائف، ولكنه يصبُّ في مصلحتي، وأقول له في خاطري؛ استعجالًا لمعرفة تفاصيل هذه المصلحة: «أرجوك، هاتِ من الآخر، كما يقولون؛ أريد أن أسمع النتيجة، المحصِّلة، القرار؛ فهو فعلًا ما أتوق لسماعه، لا تكرارًا لكلمات الإنشاء التي ملأتُ بها التقرير»، وكنتُ فعلًا في منتهي الانتشاء وأنا أسمع الوزير يقول:

– ولهذا فقد رأى الأخ العقيد تكليفَكَ بمَهمَّة، أنتَ أصلَحُ مَن يقوم بها، وهي الاتصال بالسيد «فلوريان» في ألمانيا، وأن تحمل له تحيات قائد الثورة الليبية، وتهنئته لأنه كان شجاعًا، وثار على السلاسل والأغلال التي يريد الحزب الشيوعي ربطه بها، ومرحبًا به في فضاء الحرية التي يمنحها الفكر الجماهيري لمعتنقيه، وتتيحها له النظرية العالمية الثالثة بآفاقها الإنسانية، ورؤاها العصرية التي تكشف مثالب وسلبيات النظريات الأخرى السائدة في عالم الأمس، باعتبارها نظرية الغد، التي ستتداعى البشرية لاعتناقها، وستجد فيها الحلول النهائية لمشاكلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وستكون أفكاره تعميقًا وإثراء وإغناء لهذه النظرية بإذن الله، فليتفضَّل باختيار أي بلد يريد الحياة فيه، وتحقيق كل الضمانات التي تكفُل له السلامة والأمان، وإنشاء مركز لنشر هذا الفكر الحضاري الإنساني والترويج له في العالم، وستتولَّى الجماهيرية تمويل هذا المركز مهما كان الرقم الذي تصل إليه هذه الميزانية كبيرًا، وتغطية كافة ما يتَّصِل بنفقات الباحثين والدارسين والمدعوِّين لعقد المؤتمرات والمنتديات، ونشر الكتب والمطبوعات، بكل ما يقتضيه العمل من لغات، وكل ما هو مطلوب منه أن يضع الميزانية التي يريد، ويرسم خريطة للعمل، ويضع نظامًا أساسيًّا له، وحجم ما يجب استقطابه من كوادر وموارد بشرية، وستكون هناك ميزانية مفتوحة، تسمح بإقامة فروع للمركز في شتَّى عواصم العالم، وسيجد تحت إمرته كل الإمكانات التي تساعده في ترويج هذا الفكر، ونشره في قارَّات العالم الخمس.

وأضاف قائلًا إنه سيتمُّ تزويدي بتذاكر سفر إلى العاصمة الألمانية، وعُهدَة مالية للمصاريف النثرية، وسأجد السفارة هناك في استقبالي في المطار، وإتمام الحجز في الفندق، والبقاء ضيفًا عليها خلال المدة التي تحتاجها المهمة، وسوف يسعى السفير لتأمين لقاء مع الفيلسوف الهارب، وتقديم هذا العرض له، متحرِّيًا أقصى قدر من السرية، وعبَّر الوزير عن ثقته في أن الفيلسوف سوف يطمئنُّ لإرسالي في هذه المهمة؛ بسبب سابق معرفتي به، ومعرفتي بابنته التي تتولَّى القيام بمهمة

السكرتيرة والمترجمة له، ويريد أن يكون اللقاء في أضيق الحدود، ودون حضور أطراف أخرى؛ لأن الأخ العقيد يريد أن يضمن لهذا الاتصال بالفيلسوف أكبر قَدرٍ من السرية، وألّا تتسرَّب عنه أيَّة نأمة إلى أيَّة وسيلة إعلامية.

كان حجم الفرح كبيرًا، أحتاج إلى براحٍ وفضاءات لاستيعابه، ليتني كنتُ في بوخارست، لأذهب بهذا الفرح إلى المكان الأنسب والأفضل للتعبير عنه: في حديقة «هيراسترو»، والمقهى الذي شهد لقاءاتي مع «أوليفيا»؛ لأحتفي بهذه المهمة، وأبوح بسرِّها لماء البحيرة، وبَجَعِها، وبطِّها، والنوارس، واللقالق التي تحوم فوقها، وإلى الأعشاب التي تغطي ضفافها، الأشجار التي تتزاحم فوق أرض الحديقة التي تحيط بها، والفراشات التي تتقافز بين الورود. نعم، كانت صُدفَةً طيِّبةً أن يكون مكتب الوزير قريبًا من شاطئ البحر، لأذهب بفرحتي إلى هذا الشاطئ، وأتمشّى إلى نادي القوارب، فأستأجر قاربًا، وهو ما فعلته، حيث وجدتُ النُّوتيَّ يريد انتظار أن تكتمل حمولة القارب بأربعة زبائن أخرى، يشتركون في دفع إيجاره، فسألته أن ينطلق بي بمفردي، متكفِّلًا بدفع كامل الأجر، مصطحبًا معي من الأكل والشراب ما يكفي وجبة لاثنين: أنا وهو، وما إن ابتعدنا قليلًا عن الشاطئ حتى أطلقت عقيرتي ببعض الأغاني الشعبية، من محفوظاتي، التي رأيتها تعبِّر عن الموقف، مُستهلًّا وصلة الطرب بأغنية تقول:

«يا غالية يا حب قلبي كله

يا شمس بانت والسحاب اتجلَّى»(*)...

شاعرًا حقًّا وكأن سحابة عكرت صفاء العلاقة، وزرعت مساحة سوداء في بهاء سمائها الزرقاء، وإن هذه السحابة تتراجع الآن، لتتيح لي أن أنطلق بأجنحة الحب، عابرًا الأفق لعناقها، وأرى الطريق، بعد لقائي بالوزير، والبشارة التي قدمها لي، يظهر أمامي سالكًا، للوصول إليها، وأجد أن إمكانات الدولة نفسها، بكل جبروتها وقوتها، مسخرة لتسهيل هذا اللقاء، الذي أذهب إليه مشمولًا بالغطاء الذهبي الذي يعرضه العقيد الليبي على والدها. لست مَعنيًّا بالعرض، ولا بالفكرة التي تضمَّنها العرض، ولا بالغلاف المالي له. لا يعنيني غير شيء واحد، لا يزاحمه أي شيء آخر، وهو الوصول إلى قلب «أوليفيا»، وتأمين مكان دافئ في ركنٍ من هذا القلب.

كنت قد ذهبت إلى موعد الوزير وفي ذهني أن أفتح معه موضوع الأسبوع الثقافي، بعد الفراغ من سماع ما يريده مني، وما استدعاني إلى ليبيا من أجله، كما وعَدتُ بذلك القائم بالأعمال، ولكن فرحة البشارة التي تلقَّيتها منه أنستني الموضوع، ولا أملك الآن فرصة أخرى لكي أراه، ولست نادمًا في الحقيقة على هذا النسيان؛ فلا حاجة بي لأن أشغل نفسي بهذا الموضوع، وتركه منسيًّا إلى أن يحين وقته إذا حان، ولأعُدْ إلى «أوليفيا» وعوالمها وأحلامي بأن أصِلَ معها إلى تحقيق أقصى ما يسعى العشاق لتحقيقه من أحلام الوصال، والارتباط الأبدي.

تذكَّرتُ رحلتي معها منذ أسابيع مضت في قاربٍ يتهادى فوق مياه الدانوب، وهي بجواري، ورغم أنه قارب يحمل أناسًا آخرين، لأنها رأت أنه لن يكون تصرُّفًا حكيمًا أن نأخذ قاربًا خاصًّا بنا، أثناء لقاء جعلنا ذريعته العمل، وتبادل

الآراء بخصوصه، ولكنه قارب صغير يقدِّم وجبةً من السمك المشوي لعدد من الركاب، أغلبهم من السُّوَّاح، ينشغلون بأنفسهم وغنائهم وأكلهم، في حين كان عددٌ من العُشَّاق ينشغلون بحبهم، وجاءت عتمة الغروب فأسدلَت ستارًا رماديًّا شفَّافًا حولنا، ويعطينا إحساسًا بالخصوصية، عندما يتدلَّى فائض من ستار العتمة بيننا وبين جيراننا في القارب، ليهنأ كل عاشق بعناق عشيقته وكأنه في خلوة معها، يغمرنا شعور مبهج، بأن الكون يتواطأ معنا، ويقدم غطاء الأمان والحماية لحبنا، ورغم أنني لم أستطع أن أقترب منها اقترابًا حميمًا يصل إلى حدِّ العناق والتقبيل، إلا أنني كنت ملاصقًا لها، أفصح لها عن مشاعر الميل العميق التي أحملها لها، وكنت مكتفيًا بمثل هذا التعبير وهذا الإحساس، مشمولًا بذلك الإشعاع المبهج الذي يخترق به الحب ستار العتمة، وينسكب دافئًا عبر أوردة الجسم.

هل أقول الآن، ليتها كانت معي هذه اللحظة، لأستعيد معها تلك اللحظات، تلفحنا أنسام بحرٍ رطبة، وسط قيلولة هذا النهار، ونستمتع بعزلتنا عن العالم وسط هذه المدى الأزرق اللا متناهي، ولماذا قلت في نفسي أحصر نفسي في أقفاص التمنِّي المستحيلة، لماذا لا أستخدم رخصة الخيال، وأفرض سُلطتَه على الواقع، وأجعلها تحضر هنا حالًا، لتجلس بجواري وسط هذا القارب، وصالونه الجميل الصغير، جسمها يلتصق بجسمي، وأنفاسها تختلط بأنفاسي، وسأملك خلال هذا اللقاء الذي يحدث هنا في مدينتي لا مدينتها، وفي بحر طرابلس لا دانوب بلادها، اليد العليا على المشهد، أستطيع أن أدير دفَّة اللقاء في الاتجاه الذي أريد وأشتهي، بل وأملك حق أن أفرض عليها إرادتي وأجعلها تستجيب لأية نزوة من نزواتي؛ فأنا هنا صاحب اللحظة وسيدها، بل وخالق هذه اللحظة وصانعها، ألست أنا الذي أُصدِر الأمر بأن تأتي فأتت استجابة لإرادتي؟ تقدِّم فروض الطاعة والولاء، فلأغترِفْ من حبها بما يروي عطشي، دون حرجٍ ولا وَجَل، لأترك نيران أنوثتها تحرقني، وتبعث لهب الإثارة في جسدي، وأصعد إلى ذُرى النشوة الحسية معها، آخذها في حضني، أهصر قدَّها، وألثم فمها، وأفعل كل ما لم أستطع فعله في المرات السابقة، حين كانت هي التي تمسك بزمام الأمور لا أنا.

أعطيتُ نفسي مهلةَ يومين أقضيهما مع الأسرة، وألتقي فيهما ببعض الأصدقاء، متحرِّرًا من أي التزام رسمي، قبل أن أعاود الرحيل شمالًا، قاصدًا هذه المرة عاصمة ألمانيا الغربية، لأجد مندوب السفارة في انتظاري، باعتباري ضيفًا يتمتَّع بإقامة مفتوحة في فندق من فنادق الدرجة الأولى، هو فندق «كيمبنسكي»، وتَصادَف أن كان وصولي يوم الجمعة، فأمامي يومي عطلة الأسبوع، لن أفعل فيهما شيئًا إلَّا الاستمتاع بالراحة والفراغ، والإلمام بالمشهد السياسي عبر قراءة الصحف ومشاهدة التليفزيون، ولقاء بعض الأصدقاء المقيمين في العاصمة الألمانية، وكان أحدهم زميلًا وصديقًا يعمل في السفارة اسمه محمود، جاء إلى الفندق للترحيب بي، واضعًا نفسه وسيارته في خدمتي، فيما إذا كنت أرغب في أن أتجوَّل في العاصمة وضواحيها، والاطلاع على معالمها السياحية، فقلتُ له إن الأولوية للمَهمَّة التي أوفِدتُ من أجلها، فكل ما يتصل بالسياحة والضيافة مؤجَّل، حتى أرى أوَّلًا أين سأضع قدمي، على درب هذه المهمة العويصة، وكان هو وبعض ديبلوماسيي السفارة على عِلمٍ بما جئت من أجله، ويتوقَّع أن تستغرق المهمة عدة أشهر قبل أن تظهر النتائج، وأن لديهم أسئلة يريدون في السفارة أن أقدِّم إجابة عنها، لأنهم لا يملكون توجيهًا بتفاصيل المهمة، وأول هذه الأسئلة: هل هناك مانع أو تحفُّظ من أن يكون الاتصال بالفيلسوف الروماني، اللاجئ سياسيًّا إلى ألمانيا، عبر القنوات الرسمية الألمانية؟ والسؤال الثاني: هو أن المسؤولين في

هذه القنوات يريدون بالضرورة معرفة سبب الاتصال، وطبيعته؟ إذا تمَّ الاتصال عن طريقهم، فماذا يجب أن نقول لهم حول السبب؟ أما إذا كانت المهمة ذات طبيعة سرية جدًّا، لا يجب أن تتم عن طريق القنوات الرسمية الألمانية، ولا إعطائهم، معلومات عن طبيعتها وأسبابها، فما هو التَّصوُّر الموجود لتحقيق هذا الاتصال، وعن أي طريق؟ وهل هو أمر متروك لي شخصيًّا؛ بالنظر إلى العلاقة الخاصة التي تربطني بالسيد «فلوريان» وأسرته؟ لتدبير طريقة الاتصال ووسيلته، ويضيف صديقي محمود قائلًا بأنه ثمة أسئلة جديدة ستتوالد من إجابتي على الأسئلة الأولى، وهو يقول لي ذلك منذ الآن، لكي أعطيها ما تستحق من تفكير وتحضير؛ باعتباره ليس هو صاحب الشأن في تلقِّي الإجابة على هذه الأسئلة، وإنما سأنتظر بإجاباتي إلى أن ألتقي بالسيد رئيس البعثة؛ فالملف من اختصاصه، وهو الذي سيتولى معي شخصيًّا كل مراحل العمل، وسيُخصِّص لي ما أحتاجه من وقت، وسيبذل معي كل ما يستطيع من جهد لإنجاز المهمة، وقد تلقَّى تعليمات من الوزير بأن يولي الموضوع أقصى اهتمامه، وسيكون جاهزًا لمباشرة العمل معي منذ صباح الاثنين القادم.

ما إن تركني الصديق لنفسي، متفرّغًا لأفكاري، حتى وصلت بسرعة ويُسرٍ، إلى الإجابة على أسئلته، وبالطريقة التي أراها تضمن لي سرعة الحركة والإنجاز، وأرى أنه سيكون طريقًا صعبًا، مليئًا بالمشاكل والتعقيدات، إذا اخترنا أي طريق آخر، غير الطريق الرسمي، وقنوات الاتصال بالحكومة؛ فهو أمر تحيط به جوانب أمنية غاية في الخطورة، وتقتضي بالتالي أقصى درجة من التكتُّم والسرية، وليس ثمَّة أسلَمُ وأقصر وأكثر توفيرًا للجهد والوقت وضمان الأمن والسلامة، من الطريق الرسمي، أمَّا عن سبب الاتصال وطبيعته، فلا بأس من الإفصاح عن جانب من المهمَّة، وهو الجانب الذي لا يثير قلقًا ولا شكًّا، ولا يخلق مشاكل؛ حاضرًا ولا مستقبلًا، والتكتم على الجانب الآخر، الذي يتعلق بالتمويل وإنشاء المؤسسة العالمية التي يريدها العقيد لترويج أفكاره، بمعنى: الاكتفاء بالقول إن للرجل علاقة شخصية برئيس الدولة في ليبيا، وهو يحمل انطباعًا جميلًا عنه، وتقديرًا فائقًا لأفكاره وأطروحاته ومواقفه، ويأسف أن وجد نفسه في هذه المحنة، التي لا يراها غريبةً على صاحب ضمير يَقِظ مثله، وأرسلني كمبعوث شخصي، يحمل له تحياته وتعاطفه ومناصرته في موقفه، ويبدي استعداده لتقديم أية معونة يحتاجها.

كان هذا هو الرد الذي استقرَّ عليه رأيي، وهذا ما نقلته إلى السفير «مفتاح»، أو أمين المكتب كما يسمُّونه، وكنت أعرف عنه أنه سياسي عريق وصاحب تجربة عريضة عميقة تمتدُّ جذورها إلى العهد الملكي، ومشهود له بالمواقف الوطنية الشجاعة، وكان قبل تولِّي منصبه في السفارة الليبية يعمل في إحدى المنظمات الدولية، وقد تجاوَزَ سن التقاعد ببضع سنوات، وبسبب العلاقة الوثيقة التي تربطه بأهم الشخصيات في الحراك السياسي الألماني؛ تمَّ استثناء الرجل من الإحالة إلى المعاش؛ لاستثمار علاقته فيما يحقِّق لليبيا علاقات قوية ومتينة بهذه الدولة الكبيرة والفاعلة على المستوى الأوروبي والدولي، ولم يكن قد تلقَّى من وزارة الخارجية الليبية، فكرة مُفصَّلة عن فحوى رسالة العقيد الليبي التي أحملها للمُعارِض الروماني؛ فشرحتُ له فحواها، وكان رأيه أن رجُلًا هاربًا من قبضة الطاغية الذي يحكم بلاده، لن يكون سهلًا أن يضع نفسه وعقله في خدمة حاكم آخر، مهما كنَّا نثق في رؤية هذا الحاكم أو صواب آرائه وأفكاره، عرفت أنه يتعامل بتحفُّظٍ معي، وأن ما لم يفصح عنه بصراحة هو أن رجُلًا قرَّر الهروب من طاغية مثل «شاوشيسكو»، لن يرضى بأن يقع في قبضة طاغية آخر

أكثر تخلُّفًا وهمجيَّةً وشراسةً وجهلًا منه، والتلويح بإغراء الميزانيات الكبيرة لن يُسيل لعاب رجُلٍ رَكَلَ ما كان تحت يديه من امتيازات ونفوذ وسلطة. وصارَحتُ السيد «مفتاح» عمَّا يهمُّني في الموضوع كله، فأنا لا يشغلني أن تنجح المهمة أو لا تنجح، ولكن ما يشغلني هو أن أجد وسيلة، أو لنقُل ذريعة؛ للتواصل مع ابنة السيد «فلوريان» المسمَّاة «أوليفيا»، والتي وقعت في شباك حبها، وأرى أنه ليس حبًّا من طرف واحد؛ لأنه وصلني ما يفيد بأنها أيضًا تبادلني نفس العاطفة، وانتظرت لأرى الطريقة التي سيتلقَّى بها السيد مفتاح هذه المكاشفة، فوجدته يتلقَّاها بروح متسامحة كريمة، بأن رأى جانبًا طريفًا في القصَّة، قائلًا إنه خلال حياته العملية الطويلة في المجال الدبلوماسي، صادف حكايات كثيرة، يسخِّر فيها الدبلوماسي شؤون القلب والعاطفة، وقصص الحب والغرام؛ لخدمة أهداف سياسية، تقع في إطار عمله الدبلوماسي، وهذه –كما قال مُداعِبًا– المرَّة الأولى التي يرى فيها دبلوماسيًّا يريد تسخير السياسة، بمخطَّطاتها الكبيرة الخطيرة التي يدخل رؤساء الدول في رسمها، لشؤون قلبه وعواطفه.

أسعدني أن أجد رجُلًا له خبرة وتجربة السيد «مفتاح»، والأفق الواسع الذي يتميَّز به، لكي يكون عوني في هذه المهمة، بل وعوني في قضيتي الشخصية نفسها؛ لأنني لن أجد مستشارًا أستشيره في منعرجات وربما مطبَّات الطريق، التي أتوقَّع أن أجدها أمامي، وأنا أخطو نحو الارتباط بهذه الفتاة الرومانية، ثم إن علاقته الواسعة والقوية بأهل السُّلطة في ألمانيا، سوف تؤمِّن بالتأكيد وصولًا سهلًا وميسورًا إلى الفيلسوف الهارب، وسوف تزيح من طريق هذه المهمة كلَّ العراقيل والصعاب. وقدَّمتُ له رجاءً شخصيًّا وخاصًّا، أن يكون معي ساعة لقائي بالسيد «فلوريان»؛ لأنني أثق في حِكمَتِه، وخبرته، مع وَجاهَة مظهره، وما يوحي به من ثقة وحكمة. سوف يتعزَّز بوجوده مركزي لدى السيد «فلوريان» وابنته، ضاربًا عرض الحائط بتعليمات وزير الخارجية الليبي، الذي يريد أن يقتصر اللقاء على ثلاثة فقط، هم: أنا، والفيلسوف، وابنته؛ فالشخص الرابع هنا ليس شخصًا غريبًا، وإنما هو السفير الليبي، وممثِّل رئيس البلاد، ووجوده كان شَرطًا لحضور المقابلة، كما سأوضِّح للوزير الليبي إذا أراد توضيحًا.

كان السيد «مفتاح» قد سألني أن أعود إلى إقامتي الفندقية، وألَّا أشغل نفسي بموضوع هذه الترتيبات لتأمين المقابلة، التي سيبذل منذ الآن جهده على تأمينها، والعمل حثيثًا على إنجاز المهمة، حسب التوجيهات القادمة من طرابلس، واعِدًا بأنه سيهاتفني ساعة أن ينجح في الحصول على موعد مع الفيلسوف الهارب. تركته، واثقًا أن الأمور تتَّخذ مسارًا يتَّفق مع ما أريده وأتمنَّاه، وإنني في تمام الطمأنينة إلى أن الرجل سينجح في إحراز النتيجة المبتغاة.

ومرَّت ثلاثة أيام، ثم أربعة، ثم خمسة، وفي كل يوم أتوقَّع أن أتلقَّى المكالمة الموعودة، دون أن يحصل أي اتِّصال من جانب السيد «مفتاح»، ومع ذلك لم يكن يراودني أدنى إحساس بالقلق، أو شكٍّ في أنه يواصل بدأب ومثابرة العمل من أجل إنجاز المهمة، واثقًا بأن جهده سيكُلَّل بالنجاح مهما أخذ من وقت، فالمهمة عسيرة كما أراها، محفوفة بمخاطر وتحفُّظات ليس سهلًا القفز فوقها، وتحتاج إلى التعامُل معها، ومقاربتها، بخطًى حكيمة وئيدة منضبطة، فلا بأس –قلتُ في نفسي– من الانتظار والصبر، وخلال هذه الأيام كنت أستقبل الصديق محمود، ليأخذني في جولات مسائية بسيارته، إلى

أحد معالم الاستقطاب السياحي، مثلما حدث عندما تناولنا الغداء في مطعم موجود بأعلى برج البريد، حيث يمكن أن نرى المدينة بكل ملامحها من هذا المكان العالي، ولم تكن بون تمتلك مقوِّمات الحاضرة الألمانية الكبيرة؛ فهي ليست برلين، ولا فرانكفورت، ولا ميونيخ، ولا حتى كولون؛ مجرَّد مدينة ريفية، تتربَّع علي ضفتي نهر الراين، الذي أضفى عليها مسحة من الجمال والسلام، ويعتبرها الألمان هنا عاصمةً مُؤقَّتة إلى حين العودة إلى العاصمة التاريخية برلين، بعد زوال الجدار الذي يفصل ألمانيا، بمثل ما يفصل المدينة العريقة عن شقِّها الشرقي. ويرون أن سقوط هذا الحائط قادمٌ في زمن قريب، وإن رآه بقية الناس بعيدًا، ولا شكَّ أن هروب قُطبٍ شيوعي كبير إلى بلادهم، يمثِّل بالنسبة لهم حدثًا رمزيًّا كبيرًا في هذا السياق، وخطوة تقويض البناء الشيوعي، الذي كان السبب في تقسيم ألمانيا، والذي انتهز أقطابه ظَرفًا تاريخيًّا طارئًا عارضًا، هو هزيمة ألمانيا في الحرب، واغتصاب جزء منها، ويأتي هذا الهروب المتكرِّر لكُتَّاب وفنانين من الكتلة الشرقية، مخترقين الستار الحديدي، إلا علامات أكيدة على إفلاس تلك الأنظمة، ثم تصل النقمة على النظام إلى رجال سياسيين ومُنَظِّرين فكريين في قمة السلطة، مثل السيد «فلوريان»، ويشقُّون عصا الطاعة، ويخترقون ذلك الستار إلى فضاء الحرية في بلادهم؛ فهو يمثِّل بشرى النهاية القريبة لتقسيم ألمانيا، في نظر بعض عتاة الألمان، كما سمعها الصديق محمود ونقلها لي. وكنت من طرفي أحاول خلال هذه الأيام التي أعقبَت لقائي بالسفير، أن أعتني برصد ومعرفة أية تطوُّرات تحدث في قضية السيد «فلوريان»، وقراءة أي خبر ينشر عنه، وأتلقَّى يوميًّا نشرة باللغة العربية تُصدِرها السفارة عن أقوال الصحف الألمانية، وأقرأ أكثر من صحيفة يومية تصدر في بون باللغة الإنجليزية، فلا أرى إشارة لهروب السيد «فلوريان»، ولكنني أعرف –على وجه اليقين– أن هناك أحداثًا جسيمة تتصل بهذا الهروب، تدور خلف الكواليس، وكنت قد علمتُ، قبل أن أغادر بوخارست، بأن هناك قوة خاصة قد تكوَّنَت من أعضاء السيكوريتات لمطاردة الفيلسوف الهارب، تعمل تحت الأرض، وأن هناك حُكمًا، أو بالأحرى: أمرًا رئاسيًّا صدر ضده بالإعدام، وموكول إلى هذه القوة الخاصة أن تعمل على إعادته إلى بلاده، عن طريق الخطف والتهريب، مُخدَّرًا في صندوق عبر أية وسيلة وأي سبيل، عبر البحر أو النهر أو الجو أو البر، وإن لم تستطع هذه القوة جلبه إلى رومانيا، لينال عقابه، داخل بلاده؛ فإنها مُخوَّلة

بتنفيذ حكم الإعدام فيه، أينما كان، على طريقة التصفية التي قام بها «ستالين» لرفيقه الهارب «تروتسكي»، في زمن مضى.

وبعد مُضيِّ سبعة أيام جاء الهاتف الذي كنت أنتظره من السيد «مفتاح»، يقول إن هناك موعدًا قد تَحدَّد للقاء مع السيد «فلوريان»، صباح يوم السبت، وأن مندوبًا حكوميًّا سوف يأتي ليأخذنا، أنا والسفير، من مقرِّ السفارة عند الساعة العاشرة. وهو يريدني أن أحضر له في مكتبه قبل الموعد بوقتٍ كافٍ للتداوُل في موضوع المقابلة.

قلت للسفير لحظةَ وصولي إلى مكتبه بأن المطلوب أن نفوز بلقاء لا يحضره سوانا، والرجل، وابنته؛ لأن ما سنعرضه عليه يجب أن يبقى سرًّا بيننا وبينه، كما تقول التعليمات التي تزوَّدتُ بها، فذكَّرني بأننا لسنا في وارد إملاء الشروط، وسواء حضر اللقاء أحد من الألمان أو لم يحضر، فإنهم سيكونون على عِلمٍ بكل ما يدور في الجلسة؛ إذ إنه في مثل هذه الحالة لا

يُترَك شيئًا للصُّدفة أو للطبيعة الحرة للجلسات واللقاءات، ولا بُدَّ من وجود أجهزة تقوم بالتصوير والتسجيل والمراقبة؛ فهو موضوع أمني بامتياز، والسيطرة فيه لأجهزة الأمن دون سواها، ثم إن الرجل لن يُترَك دون حراسة أثناء لقائه بأي إنسان، حتى لو لم يكن الحُرَّاس جزءًا من الجلسة، فهم موجودون في ركن من الأركان، مستعدُّون للتدخُّل الفوري عند حدوث أي طارئ، وأخبرني أيضًا بأنه لم يطلب أن يعرف مكان اللقاء، ولم يتوقَّع أن يتطوَّع أحدٌ بذِكر هذا المكان، ولا يجب أن نستغرب –كما قال لي– إذا اقتضت الضرورة ربط أعيننا بعصابة؛ كي لا نعرف الطريق الذي يقود إلى مكانه.

عندما باشرنا الانطلاق في سيارة المراسم التي وصلت إلى السفارة، لم نجد أحدًا يطلب أن نضع عصابة على أعيننا. كان هناك السائق، وبجواره مندوب المراسم، وركبت في الكرسي الخلفي صُحبةَ السفير، ووجدنا السيارة تأخذ الطريق الذي يقود إلى قصر الرئاسة، أي قصر المستشار الألماني، حتى وصلنا إلى بوَّابته، التي فتحَت دون إبطاء، لنجد أنفسنا نشقُّ حديقة القصر، بيُسرٍ وسهولة، ونرتقي السلالم الرخامية التي تقود إلى الردهات الداخلية للقصر، وقادنا المرافق، عبر أروقة كثيرة وطويلة، تُزيِّن جدرانها اللوحاتُ والمرايا، وتتصاعد من جنبات سقوفها موسيقى كلاسيكية خافتة، حتى دقَّ الباب، ودخلنا نحن من خلفه، وهناك كان الفيلسوف وابنته بانتظارنا، ولا أحدَ غيرهما؛ إذ انسحب المرافق فور أن أوصلنا إليهما، وسألنا قبل ذهابه عن المشروب الذي يأمر بإحضاره لنا، ولم أنتبِه لما ردَّ به السيد «مفتاح»، أمَّا أنا فقد ظلَّ بصري مُشرَعًا باتجاه «أوليفيا»، مُفعَمَ الوجدان بمشاعر لا أجد لها وصفًا، وأنا أراها وقد أحاط بها الإطار الذهبي لطلاء أقواس الغرفة وبعض جوانبها، وأراها مثل جوهرة تتلألأ في هذا المحيط الباذخ من الجمال والمجد الإمبراطوري، تمهَّلتُ في الاندفاع نحوها، والسفير يقف بجواري ينتظرني أن أقوم بتقديمه لهما، وقد استغرقتني هذه اللحظة التي أقف فيها ذاهلًا عن نفسي، أنظر للمرأة التي صارت محطَّةً تبلوَرَت فيها آمالٌ سعيتُ جاهدًا لتحقيقها، وفكَّرتُ طويلًا في السبيل الذي يقودني إليها، وبَدَت لي كأن الوصول إليها أضحى مستحيلًا، ولكن المستحيل صار الآن مُمكِنًا؛ لأن للحب ملائكة، تعرف، إذا اقتنعَت بصدق الحب وصفائه ونزاهته، كيف ترسم الطريق سهلًا يسيرًا إليه، ولم أشكَّ لحظة وأنا أرى صور ملائكة مجنَّحةً في سقف الغرفة أنها الملائكة التي جاءت ترافقني، وتحرس مسيرة هذا الحب، وتخفق بأجنحتها، تحيِّيه وتباركه. وضَعتُ يدي في يد «أوليفيا»، ولم أكن أريد أن أتركها، بل أريد أن أسحب الجسد كله إلى حضني، وأبقى ملتصقًا به، لنتَّحِد في جسد واحد، لا سبيل إلى انفصامه، وأخرج بها من قصر المستشار الألماني على هذه الصورة، إلى حيث نعيش في ثَبات ونبات كما في عالم الأساطير.

مُرغَمًا سحبتُ يدي لأصافح الأب، وأترك الطريق للسيد «مفتاح» يصافحهما وأنا أقدِّمه لهما، ونجلس في الصالون، نحن الأربعة، نستمع إلى حديثٍ استهلَّه الفيلسوف، متذكِّرًا لحظات لقائنا في مصحة «آنا أصلان»، قائلًا إنه لولا تلك المصحة لما كان موجودًا في رحاب هذا القصر وحمايته، فقد تَصادَف أن جاء إلى المصحة طبيبٌ زائر من روسيا، واقتضى روتين المراجعات الطبية أن يلتقي به، وبعد فحص الملف والتقارير والمعاينة السريرية له، غاب ليومين، وترصَّدَه لحظة هبوطه إلى المطعم صباحًا لتناول وجبة الإفطار، وجاء للجلوس معه، باعتباره لقاءً عرضيًّا جاء صدفة، ولكنه في الحقيقة لم يكن صُدفَةً، وإنما لإبلاغه أمرًا لم يكن يستطيع قوله جهرًا، أو بطريقة رسمية، قال له إن الحالة المرضية التي يمرُّ بها إنما جاءت

بسبب إرهاق للحملة العصبية، فاق قدرة هذه الحملة على الاحتمال، وإنه عبء جاء نتيجة ارتباطه بالحزب والنظرية، بما لم يَعُد ينسجم مع قناعات العقل ولا مع ما يقبله الضمير، ولا سبيل إلى تحرير هذه الحملة من الحمولة الزائدة، إلا بفكِّ الارتباط بالحزب والنظرية والدولة. هذه كانت رؤيته لطريق الشفاء الذي لا طريق سواه؛ وإلا فسيجد نفسه يقضي بقية عمره في الكوابيس المزعجة، إلى أن تقضي عليه.

كان هذا كل ما قاله الطبيب، الذي كان قد قرَّر هو الآخر مغادرة الاتحاد السوفييتي، إلى إحدى بلاد العالم الثالث، ليس هروبًا، وإنما ضمن برنامج للتعاون الصحي؛ لأنه لا يريد مشاكل مع حكومة بلاده ونظامها، ويملك ذريعة أن لديه عقدًا للعمل في دولة أفريقية صديقة، بمصادقة السلطات الصحية الروسية ورضاها.

وهكذا -كما يقول- وُلِد في رأسه القرار، الذي كان يحتاج إلى تهيئة الظروف لتنفيذه، وأشار إلى ابنته قائلًا إنه يحمد الله أن لديه ابنة تملك العقل القادر على رسم الخطة، ووضع العربة في سِكَّة الخروج إلى عالم الصحة والعافية، وكان الطبيب الروسي -كما قال الفيلسوف- صادقًا في كل كلمة قالها، لأنه لحظة أن وضع قدمه خارج سلطة الدولة الرومانية، وقد غادرها: مَنصِبًا وحزبًا ودولة؛ انتهت الكوابيس، وعاد سليمًا مُعافى كما كان قبل الخلل الذي أصاب الحملة العصبية.

وكان السيد «مفتاح»، بارعًا في ربط وشائج المودة مع الفيلسوف وابنته، فقد شرح له قصة انتمائه في شبابه الباكر إلى الفكر الماركسي، وانبهاره بمقولاته وأطروحاته التي رأى فيها طريقًا للوصول إلى العدالة الاجتماعية والقضاء على التفاوُت بين الفقراء والأغنياء، وكيف انخرط في جمعية سياسية سرية تهدف إلى تحرير البلاد وربط هذا التحرير بتأسيس نظام اشتراكي، وكيف كان يحرِّر -مع زملائه- نشرةً فكريَّةً تهدف إلى إشاعة الفكر الماركسي والترويج له، وكسب أنصار في أوساط الطلاب والشباب، وكان الفيلسوف يُؤَمِّن على كلامه، قائلًا بأنه كان يملك مثله نفس الحماس، وأن مثاليَّات الشباب هي التي قادته للانخراط في الحزب، واتَّضح أن لكليهما نفس البدايات، وهناك كثير من التماثُل في التجربة التي مرَّ بها كل واحد منهما، وقبل أن ندلف إلى موضوع المقابلة، عبَّر السيد «مفتاح» للفيلسوف وابنته عن ثقته في أن المسألة الأمنية لها الاعتبار الأول عند مُضَيِّفيهم الألمان، وأن ليبيا تبدي استعدادها لتلبية أي طلب في هذا الخصوص، ولن تبخل بتقديم أية مساعدة تؤمِّن للسيد «فلوريان» وأسرته السلام والعيش الهانئ، وأشار لي، قائلًا إنني أحمل رسالة شخصية من الرئيس الليبي، ليترك لي فرصة أن أنقلها إليهما، فقُلتُ، على لسان العقيد، إنه كان دائمًا مُعجَبًا بأفكاره، وأنه يحمل انطباعًا إيجابيًّا عن المرتين اللتين التقاه فيهما، ودار خلالهما حوار مفيد ومثمر بينهما، وأنه يقدِّر شجاعته، ونقاء ضميره وشرفه، عندما لم يشأ أن يعمل بما يتناقض وقناعاته التي وصل إليها؛ لأن الفكر الإنساني خُلِق ليكون حرًّا، ولا مكان له داخل القوالب والأقفاص التي تريد أنظمةٌ حاكِمةٌ سجنَها فيه، وأن مكانه سيبقى دائمًا فضاء الحرية وفضاء الإبداع، وباعتباره صاحب فكر بديل فهو يتمنَّى أن يضع إمكانيات بلاده تحت أمر فكره الحر، ويقترح عليه أن يتولَّى تأسيس مركز للبحوث والدراسات المقارنة، لمثل هذه الأفكار والفلسفات، آمِلًا أن يُثري بإبداعه وفكره الخلَّاق النظرية العالمية الثالثة التي تطمح أن تقدِّم للبشرية طريقًا ثالثًا يستفيد من إيجابيات النظريَّتين الرئيسيَّتين اللتين يحتكم إليهما العالم الغربي الرأسمالي

والكتلة الاشتراكية، ويطرح ما فيهما من سلبيات؛ فرَدَّ السيد «فلوريان» يشكر ليبيا ورئيسها على هذا العرض، ويقول إنه الآن لا يزال في مرحلة انتقالية لا يدري كيف تستقرُّ الأمور بعدها، ويترك في هذه المرحلة العبء الأكبر من تدبير شؤونه إلى خبراء الأمن الألمان؛ فلا يستطيع اتخاذ أي قرار، ولا يلتزم بأي ارتباط في هذه الفترة، ورأى السيد «مفتاح» أنه موضوع لا تُفلِح جلسة واحدة لتغطية كل جوانبه، وأنه يتمنى أن يسمع المزيد، ويستفيد من تجربة وحكمة السيد «فلوريان»؛ ولهذا فهو يقترح لقاءً في بيته؛ بيت السفير الليبي في بون، على الغداء، يدعو إليه الفيلسوف وابنته، مع اصطحاب مَن تقضي الضرورة اصطحابه من الحراس الشخصيين، ولم يعترض الفيلسوف من حيث المبدأ، ولكنه لا يستطيع القطع بالقبول، قبل العودة إلى الخبراء الأمنيين؛ فهو يحبِّذ تلبية الدعوة، ويرى فيها فرصة للحركة والتغيير، ولكن الرأي لهم أوَّلًا، وعندما انتهت الجلسة وخرج يودِّعنا إلى باب الصالون، واصَلَت ابنته الذهاب معنا عبر الرواق، لكي تُسلِّمنا إلى أحد التشريفات في آخره، وكانت خلال الجلسة تكتفي بالمشاركة في الترجمة عندما يتعذَّر على والدها وجود التعبير المناسب باللغة الإنجليزية، أو يطلب شرحًا لكلمة سمعها، ولم يكن معناها واضحًا لديه، وكنت أشعر بالحسرة لأنني لم أستطع أن أتسلَّل بكلمة واحدة إليها خارج السياق الرسمي البروتوكولي؛ إذ لم يكن ذلك مُمكِنًا في حضرة والدها، وهي بالتأكيد أحسَّت بذلك؛ فاخترعت ذريعة المضيِّ معنا إلى عنصر التشريفات، لأقول لها أثناء ذلك إنني في أمَضِّ وأحرِّ الشوق لأن أراها على انفراد، وأنني موجود هنا من أجلها فقط، وأنني سعيد أن أنقل هذه الرسالة إلى والدها، لا حُبًّا في نقل الرسائل، ولكن حُبًّا في أن ألتقي بها، فأجابت بأنها سوف تجد طريقا لأن يتجدَّد اللقاء بيني وبينها، وطالما أنني موجود في فندق «كيمبينسكي» فسوف تجد طريقة للاتصال بي، وأننا سنلتقي الأسبوع القادم على مائدة السفير في بيته يوم السبت القادم؛ لأنها ستتفاهم مع الخبراء الأمنيين، وتجعلهم يبذلون الجهد لتأمين الذهاب والمجيء إلى بيت السفير دون مشاكل.

كان اللقاء مع الفيلسوف إنجازًا، بغَضِّ النظر عمَّا دار من حديث أثناء اللقاء، وما أجاب به على العرض الليبي. كما كان واضحًا عبر كلامه، ومفهومًا من خلال السياق الذي يتحرك فيه، هو للمحافظة على حياته التي تهدِّدها شتَّى الأخطار، وأن يتحقَّق اللقاء وتنشأ علاقة تحمل أمل التواصل والتجدُّد؛ فهو نجاح يعود الفضل فيه للسيد «مفتاح»، ولا أحد غيره؛ ولهذا فإن مشاعر الامتنان والشكر تفوق ما أستطيع التعبير عنه بالكلمات، وكان لا بُدَّ أن أعود معه إلى السفارة لصياغة الرسالة التي تذهب إلى طرابلس، عن طريق الشفرة السرية، لكي يعرف وزير الخارجية ما صادف مَهمَّتي من نجاح، وينقل ذلك إلى رئيسه، وحمدًا لله؛ فقد وضعنا القطار على القضبان، كما قلتُ في الرسالة، ونأمل أن يصل إلى المحطة الموعودة في نهاية المطاف؛ إذ لا بُدَّ أن تشعر طرابلس بأن خيط الأمل موجود وموصول بهذه الخطوة الأولى التي تمَّ تحقيقها ببالغ السرعة والنجاح.

وبعد الانتهاء من كتابة التقرير عن المقابلة، والاطمئنان على إرساله بالبريد السري، عُدتُ إلى الفندق، ألتزم بالبقاء في غرفتي، وأذني في حالة استنفار لالتقاط أية رنَّة تَصدُر عن الهاتف؛ على أمل أن يكون اتِّصالًا من أوليفيا الحبيبة.

مرَّت أيام أربعة، فقَدتُ خلالها الأمل في أن تهاتفني؛ فللاعتبارات الأمنية في هذا المضمار تأثيرها وسيطرتها على أي تصرُّف يَصدُر عنها، أو عن أي فرد من أسرتها، وموعد الغداء في بيت السفير لم يَعُد بعيدًا، وقد وعَدَت ببذل الجهد في سبيل إتمامه، وهو بالتأكيد أكثر أهمية من المخاطرة بهاتفٍ قد يحمل من المخاطر ما لا أستطيع التكهُّن به، إلا أن الهاتف في اليوم الخامس رنَّ رنينًا رقص له قلبي، وقلتُ لا بُدَّ أنه هاتف يحمل صوتها، وكان كذلك حقًّا، إلا أن المفاجأة كانت أكبر من مجرَّد الصوت؛ إنها تطلب مني أن أهبط بعد نصف ساعة إلى اللوبي، وأن أجلس في أقرب مقعد إلى باب الفندق، وعندما وجدتُ أن ثمة وقتًا لحلاقة وجهي، فقد فعَلتُ؛ لأكون في أفضل حالاتي، إذا ما حصل وأرسلت أحدًا يقلُّني إليها، ووضعت كمية من الكولونيا على وجهي، ورشَّات عطر على ملابسي، وارتديت أفضل بذلة تتوفَّر لديَّ، وهبطت إلى بهو الفندق، وجلست في أقرب مقعد شاغر من الباب، أنتظر أن يتقدَّم أحدٌ مني ليطلب مني أن أتبعه، وبصري يلتقط كل داخل إلى الباب، متوقِّعًا أن أرى شابًّا في شكلٍ وسِنِّ أهل الحراسات والتشريفات، إلَّا أنني بدلًا من مثل هذا الشاب رأيتُ سيِّدةً عجوزًا تدخل وتتجه نحوي، غزَا الشيب أغلب شعر رأسها، وتضع في يدها عُكَّازًا من الماهوجني اللامع، وعلى عينيها نظارة رمادية، لا أعرفها، ولم يسبق لي أن قابلتها في حياتي، تكلَّمَت بهمس وهي تتجه نحوي، فظنَنتُها كلمات ألمانية؛ لأن الصوت كان خافتًا جدًّا، ثم اتَّضح أنها تخاطبني بلغة إنجليزية، فقد أعادت جُملةً تقول:

– ما هي أخبار حديقة «هيراسترو»؟

أي حديقة، وأية «هيراسترو»، تخرف بها هذه المرأة العجوز، وما علاقتها هي بتلك الحديقة وبمدينة بوخارست، ومَن قال لها إنني أملك ذكريات هذه الحديقة، ولكنه أيضًا، أي غباء نزل على عقلي، بحيث لا أعرف ولا أنتبه أن هذه المرأة العجوز ليست إلا أوليفيا، جاءت مُتنكِّرةً، وتذكر كلمة السر التي سبق استعمالها في المكالمة الهاتفية التي تمَّت بيننا عندما كانت هي هنا وأنا لا زلتُ في بوخارست، وشهقتُ فرحةً واستغرابًا وأنا أنهض لاستقبالها، وأحاول أن أجد الكلمات للترحيب بها، وقد اتَّجهتُ إلى الباب، وسِرتُ خلفها، قائلةً إننا سنأخذ سيارة، إلَّا أنها لم تقف أمام الفندق تنتظر التاكسي الذي يأتي، بإشارة من أحد الحُجَّاب، وإنما اتَّجهَت إلى ركن خارج الفندق بحيث كانت هناك سيارة أجرة تنتظرها، وعرفت عندما انطلقت بنا، أنها سيارة أجرة تمويهًا، وليست حقيقة، فهي سيارة تابعة للأمن، يقودها ضابط، يحمل سلاحًا تحت ملابسه، ويجيد تقنيات الدفاع، وجاهز للتعامل مع أية طارئ، وسنذهب –كما قالت– إلى مقهى على ضفاف نهر الراين، حيث يسهل لعناصر الأمن تأمين المكان وحراسته، وهي تشعر بالخجل والأسف؛ بسبب ما يبذله رجال الأمن من جهد وتعب لتأمين خروجها؛ لأنها لا تستطيع أن تعيش داخل القصر، تحت الإقامة الجبرية طوال الوقت، وإذا كان والدها وأمها يستطيعان أن يفعلَا ذلك، لأنهما كبيران في السن، ويقضيان وقتهما في القراءة ومشاهدة الأفلام وبرامج التلفاز؛ فإنها لا تستطيع أن تفعل ذلك طوال الوقت، أمَّا أختها وزوجها وأطفالهما فقد انتقلوا للحياة في قاعدة عسكرية ألمانية خارج البلاد، وتخضع لشروط أمنية صارمة؛ لكي يستطيع الأولاد الذهاب إلى المدرسة، وممارسة الحياة مع أطفال عائلات العساكر في القاعدة، دون قيود الإقامة في قصر المستشار. وهي تفعل ذلك رغم التحذيرات التي تقول إن الرئيس الروماني جعل هدفه في الحياة الانتقام من رفيقه السابق، السيد «فلوريان بوبيسكو»، وتدميره هو وعائلته، وأرسل قوة موجودة الآن

تحت ذرائع شتَّى في بون، لهذا الغرض، وهي تغامر، وليس بعيدًا -كما تقول- أن ينجح عملاء «شاوشيسكو» في اصطيادها خطفًا، إذا أمكن؛ لمساومة والدها وممارسة الضغط عليه، أو قتلها لكي يحرقوا قلبه، والسؤال -كما أخبرتني- الذي يدور بين أفراد أسرتها، بعد هذا الهروب من رومانيا، هو: هل كان لا بُدَّ من مثل هذه التضحية في سبيل الإفلات من الحياة تحت قبضة الديكتاتور؟ والإجابة التي لا إجابة سواها، هي: «نعم»! لم يكن ثمة سبيل آخر إطلاقًا، وشرحَت لي، بعد أن أخذنا مكاننا في المقهى الزجاجي المحاط بمياه النهر، أن ما قاله والدها عن الشفاء من مرضه كان فِعلًا أشبه بالسحر، وأضافت بأن تلك الحالة المرعبة التي كان يعاني منها والدها، والتي عايَنتُها بنفسي عندما كنت أسكن في الغرفة المجاورة له، في مصحَّة «آنا أصلان»، عندما كان يتحوَّل إلى كلب يعوي، غادَرَته منذ الليلة الأولى التي اجتاز فيها جدار برلين، ومعنى ذلك أن هناك ضميرًا لم يكن قادرًا على تقديم التنازلات، ولم يكن يستطيع الرضا بها مهما كان الإغراء، لكي يبقي في رومانيا، كبيرًا، أو الثمن الذي يدفعه، عند خروجه عن طاعة النظام خطيرًا، يصل إلى المجازفة بحياة صاحب هذا الضمير وسلامة أسرته، ولعل هاجس الانشقاق عن الحزب، راوَدَ والدها منذ سنوات كثيرة مَضَت، ولكنه كان يؤجِّل اتخاذ القرار من أجل العائلة، التي ستدفع الثمن معه، دون ذنبٍ جَنَته، وعندما وصل به الأمر إلى حدِّ الارتماء في مهاوي الجنون، وكوابيس المرض النفسي والعقلي، كان لا بُدَّ من المجازفة، التي لا تحتمل التأجيل أو التردد، واتخاذ قرار الهروب الذي لم يكن هو أيضًا سهلًا، أو مفروشًا بالورود، وكان أدنى خطأ يعني إفناء العائلة بأكملها.

كان واضحًا أنها مغتبطة بنجاحها اليوم في الخروج من الجو الكاتم للصوت، الذي تعيش فيه تحت المظلة الأمنية، وتستمتع بشهوة التعبير عن خَوالِج نفسها، في هذه اللحظات المنتزعة من زمن الإقامة الجبرية بين جدران القصر، وبدأت تسألني عن كيف أتقَنَت رسم هذه الخطة، التي وصَلَت بها إلى بون، ولقائها ولقاء والدها؛ لأنها رأت في ذلك شيئًا يفوق ما كانت تتصوَّر حصوله، عندما فكَّرَت في وسيلة للتواصل، وغامَرَت بتلك المكالمة الهاتفية التي استوجبتها ضرورة الاعتذار عن تخلُّفها في المجيء للموعد، ووضعي في صورة ما حدث، ولو تلميحًا لا تصريحًا، فأخبرتها بأنني استَفَدتُ من حقيقة أن العقيد الليبي كان قد التقى بوالدها أكثر من مرة، ورأيت أنه يستطيع أن يتحرَّك من أجل تقديم العون والمساعدة؛ وبالتالي ينالني نصيب من هذا العون وهذه المساعدة، في تيسير التواصل معها، فأجابت بالثناء على خطَّتي والاعتراض على مبدأ العون القادم من الحاكم الليبي؛ لأنه -كما تعتقد- لا وجود لطاغية يرى أبعدَ من نفسه، أو أوسع من المجال الخاص بمصالحه ومنافعه الشخصية، وتعرف أن والدها، الذي خرج من قفص الطاغية في بلاده، لن يدخل طواعية في قفص أي طاغية آخر.

وأفصَحتُ لها عن أن حقيقة ما أحمله لها من مشاعر تجعلني لا أرى في هذه الدنيا إلا هدفًا واحدًا، هو هدف البقاء معها، وتحقيق ما يتمنَّاه أي عاشق من وصالٍ أبَديٍّ مع مالكة قلبه ووجدانه. أمَّا مسألة قبول والدها بالعرض المقدَّم من الرئيس الليبي أو رفضه فهو شأن لا أتدخَّل فيه، ولا دور لي إزاءه، إلا دور ناقل الرسالة، ولا أستطيع تقييم ما يحدث إلَّا من زاوية واحدة، وهي زاوية علاقتي بها، وانعكاس هذا القبول أو الرفض على هذه العلاقة، وأملي دائمًا هو أن تمضي العلاقة في الطريق الذي يتَّفِق مع ما يريده القلب ويتمنَّاه.

وفوجئتُ حقًّا، بل صُدِمتُ، أن أراها تقابل كلامي الحماسي عن فورة العواطف وتأجُّجها، بشيء من الفتور والبرود، ظهر في شكل هذا الجمود الذي كان يُغطِّي كل ملامحها، ثم رأيتها تشرد ببصرها بعيدًا، تتابع سِربَ لقالق انطلق يحوم فوق النهر، وتتابعه وهو يحطُّ فوق أغصان شجرة قريبة، قبل أن يعاود الطيران في فزع كأنه وجد خطرًا يتربَّص به بين أغصان الشجرة، وبقيت أتابع اهتمامها بحركة الطير في سكونها وانطلاقها، أنتظر ما تقول، فإذا بها تعاود النظر نحوي، وتتَّجه لي بسؤال لم أكن أتوقَّعه:

– هل ترى هذه العجوز التي أمامك؟

فسارَعتُ بالرَّدِّ قائلًا:

– لا أرى عجوزًا أمامي، وإنما صبيَّة يافعة عفيَّة، تتدفَّق جَمالًا وحيويَّةً ونشاطًا وصحة، خلف هذا الديكور.

– ولكنني أرى العكس؛ أرى امرأة عجوزًا هدَّها الهمُّ والغمُّ، تحتوي ديكور امرأة شابة، وأحسُّ بحقٍّ أنني صِرتُ في واقع الحال امرأةً عمرها مائة عام.

– هو بالتأكيد إحساس عابر، سيزول لحظة أن تتخلَّصي من هذا المكياج.

–وأصارحك بحقيقة ما أشعر به، وهو أنني أعيش أيامي الأخيرة في الحياة.

– «فال الله ولا فالك».

– قد يعجز حاكم رومانيا في الوصول إلى أبي، ولكنني واثقة وثوقًا أشبه باليقين الديني، أن نهايتي ستكون على يديه قريبًا.

– لماذا تقولين هذا الكلام؟

– لقد انتهت الكوابيس من حياة والدي، ولكنها تلبسني أنا.

– كيف؟

– ليست كوابيس الحالة الكلبية ذاتها، وإنما كوابيس ترسم لي نهايتي، وتقول بصريح العبارة إنها آتية، وآتية قريبًا جدًّا.

وضَعتُ يدي فوق يدها، في حُنوٍّ وحبٍّ، مُشفِقًا عليها، وعلى نفسي، قائلًا بحُرقَةٍ وأسف:

– أرجوكِ أن تطردي هذه الأفكار السوداء من رأسك.

– كيف أطردها وهي تفرض نفسها عليَّ.

– إنها حالة ذهنية، نحن مَن يصنعها، ونحن مَن يستطيع أن يمتنع عن تصنيعها.

– وماذا تقول عن معطيات الواقع الذي يفرضها، هل تنكر وجوده؟

– نعم، الحياة ليست قاربًا من قوارب النزهة، يتهادى بنعومة ورشاقة فوق صفاء وبهاء الماء، في يوم ربيعي جميل. هناك أمواج، وهناك عواطف تواجه البشر جميعًا، وواجبهم أن يتعاملوا معها بحنكة وشجاعة؛ حتى يصلوا بقاربهم إلى شاطئ الأمان.

وقبل أن أُنهي جملتي، كان أحدُ حُرَّاسها يقف على رأسنا، قائلًا، بلهجة حاسمة جازمة، بأننا يجب أن نتحرَّك من هذا المكان. دواعي الأمن تقتضي إنهاء هذه الجلسة، والعودة بالآنسة «أوليفيا» إلى مقرِّ إقامتها. كنَّا قد انتهينا من تناوُل طبقَيْ البيتسا، وطلبنا فنجانيَ قهوة، ووجدت فسحةً أسألها إن كان بإمكاننا الانتظار حتى نشرب قهوتنا، إلا أنها همست في أذني قائلة بأن لا داعي للقلق؛ لأننا سنعاود اللقاء هذه الليلة، كنتُ أريد أن أعتذر عن الركوب معها، لكيلَا أتسبَّب في تعطيل عودتها إلى مكان إقامتها، بكل ما يعنيه وجودي والانتقال بي إلى فندقي، من عبء على جماعة الحماية، إلَّا أنها أصرَّت أن أرافقها؛ لكي تشرح لي لقاء المساء. ولأنها –كما قالت لي– لم تشأ أن تحرم نفسها من الاستمتاع بالحياة الليلية، وحضور السهرات الراقصة؛ فقد اتَّفقَت مع جماعة الأمن، على مرَّةٍ في الأسبوع، كل يوم جمعة، ليلًا، وهي تريدني أن أكون موجودًا لنقضي السهرة معًا، وفتحت حقيبة يدها، وأخرجت بطاقة لدخول الحفل الذي يقيمه المعهد الدبلوماسي الألماني لأعضائه، من طلبة المعهد وهيئة تدريسه، واختاروا قاعة الاحتفالات في فندق «كابيها جراند»؛ أقدم فنادق بون وأكثرها فخامة، لإقامة الحفل التَّنكُّري الراقص، وسألتها عن الشخصية التنكُّريَّة التي ستختارها، فقالت إنها لم تصل إلى قرارٍ بعدُ؛ فهي ستأخذ رأي جماعة الحماية، وستلتزم بما ينصحون به، وقلتُ لها بأنه لا خبرة لي بمثل هذه الحفلات، ولا أستطيع أن أفكِّر في الطريقة التي يجب أن أتنكَّر بها، فقالت بأنه لا حاجة بي إلى التفكير؛ لأنني عند وصولي إلى صالة الحفل، سأجد «ستاند» يبيع الأقنعة؛ تسهيلًا لأمثالي ممَّن لا يملكون الخبرة، ولا يجدون الوقت لارتداء الملابس التي يُفصِّلونها لهذه المناسبة، ويرتدونها في بيوتهم، ويأتون بها، جاهزين إلى الحفل، وهناك أستطيع أن أختار واحدًا من الأقنعة الكثيرة التي يعرضها صاحب المكان، وسألتني أن أختار منذ الآن القناع الذي سأرتديه لكي لا يتوه أحدنا عن الآخر، وأرتني في ظهر البطاقة صورًا لعدد من الأقنعة، فأعجبني منظر الوعل بشبكة القرون فوق رأسه، فأشرت إليه باعتباره يشبه تمثال الإله «غرزيل»؛ الثور الذي كان يعبده سُكَّان الصحراء الليبية في عصور سالفة، فأطلقت أجراس ضحكتها الجميلة قائلة: «وعل في صحراء الليل الألماني، إذن ستكون هذه القرون هي العلامة التي أهتدي به إليك».

وقريبًا من مركز المدينة سألتها أن تأمر السائق بالوقوف؛ لكي أنزل متجوِّلًا بين الأبنية، أتأمَّل هذه العمائر الحديثة، قبل أن أرتمي فوق مقعد عام، أجلس مع نفسي قليلًا في مواجهة صخب الشوارع وازدحامها؛ لعلَّني أفلح في ربط الأحداث ببعضها البعض، وأمامي كان برج البريد، يهيمن على فضاء المدينة: بناء شاهق، عريضٌ، وعالٍ، ناصع البياض، كأنه أنشودة صاخبة، سيمفونية من الحجارة بلغ فيها العزف مرحلة الكريشندو، نعم هنا، ينبثق رمز حضارة العصر، ويحمل بين طيَّاته شفرتها، ويربط الأرض بالسماء، وبين المحدود المغروس في طيب الأرض، واللا محدود؛ وهو هذا الفضاء اللا متناهي

الذي يغلِّف الكون، بلا بداية ولا نهاية، يتوارى صخب الشارع من حولي، ليطفو على السطح صخب آخر يأتي من مكان أكثر غَورًا، لقد سرَحتُ في فاصل صغير مع هذا البناء الذي أحسستُ أنه يغطِّي كل شرفات السماء، وأجد أنني أفعل ذلك متأثِّرًا بثقافة التلفاز التي تفرض نفسها على ذهن الإنسان في عصرنا، عندما يقطع البرنامج في هذا الجهاز موضوعه الرئيسي، متنقِّلًا إلى فاصل إعلاني صغير، لا علاقة له إطلاقًا بموضوع البرنامج، وعُدتُ إلى واقع هذه المغامرة التي ربطتني مع عائلة الفيلسوف المتمرِّد على قهر وطغيان بلاده، كم هي خادعة المظاهر التي كانت تجعله في أعين الكثير جزءًا من آلة القمع! تذكَّرتُ ما كانت تقوله عنه الممرِّضة الحاقدة على النظام، «ريلكا»، وهي تنظر إليه هو وابنته وزوجته وبقية أفراد أسرته، في ضوء المنخرطين مع أدوات الطاغية في قهر الناس، وامتصاص دمائهم، المستفيدين من عهده، والمشاركين في إجرامه، وها هو الآن يظهر في صورته الحقيقة؛ صورة رجل يواجه بطش الدولة بضميرٍ يَقِظ وقلب شجاع، متحمِّلًا ما يفرضه عليه الموقف الرافض للديكتاتورية، من تضحيات ومخاطر.

وإذا كان لموقف الأب مُبرِّراته، باعتباره كان ركنًا ركينًا من نظام الطاغية «شاوشيسكو»، وأراد ألَّا يستمر في تحمُّل أوزار النظام، فماذا عن ابنته؟ التي لا إثم لها ولا ذنب في ممارسات حُكمٍ تستمتع بمزاياه وحمايته، دون أن تكون معنيَّةً بجوانبه الظلامية الإجرامية ورعبه الأسود، بل تستطيع أن تدَّعي أنها لا ترى هذا الجانب ولا تعرف عنه شيئًا.

نعم، يحقُّ لها أن تتعاطف مع والدها، حين استجابته لهذه الثورة التي أملتها عليه يقظة الضمير، وأن تتبعه عندما قرَّر أن يتحرك بالاتجاه المعاكس لحركة النظام القمعي، لا أن تكون هي التي تبادر وتسعى وتركض تسبق والدها، وتهيِّئ له فرص الهرب. إنه يدلُّ على درجة نادرة من الصفاء والنقاء والإيثار؛ ممَّا يجعلني أزداد حُبًّا لها وإعجابًا بروحها المتوثِّبة الهازئة بالمخاطر والمصاعب.

رجعتُ إلى الفندق، لأجد أن الساعي الذي يجلب نشرة السفارة قد تركها لي في الاستقبال، فأخذتها وجلست بها في اللوبي أتصفَّحها، ولاحظتُ خبرًا صغيرًا يندسُّ بين الأخبار المترجمة، لا يزيد عن خمسة أسطر، يقول إن سلطات الأمن في بون أعدَّت كمينًا لعميل من عملاء النظام الحاكم في رومانيا، جاء لملاحقة اللاجئين السياسيين الهاربين من قبضة الرئيس «شاوشيسكو»، أثناء لقائه بضابط في الأمن الألماني، أغراه بتلقِّي رشوة لتسهيل الوصول إلى أحد هؤلاء المعارضين.

كان هذا هو كل الخبر الذي أرسل ارتجافةَ خَوفٍ هزَّت كياني، ورأيت أن أكثر جوانب هذا الخبر رُعبًا، ليس العملاء الذين يرسلهم «شاوشيسكو» إلى مُلاحَقة خصومه في ألمانيا، ولكن هو هذا الرجل الأمني الألماني، الذي لا بُدَّ أنه واحد من العناصر المكَلَّفة بحماية المعارضين، بمعنى أن الغدر يمكن أن يأتي من هذه الحلقة التي تحيط بـ «أوليفيا» وأسرتها، ويصبح الرجل الموكول بحمايتها هو مَن يرسم الخطة لقتلها أو خطفها. الخبر، كما بدا لي في تلك اللحظة، ليس إلا عنوانًا لقصة كبيرة، وأن المُعارِض المُستَهدَف في هذه المؤامرة ليس إلَّا الفيلسوف نفسه، لأنه لا وجود لمُعارِضٍ أكثر منه أهمية، ولا أكثر استقطابًا لحقد الرئيس الروماني، وأن هناك تحقيقًا يجري الآن مع هذا الضابط الألماني، والجاسوس الروماني؛ لكشف بقية أعضاء عصابته، وجاء الخبر مختصَرًا لأن الأمن لا يريد أن يتطوَّع بمزيد من المعلومات التي قد تفيد أجهزة الأمن

الرومانية، خاصة المتواجدين في ألمانيا، ممَّن سيعملون بالتأكيد على حماية أنفسهم، بالهروب من البلاد، إلا مَن تمَّ كشفه وضبطه والتحفُّظ عليه في السجن.

ويبقى احتمال مَن لا زال حُرًّا، ولا يستطيع الهروب، لأن اسمه موجود في كل المنافذ؛ هذا هو خميرة الشَّرِّ الآن، فهي لحظة يأس وحصار، يتحوَّل فيها إلى ذلك القِطِّ الذي يعالج الحصار بمهاجمة مهاجميه، بمعنى أن بعض أعضاء هذه العصابة قد يقومون بفعل طائش يائس، وهم يتعرَّضون للملاحقة واحتمالات القبض عليهم. وخشيتُ أن يجرَّ الخبر تَبِعاتٍ يكون بينها تغيير البرنامج المسائي الذي نالت عليها «أوليفيا» الموافقة الأمنية، فقد يتمُّ إلغاء ذهابها إلى الحفل التنكري، وربما يطال هذا التغيير غذاء الغد في بيت السفير.

هذا الظَّنُّ بإمكانية تغيير برنامجها لم يجعلني أفكِّر في إلغاء الذهاب إلى فندق «كابيها جراند»، سأذهب، وسأرى إن كانت ستأتي، وإن لم تستطع، فستكون فرصة للمشاركة في حفل على جانب من التسلية والإثارة، وأنظر ما تسفر عنه الأيام القادمة. وفي الموعد المحدَّد في البطاقة كنت أقف أمام قاعة الحفل، التي يتناثر فيها عدد من المبكِّرين بالحضور، يرتدون أزياءهم التنكرية، بعضها ملابس ملوك وملكات تعود إلى عهد الإمبراطورية الرومانية والبيزنطية، وكانت الفرقة الموسيقية تتصدَّر الصالة، تعزف ألحانًا يرقص على إيقاعها بعض الحاضرين.

تمهَّلتُ في دخول القاعة أنظر إلى الأقنعة، ووجدتُ أن هنا أقنعة كثيرة تتفاوَتُ طولًا وعرضًا لقناع الظبي، فاخترتُ أكبرها وأكثرها مَهابةً، وسألت البائعة أن تساعدني في ارتدائه وتثبيته فوق وجهي بإحكام وإتقان، ودلَفتُ إلى داخل القاعة الواسعة التي تتوزَّع فيها الإضاءة بشكل خافت، تخالطه ألوان صفراء وحمراء وزرقاء؛ لإضفاء جوٍّ فانتازي على المكان، ووجدتُ عددًا من الضيوف يستخدمون -مثلي- أقنعة الحيوانات، لاحظتُ بينها: الأسد، والنمر، والفيل، والثور، والحمار، والقط، والكلب... ووَجدتُ بعضهم ممَّن يقفون على البار يستعينون بالقصبة على ارتشاف الشراب؛ لأنهم لا يستطيعون رفعه إلى أفواهٍ تُغطِّيها الأقنعة؛ فاحتذيتُ بهم، ووَجَدتُ أن هناك ثَقبًا في القناع، لموضع القصبة، ووقفتُ مُتَّكِئًا على البار أمتصُّ شرابي، وأرقُبُ الراقصين.

اكتشفتُ أن هناك قوانين تخصُّ مثل هذه الحفلات التنكرية الكرنفالية، وهي أنه يمكن للأنثى أن تتقدَّم لتطلب من الرجل مرافقتها للرقص؛ لأن وجودها متنكِّرة يتيح لها حريَّةً لا تتوفر في حفلات الرقص الأخرى؛ فشخصيتها هنا محجوبة خلف قناع التنكُّر، ولأنني كنت أقف بمفردي؛ فقد كان سهلًا أن أكون هدفًا لمثل هذا الطلب، واعتذرتُ بمنتهى الأدب عندما تقدَّمَت امرأةٌ ترتدي ملابس الملكات، وتضع على وجهها حجابًا شفَّافًا يُظهِر جمال وجهها، قائلًا بأنني أستسمح صاحبة الجلالة أن أتأخَّر عن تلبية طلبها لبعض الوقت؛ لأنني خادمٌ لملكة أخرى، وما إن انصرَفَت عني حتى وجدتُ هذه المرة امرأة تتنكَّر في ثياب راهبة، وترتدي بُرنُسًا بُنِّيًّا يغطي كامل جسمها ورأسها، ولا يُبقي غير عينيها مكشوفتين، ومدَّت يدها تمسك بيدي، تريد أن تقودني إلى حلبة الرقص، فانتزَعتُ يدي من يدها، وأشَحتُ بوجهي عنها، فإذا بالراهبة تنفجر ضاحكةً، وتربِّت بقوة على كتفي، شاكِرةً لي هذا الحذر من الرَّاهبات، ولكنها -كما قالت- راهبةٌ مُزيَّفة، وليست

حقيقية، كما يقتضي الكرنفال، وأدركتُ وأنا أتطلَّع إلى عينيها وأنا أنتبه إلى صوتها، أنها ليست إلا المرأة التي أنتظرها، قائلة إنها لم تكن تريد أن تسحبني إلى الرقص، ولكن إلى ركن في المقصورات المحاذية للقاعة، نتناول فيه مشروبًا في هدوء، بعيدًا عن الضجيج، قبل أن يحين موعد المشاركة في حصَّة الرقص الجماعي التي تجدها أكثر تسليةً وإثارة ومتعةً من الرقص الانفرادي، وقلتُ لها أثناء انزوائنا في الركن المعتم خارج القاعة عمَّا أحسَستُ به من قلق وأنا أقرأ عن حلقة الجواسيس التي تمَّ ضبطها، وما تُشكِّله تلك الخيانة للضابط الألماني من اختراق أمني، ينقل الخطر من أعداء خارج القصر الذي تحتمي به، إلى أعداء داخل القصر، إلا أنها بَدَت زاهدة في الكلام عن هذه المخاطر والمواضيع التي تجلب الغُصَص، وتريد الانهماك في أجواء الحفل، وانتظمت حلقات الرقص الجماعي، حيث يضع الحاضرون أيديهم معًا، ويصنعون حلقة تدور حول راقصة من أهل الاحتراف، استُجلِبَت خصِّيصًا للقيام بهذا الدور، وتصنع تنويعة مع بقية المشاركين في الكرنفال، فهي عارية من أية ملابس، ذات مقاسات جمالية في جسمها وملامح وجهها وشعرها، لتضيف إلى أجواء التسلية والإثارة شعورًا بالشبق؛ يرفع وتيرة المشاعر ويلهب الرغبات الحِسِّيَّة بين الذَّكر والأنثى في هذا المحفل الذي يرقص على التخوم بين العوالم البدائية والعصرية، وبين حضارة الإنسان، والغرائز الحيوانية، وعندما انتهى الرقص، بما أثاره من هيجان الغريزة، وسرعة سريان الدم في العروق، أرادت «أوليفيا» أن ننسحب إلى ركن أكثر هدوء، فظننتها العودة إلى المقصورات المعتمة المحاذية للقاعة، ولكنني وجدتها تترك المكان كله وتتجه إلى المصعد، فقد حجَزَت غرفة يمكن استخدامها للراحة من صخب الحفل والرقص والتحرُّر من بُرْنس الراهبة، وفوجئت أنها لا تملك مفتاحًا للغرفة التي قامت بحجزها في الفندق، وإنما داست على الجرس، ففتح لنا البابَ عملاقٌ ببشرة شديدة الاحمرار، وأخذتُ خطوة إلى الوراء، وقد فوجِئتُ بمشهد العملاق الذي انشقَّ عنه الجدار، إلا أنها أمسكت بي تُرغِمُني على الدخول، قائلةً إنه ليس إلَّا واحدًا من جنود الحماية، وأدرَكتُ عندما دخلتُ خلفها أن المكان ليس غرفة، وإنما جناح به أكثر من غرفة وأكثر من صالون، وطاولة للأكل، وزهور، وكؤوس ومشروبات، فصَنعَت لنفسها كأسًا، وكأسًا آخر لي، ودعتني للجلوس. وأردتُ إرضاء فضولي حول موضوع الجاسوس الذي أثار قلقي، وفتحت موضوعه عند بداية لقاء الليلة، فقالت إن ما قرأته ليس إلا جبل الجليد الغارق في الماء؛ لأن هناك أعدادًا لا حصر لها من الجواسيس والعملاء، لا يأتون من رومانيا فقط، ولكن من مخابرات الدول المختلفة في الكتلة الشرقية، التي تعمل جميعها تحت نظام أمني وإجرامي واحد، وسقف يغطيها جميعًا؛ هو سقف الدولة الراعية للمنظومة الشيوعية: الاتحاد السوفييتي، وقالت إن جنود الحماية كانوا يريدون إلغاء خروجها إلى حفل الليلة، ولكنها أصرَّت بقوة؛ فاليوم هو عيد ميلادها، ولم تكن تستطيع أن تستجيب لنداءات البقاء داخل القصر؛ فقد كان هذا اليوم دائمًا يومًا للانطلاق، والمرح، وممارسة الحرية والانهماك في الأجواء الاحتفالية، وهكذا أرغمَتهم على النزول عند رغبتها، وقاموا بحجز هذا الجناح لها، على سبيل الهدية بمناسبة عيد ميلادها؛ لاستخدامه لليلة واحدة، وتوفير أقصى ضمانات الحماية والأمان له، وأضافت أنهم يريدون تدليلها قبل أن تُهدِر حياتها على مذبح الصراع المخابراتي بين الشرق والغرب. وأبديتُ احتجاجي لأنها لم تبلغني مُسبقًا بأنه عيد ميلادها فتحرمني من سعادة البحث عن هدية تليق بمجد جمالها، أقدِّمها في هذه المناسبة السعيدة، فقالت إن الهدية التي تريدها مني الليلة أكبر من الهدايا المتعارَف عليها في مثل هذه المناسبة، ودون أن تفصح عن نوع هذه الهدية،

اتَّجهَت إلى جهاز تسجيل تدير أغنية من تراث الأعراس الليبية، تصدح فيها الزغاريد وصوت المزمار الليبي المقرونة، وصخب الصاجات والدفوف، قائلة: «أليست هذه هي موسيقى الأعراس لديكم، لنعتبر الليلة عُرسًا إذًا».

دخَلَت غرفة النوم وعادت بعد أن خلعت برنس الراهبات، ترتدي قميصَ نوم من الشيفون الأبيض، شديد اللمعان، كأنَّ طيَّاته مصنوعة من أحجار الماس، يجعلها لامعة متوهجة، كأنها عروس في ليلة جلوتها، وقد اعتنت بوضع مكياج خفيف على وجهها زادها جمالًا وفتنة، دون أن يبدو فاقِعًا ومُبالَغًا فيه. ووضَعَت نوعًا من العطر، ما إن فاح عبيره في الجو حتى أحسَستُ به يثير غريزتي، ويضعني في حالة تحفُّز وشوق لعناقها، وبادَرَت هي بالاقتراب مني اقترابًا خطيرًا قاتلًا، وقالت بصوت مفعم بالأنوثة والغنج:

– لم تسألني عن الهدية التي أطلبها منك هذه الليلة؟

– اعتبريني الخادِمَ المطيع لما تريدين.

– كثيرون لا يُصدِّقون أنني ما زِلتُ في هذه السِّنِّ، التي أحتفل فيها الليلة ببلوغي سن الثلاثين، أحتفظ بعُذريَّتي. لا أدري حقيقةً لماذا فعلت ذلك، بينما كنتُ أرى زميلاتي يبدأن في ممارسة الجنس منذ مرحلة الدراسة الثانوية. وربما لجذور تربوية ريفية، دينية إلى حدٍّ ما، ربما لأنني أريد أن أبقى نقية، طاهرة، في نظر والدي ووالدتي، بحسب ما أعرفه عن نظرتهما للنقاء والطهارة. ولكن كل هذا قد تهاوى الآن وانتهى؛ لأنني أعرف، بعد الدخول في هذه الأزمة، أن حياتي مهدَّدة في أية لحظة، ولا أريد أن أغادر هذه الدنيا محتفظة بعذريتي؛ فالجنة لا تحتاج لمزيد من العذارى، وأرى أن حقي نحو نفسي يدعوني أن آخذ نصيبي من هذه الممارسة التي يُجمِعُ الناسُ على أنها مصدر من مصادر المتعة والفرح.

عرفت ما تهدف إليه، ورغم الإثارة التي أحسَستُ بها في بداية المشهد الساخن؛ عِطرًا وغنجًا، فلا أدري لماذا هاجمني الخجل القروي الذي تربَّيتُ عليه، يسحبني إلى ظلال صمته المقيتة، ولم أستطع أن أقول شيئًا أُبدي به حماسي لهذه الهِبَة الفردوسية التي تريد أن تَهَبَها لي.

لم يكن الأمر يحتاج إلى مزيد من كؤوس الفودكا المخلوطة بعصير الطماطم؛ مشروبها المفضَّل، حتى تنفكَّ عقدتي، وآخذها بين أحضاني، أروي عطش الشفتين إلى رضابها، قبل أن أحملها بين ذراعي، تزفني إلى غرفة النوم أنغام المقرونة وغناء الزمزامات، وإيقاعات الدفوف والصاجات، يعزفها أعضاء فرقة الفنون الشعبية الليبية.

رأيت أن اللياقة تقتضي أن أغادر الفندق بعد انقضاء السهرة معها، وألَّا أبقى طوال الليل؛ فهناك عدد من أعضاء الحراسة موجودون في الجناح، وسيحضرون صباحًا لإيقاظها، وربما يتفقَّدونها قبل ذلك، فأخذت منها الإذن، وهاتَفتُ الاستقبال لإحضار سيارة أجرة تقلُّني إلى فندقي.

ومشمولًا بنشوة الارتواء من ينابيع العشق، ذهبت إلى مهجعي، وسريعًا استغرقت في نوم عامر بالأحلام الجميلة، وعندما استيقظت صباحًا، بقيتُ مستلقيًا في سريري، أفكِّر في هذا التطوُّر المفاجئ في علاقتي بالآنسة «أوليفيا»، تطوُّرٌ مفاجئ جدًّا بالنسبة لي، نعم، لقد تطلَّعتُ دائمًا إلى تحقيق هذا الوصال معها، وعندما جاء، كان مباغتًا، وصاعِقًا، وفي لحظةٍ لم أتوقَّعها؛ إذ كان الخطر الذي يتهدَّد حياتها، وما حدث من مُستجَدَّات في ذات اليوم، قد أبعد هاجس الاتصال الجنسي عن خاطري؛ فالأولوية في مثل هذه الظروف لسلامتها، ولا ينصرف التفكير إلي غير أن تبقى بعيدة عن الأخطار، التي تستهدف حياتها، وكانت المباغتة الأولى في سلسلة المفاجآت أنها استطاعت أساسًا أن تخترق الحصار والأخطار وتنجز الوعد بالمجيء لموعدها معي، والمباغتة الثانية أنه عيد ميلادها، والثالثة أنها حجَزَت هذا الجناح الفاخر الباذخ لنومها، والمفاجأة الرابعة دعوتها لأن أدخل معها الجناح دون اعتبار لمن وجدناهم من جنود الحماية، ثم أُمُّ المفاجآت؛ تلك المشَقَّة بأنها اختارتني لأن أكون فارس الحب الذي يقطف الزهرة التي تعهَّدتها بالحماية والرعاية ثلاثين عامًا؛ زهرة عذريتها، في هذه الليلة المباركة، التي تقع في منطقة سديم الكون، مضيئة وجميلة، كأنها كوكب صغير بحجم حبنا، وعلى مقاس سريرنا، لا يتَّسع إلَّا لنا ولم تطأه أقدام كائن إنساني غيرنا، وقد أقفلنا أبواب كوكبنا على ضجيج وزحام ومخاطر ومؤامرات يزدحم بها الكون، لنتفرَّغ لممارسة حبنا.

كان يجب أن أكون حامِدًا شاكِرًا للسماء، وللظروف، وللمؤامرات نفسها، التي أتاحت لي أن أستطعم هذه اللحظات السعيدة، وأهنأ بعد ذلك باسترجاع لذَّتها، واجترارها، كما تفعل الإبل في الصحراء، ولكن للصحراء امتدادات في القلب والوجدان تجذبني إلى قفر صحرائها، وأشواك صبَّارها وعوسجها، لأسأل نفسي عن كيف انعكست هذه المبادرة التي جاءت منها وليست مني، على نفسية البدوي الليبي، المغموس في تقاليد وطين المجتمع الصحراوي وتقاليده. أعرف أن هناك تحفُّظات في هذا المجتمع، تنال من سلوك المرأة التي تتقدَّم بنفسها لاستدعاء المغامرة الجنسية، تُبادر بها وتدعو لها العشيق، أفكار أعرف أنها خارج السياقات التي تتصل بعلاقة الحب التي تجمعني بـ «أوليفيا»، وأنني أكثر نُضجًا وقدرة على الفهم، من أن أخضع هذا السلوك لطقوس وشروط وأحكام البيئة الصحراوية، ولا يجب أن أنظر إليه، إلَّا في ضوء ومناخ مجتمعات الحرية الشخصية، والتسامح المجتمعي، في بيئة حضارية أوروبية مثل رومانيا، وامرأة صانت نفسها وحافظت على عُذريَّتها، وقاوَمَت كل أنواع الغواية التي قابلتها في حياتها، منذ سِنِّ المراهقة إلى هذا اليوم، قد مارَسَت -بهذا السلوك، بمقاييس أهلها ومجتمعها- أعلى درجات التَّطهُّر والعفاف، ولم تصل إلى اتخاذ هذا القرار إلا تحت ضغط التهديد بالموت، وكان يمكن أن تختار رجُلًا من أبناء قومها، ينتمي إلى ثقافتها، ويدرك قيمة الهبة التي وهبتها إليه، إلا أنها انحازت إلى قلبها وإلى ما يختاره هذا القلب، وليس الحسابات الباردة التي قد يتدخَّل العقل في ترتيبها وضبطها، لقد رأتني وعرفتني بهذا القلب، ولم أكن بعيدًا عن الصدق وأنا أُعبِّر لها عن عمق العاطفة التي أحملها لها؛ ولهذا فإن هذا الاتحاد بين جسدَيْنا جاء ليكمل اتحادًا أكثر قوَّةً وعُمقًا؛ هو الاتحاد بين العواطف والقلوب، وأرى أن ليلة البارحة كانت بداية رابطة جديدة، تنقل العلاقة بيني وبينها إلى مرحلة أكثر قوَّةً ومَتانةً وأهمية من رابطة الزواج نفسها.

ارتديتُ ملابسي استعدادًا للذهاب إلى دعوة الغداء في بيت السفير، لأنني لم أتلقَّ هاتفًا يفيد بإلغائها أو تأجيلها؛ ومعنى ذلك أنها ستتمُّ في موعدها. وجدت نفسي أشكِّك في جدوى هذه الدعوة التي تضع عبئًا على الرجل، وعلى أهل الحماية، دون أن أرى هدفًا سوف يتحقَّق من ورائها؛ لأن عرض العقيد الليبي الذي جئت أحمله من طرابلس، كان منذ البداية يواجه طريقًا مسدودًا، ولا وجود لأي نوعٍ من التعاون بينه وبين الفيلسوف مستقبلًا، فلماذا الإصرار على مطاردة نهاية ميتة، ولماذا بالتالي عناء هذا الاجتماع على الغذاء. إنه لا يعني بالنسبة لي إلَّا إطالة أَمَد التسويف والمماطلة، فتنفع في إطالة أَمَد هذه المهمَّة، غير أنها مماطلة يمكن أن تحدث دون هذه الارتباطات التي ترهق الرجل وأسرته ومضيفيه، كان هذا رأيي حتى وصلت إلى بيت السفير؛ لأنني اكتشفتُ بعد أن حصل اللقاء أن للسيد «مفتاح» الحقَّ في توجيه الدعوة؛ لأنه استطاع أن يفتح مواضيع تجعلنا جميعًا نخرج بحصيلة من المعارف والمعلومات التاريخية في تعميق رؤيتنا للأحداث والوقائع، وكانت معرفة السفير بالتاريخ الحديث مفتاحًا للكشف عن هذه المعارف التي أفصح عنها الفيلسوف «فلوريان»، وكنت شخصيًّا في أقصى حالات الاستمتاع بالحوار الذي كان يدور بين اثنين يتميَّزان بسعة الاطِّلاع، وعمق التفكير، وقوة الإيمان بالعقل، وكان السفير يُعبِّر للفيلسوف الروماني عن استغرابه من استفزاز الحكم الشيوعي في بلاده للدين، لدى شعب كان على مدى العصور عميق الإيمان بدينه المسيحي، هو شعب رومانيا، كان للكنيسة في بلاده سُلطانٌ على العقول والقلوب يفوق نفوذ وسلطان الملك، وإذا كان الملك سُلطَةً دنيويَّةً كان من السهل أن ينساها الناس، بعد تأسيس النظام الجمهوري، فكيف ينسون دينهم المتجذِّر في عمق حياتهم وأرضهم، وكيف كان سهلًا استبداله بنظرية إلحادية هي النظرية الماركسية، فوافقه الفيلسوف على تحليله، قائلًا بأن الوجه الثاني للإيمان القوي العميق هو عدم الإيمان؛ لأن التطرف في الإيمان يمكن أن يَنتُج عنه كُفرٌ بهذا الإيمان، وهذا الكفر هو ما أصاب جيله من صبيان الأربعينيات، لحظةَ وصول الشيوعيين إلى الحكم، وفجَّر مفاجأة شديد القوة، عندما قال إن التمكين للشيوعيين لم يكن بعيدًا عن تواطؤ الكنيسة وتعاونها، فقد كانت الكنيسة ضلعًا في معاونة الشيوعيين على الوصول إلى الحُكم؛ لأنهم جاؤوا عندما كانت الكنيسة تعيش صراعًا على النفوذ مع الملك، وكان الاثنان يعيشان معركة تكسير عظام، فلمَّا رأت الكنيسة أن هناك قوة قادرة على الإطاحة بالملك لم تتردَّد في مناصرتها، وتأييدها في الفتك بالملكية وإسقاطها، وحاولت أثناء ذلك أن تعقد حلفًا سرِّيًّا مع الحزب، إلَّا أن الحزب لم يكن يستطيع أن يعترف بوجود هذا الحلف مع الكنيسة الأرثوذكسية في البلاد مع التزامه بالعلاقة الخاصة التي تَميَّز بها دونَ الأحزاب الشيوعية في بقية دول أوروبا الشرقية، وظلَّت الكنيسة في رومانيا تحظى بهامش صغير تمارس فيه اختصاصها، رغم وجود نظرية إلحادية تحكم البلاد.

كنتُ أعرف أن للسيد «مفتاح» اتصالًا قديمًا بالفكر الماركسي أثناء دراسته الجامعية في مصر، في أواخر الخمسينيات، وأنه لم يُعرَف عنه أنه تجنَّد في حزب أو صار داعيةً لهذا الفكر، وكان الهاجس الذي يؤرِّق الماركسيين العرب، هو إشكالية العلاقة بين هذا الفكر والدين، وإدراكهم أنه كان دائمًا الصخرة التي تتكسَّر على صَلابَتِها وقوتها جهودُ الرُّوَّاد الأوائل لهذا الفكر في العالم العربي، ولهذا واصل الحديث عن موضوع الدين؛ يريد أن يتعرَّف على المرجعيات التي وصل إليها

المفكِّر الروماني، الذي واصل حديثه قائلًا بأن الحماس ساقه دون تفكير إلى اتباع ما كان يقوله البيان الشيوعي وما تضمَّنَته كتب «ماركس» و«لينين» وما تُلخِّصه مقولةُ «الدين أفيون الشعوب»؛ ربما كانت المقولة صحيحة، في جوانِبَ بعينها، وأوقاتٍ بعينها، ولكن ليس في المطلق؛ فالحياة أكبر وأكثر زخمًا وقوَّة وتعقيدًا وتركيبًا من أن تكون عربة فوق قضبان تسير كما تجري عربات القطار، نعم، كما قال، للاعتراف بالحياة الواقعية والحاجات المادية والحسِّيَّة للإنسان، والعمل على سَدِّ هذه الاحتياجات، وتحسين الشرط الاجتماعي والاقتصادي، والارتفاع بالمستوى المعيشي، ولكن لا أحد يجب أن يُغفِل الروح أو يتناسى أن هناك حياة روحية للكائن الإنساني، واحتياجات في هذا الخصوص لا مجال إطلاقًا إلى شطبها وإلغائها، وإنكار وجودها، وأضاف، مؤكِّدًا على البُعد الروحاني، قائلًا إننا قد لا نصدق أن أول شيء طلبه من مضيفيه لحظة وصوله إلى بون، هو أن يرى كاهنًا كاثوليكيًّا؛ لأن العقيدة الكاثوليكية هي عقيدة أسرته، رغم أن الأغلبية في بلاده أرثوذوكس، وقد أراد أن يعترف أمامه كما يعترف أيُّ مسيحيٍّ مؤمن أمام كاهن كنيسته، فقد كان محرومًا من ممارسة هذا الطقس، ولم يكن ممكِنًا في رومانيا أن يفعل ذلك؛ لأنه سيكون أمرًا مُستَهجَنًا وغريبًا أن يقوم به أمين الفكر والتثقيف في الحزب.

ومبكِّرًا اكتشف أنه عندما تسلب الناس الإله الذي يعبدونه، وتسلب منهم إيمانهم؛ فإنَّكَ تسلب منهم الكثير، الذي لا يمكن تعويضه مهما حقَّقتَ لهذا الإنسان من المكاسب المعيشية والدنيوية؛ ولهذا فهو يتنبَّأ بانهيار هذه النظرية سريعًا، فهي قد أفلَسَت، وتمَّ إفراغها من محتواها، ولم يبقَ منها غير الشكل بعد أن جفَّت الروح، وهو لا يرى أنها تملك أفقًا لاستيعاب القيم الدينية والروحية وربطها بقيم العصر ومفاهيمه، لقد تأخَّر الوقت، بعد أن تقَولَبَت وتحَرَّفَت، ونخر فيها دود الفساد على أيدي أهل السلطة والنفوذ.

وعن علاقته بالطاغية «شاوشيسكو» وكيف بدأت قوية ثم تدهورت وساءت، قال إن الحاكم الروماني صار يجد صعوبةً في التعامل مع الكوادر القديمة في الحزب، من أبناء مرحلته العمرية، ومَن هم أكبر منه سنًّا، ويملكون أقدمية وأسبقية عنه في الحزب، رغم أنهم تحت إمرته، غير أنهم ليسوا من صناعته؛ فالطاغية غالبًا ما يتحوَّل إلى لاعب في مسرح العرائس، لا يريد إلا دُمًى تتحرَّك من خلال الخيوط التي يمسك بها، ولا تتكلم إلا عبر الحنجرة المستعارة التي يضعها في فمه، والتي تُنتِج أصواتًا تبدو كأنها مختلفة، بينما هي صوته وحده دون غيره، ومع الأيام تتعاظَمُ الأنا وتتضخَّم، وتزداد تورُّمًا، ويصبح صعبًا أن يرضى أو يكتفي بأن تمتثل الكوادر القديمة لأوامره، أو تجتهد في طاعته وتنفيذ تعليماته، إنه أصلًا لم يَعُد يريد أن يرى أحدًا يتساوى معه في الأقدمية أو الجدارة الحزبية، أو يعرفه عندما كان مجرَّدَ كادر صغير يتسلَّق سُلَّم السلطة من عتباته الأولية. فكان لا بُدَّ أن يحدث التناقُض، والتنافر، حتى لو بدا ظاهريًّا وجود توافُقٍ وانسجام.

ولم يكن السيد «فلوريان» تنقصه الصراحة وهو يعلِّق على هروبه، وعلى وجوده تحت الحراسات، التي تتولَّى المحافظة على حياته، قائلًا إننا في هذه الحياة، مهما سعينا للتحرُّر والانعتاق، فنحن لا نفعل شيئًا أكثر من أن ننتقل من قفص إلى قفص، وضرب مَثَلًا بانخراطه في الحراك السياسي ضد الملكية عندما كان يرى الحياة في كنف ذلك العهد قفصًا يريد لنفسه

ولشعبه أن يتحرَّر منه، ثم انتقاله إلى العهد الجديد، ووجوده في أعلى مراتب الحكم في بلاده، الذي صار يراه أيضًا قفصًا يتوق إلى التحرُّر والانطلاق بعيدًا عن قمع قُضبانه، وها هو قد فرَّ هاربًا من ذلك القفص، فأين هو الآن؟ لقد وجد نفسه يدخل قفصًا أكثر ضيقًا وإحكامًا، مُحاطًا بهذه الحراسات، وهذه التهديدات، وهذه المخاطر، وهو لا يشكو، وإنما يأخذ ما يحدث باعتباره جزءًا من طبيعة الأشياء، وهو ليس نادِمًا لأنه حارب الملكية والإقطاع، وليس نادِمًا لأنه ثار ضد قبضة الحزب وحُكم الزعيم الأوحد، وليس نادِمًا أو حزينًا لوجوده في ألمانيا يعيش وسط الملاحقة والتهديد بالقتل.

كان السيد مفتاح أكثر حصافةً من أن يفتح موضوع العرض الليبي على الرجل، ترك له حرية أن يعاود الحديث في الموضوع إذا كان له رأيٌ وإضافة، وإن لم يكن فإنه ليس مُجديًا ولا لائقًا التذكيرُ به، يكفي أنه أخذ عِلمًا به، وله حرية قبوله أو إهماله. كما تعامل بمنتهى الديبلوماسية مع الأمن الألماني الذي سبق مجيء الفيلسوف ليتفقَّد البيت وتأمين مداخله ومخارجه، وتفَقُّد حديقته وما يحيط بها، كما لم يعارض عناصر الأمن عندما جاؤوا بطبَّاخ يباشر طهي الطعام تحت إشراف زوجة السفير، وأبدى تفهُّمًا لكل طلباتهم وتحوُّطاتهم، عارِفًا بخطورة الأعداء الذين يلاحقون الفيلسوف ويتربَّصون به، حريصًا على أن يستجيب لكل ما يكفل السلامة والأمان لضيفَيْه.

ولم يكن صعبًا أن أنفرد بـ «أوليفيا» لأُسمِعَها بعض تراتيل الغرام التي قُلتُها عن صدق وعاطفة جيَّاشة نحوها، وباعتبار أن ما حدث بيننا الليلة الماضية كان يُمثِّل مرحلة جديدة في علاقتنا العاطفية، فقد كان لا بُدَّ أن أشير إلى ما يمكن أن نبدأ في تحقيقه من خطوات لتأمين مستقبل العلاقة؛ لأجعلها تعرف على وجه اليقين أنني أقف مع التزامي بالارتباط بها في علاقة زوجية تدوم بإذن الله مدى الحياة، فأسرَعَت تقول بأنها لا تستطيع أن تتكلم عن أي خطوة طويلة الأمد، وهي تعيش هذه الشروط الاستثنائية وهذا المناخ المشحون بالمخاطر، وأقصى ما يمكن، أو ما يجب أن نخطِّط له، لا يزيد عن مدة أسبوع، إن لم يكن أقلَّ من ذلك، عدا ذلك فهو أمر سابق لأوانه، قائلة بأنها لن تُفاجَأ، ولن يُفاجَأ والدها، إذا كان القاتل موجودًا يترصَّد بهما فور خروجهما من بيت السفير، إلَّا أن هذا التوقُّع المفزع لن يمنع –كما تقول– أيًّا منهما، أو غيرهما من أفراد الأسرة، أن يعيش حياته، وأن يتحرَّك في إطار محدَّد، وحسب مشورة أهل الأمن، رغم المخاطر والتهديدات.

وأبلغتني أنها ستهاتفني في فندقي، دون أن تحدِّد موعدًا لهذه المهاتفة، وفوجئت بها قبل مغادرة بيت السفير تسأل السيد «مفتاح» عن إمكانية انتقالي للعمل في السفارة بألمانيا؛ باعتباري صديقًا لأسرتها، وأستطيع أن أكون حلقةَ وصلٍ واتِّصال، وأبدى السيد «مفتاح» استعداده لمكاتبة الخارجية الليبية في الموضوع، باعتبارها صاحبة القرار في مثل هذا النقل والتعيين.

ولأنني أثق في سماحة قلب السيد «مفتاح» ورجاحة عقله فقد جلست معه بعد مغادرة الضيوف، وشرحت له السِّرَّ وراء حديث الآنسة «أوليفيا» عني، ومُطالَبَتها بانضمامي إلى البعثة، فقد سبق أن أخبرته بتورُّطي العاطفي معها، ولم أُخْفِ عنه حقيقة أنها منحتني نفسها ليلةَ البارحة، وأن الأمر إذا وصل إلى أن أرتبط معها بعقد الزواج فإنني لن أتردَّد في ذلك؛ فهناك براحٌ في مزرعة والدي يسع أولادي وأمَّهم، وسيكون سهلًا عليهم الاستغناء عني. فأجاب –ردًّا على طلب الانضمام

إلى البعثة– بأنه لا صعوبة الآن في تمديد المهمة في ألمانيا، وطالما لم يقطع الفيلسوف بجوابٍ يحمل الرفض، فإنه يمكن إطالة الحبل وتمديد المهمَّة ربما إلى عام أو أكثر من عام؛ لإعطائي فرصة البقاء وترتيب أمور هذه العلاقة، وضمان الوصول بها إلى النتيجة المرجوَّة، دون حاجة هذه الفترة إلى المطالبة بنقلٍ قد لا يجد القبول. نصيحته بالنسبة للعلاقة التي تربطني بالآنسة «أوليفيا»، فهو لا يرى داعيًا للقيام بأي إجراء حيالها في هذه المرحلة، ويرى أن أدعها تمضي في سياقها، والأيام –كما كان يقول– حُبلى بكلِّ جديد، وعامرة بالمفاجآت، خاصة في مثل هذا الظرف السياسي المتأزِّم الذي تمرُّ به عائلة الفيلسوف المنشقُّ.

تعمَّدتُ بعد خروجي من بيت السفير أن أتمشَّى قليلًا في تلك المنطقة السكنية العامرة بالأشجار، وجداول الماء، والنوافير، خاصة وأن الجو كان في تمام اعتداله، وقد غمرني إحساسُ السَّكينة والسلام، يبعثه في نفسي منظر الشجر والماء، إلا أن هذا الشعور تبدَّد فور أن أحسستُ أن ثمَّة خُطًى تتبعني، ولكي أبدِّد هذا الشعور المزعج بالمطاردة، أشَرتُ إلى أول سيارة أجرة أراها تمرُّ من الطريق العام، وركبت دون أن أحدِّد للسائق هدفًا، وإنما سألته أن يمضي في طريقه، وما إن اشتبهت في أن سيارة تلاحقني حتى أشرتُ عليه أن ينعطف مع أول شارع إلى الشمال، فإذا بالملاحقة مستمرَّة، وعاوَدتُ إصدار أمري إلى السائق بالانحراف إلى شارع جانبي، فوجَدتُ السيارة أيضًا تتبعني؛ فاخترت باب مركز تجاري ضخم، وسألت السائق الوقوف؛ لكي أدخل من بابٍ وأخرج من باب آخر، وهذا ما فعلته بأقصى ما أستطيع من سرعة، وركضتُ على سيارة أجرة في الشارع الآخر، وحدَّدتُ لسائقها هدفي، وهو إنزالي قرب الفندق الذي أسكنه، ولم أحاول هذه المرة أن أعرف إن كانوا قد تمكَّنوا من مواصلة الملاحقة أم فشلوا؛ لأنني هبطت من السيارة، لأختفي في إحدى الحانات؛ تمويهًا وتتويهًا، ودخلت مباشرة إلى دورة المياه أقضي بها فترة من الوقت، ثم خرجتُ أُسرع الخطى نحو الفندق، دون أن أشعر بوجود أية ملاحقة هذه المرة.

قرَّرتُ أن أقضي بقية اليوم في غرفتي بالفندق، أقرأ وأشاهد التليفزيون، وآخذ استراحة من هاجس الملاحقة، وإذا احتجتُ ليلًا إلى طعام فسأطلبه عن طريق خدمات الغرف، وفوجئتُ بهاتف يأتي من «أوليفيا»، وكنَّا قد اتفقنا أن يكون اسمها «هيراسترو»، وقبل أن أعرف ما تريد قوله سألتُها أن تنقل إلى والدها شديدَ امتنان السيد السفير بقبول الدعوة للغداء، وسعادتي الشخصية بأن أرى هذا التوهُّجَ الذي بدا عليه عقل والدها، وهذا الإبداع، والتفكير الأصيل العميق، الذي تجلَّى في حديثه أثناء اللقاء، وأن البشرية ستكون مدينةٌ له بالكثير لو اعتكف على صياغة هذه الأفكار في أطروحات جديدة، تجمع بين الفكر الليبرالي وإيجابيات النظرية الماركسية والجوهر النقي للدين؛ بحمولاته الروحية العرفانية، فقالت –ضاحكةً– إن والدها يعتبر أن هذه هي رسالته، أي تطوير وتحديث ما لحقه الجمودُ من أفكار كان يمكن أن تقدِّم الخلاص للإنسانية، وأن جزءًا من سبب المهاتفة يتصل بمثل هذا الموضوع، فضحكت، قائلًا: إذًا هي مكالمة فكرية، فلسفية، وكنتُ أظنُّها ذات منحًى رومانسي عاطفي! مؤكِّدًا لها أنني ما زِلتُ أستطعم تلك الليلة التي استضافتني فيها على موائد حبِّها، وأسبَغَت عليَّ شرف أن أشاركها الاحتفاء بعيد ميلادها بطريقة حميميَّة، ولا أستطيع إلا أن أواصل العيش في الأجواء السحرية الجميلة التي أحرص على استحضارها وتمثيلها، فأجابت أن سبب المكالمة هو أن والدها سيلتقي بأعضاء

جمعية فرانكفورت الفلسفية، وهي جمعية ذات مكانة عِلميَّة كبيرة وخطيرة في علم الفكر والفلسفة، وأنها ترى أنها تصلح مكانًا مناسبًا لاختبار مراجعاته وإسهاماته في تجديد الفكر الفلسفي، وستقضي الأسرة قرابة أسبوعين هناك، فسألتها إن كنت أستطيع أن ألتقي بها في فرانكفورت إذا سافرتُ إلى هناك، فقالت إنها زيارة سعت إليها الأسرة لتغيير الجوِّ، فاشترطوا أن تكون تحت برنامج أمني شديد القوة والصرامة، ولا وجودَ لأيَّة فرصة للتدخُّل فيه، وأبلغتها بوجود شيء أشعرني بأن هناك مَن يتابعني، وهي متابعة أنقل لها شكِّي في وجودها لمدى أهميتها بالنسبة لها، وسألتها إن كانت تجده مُمكِنًا أن تكون متابعة من سُلطات أمنية ألمانية، فقالت بأنها لا ترى داعيًا يدعو الألمان لمتابعتي؛ لأنني أتحرَّك بمعرفتهم وتحت أسماعهم وأبصارهم، ولا بُدَّ أن سيكوريتات، على عِلمٍ بالعرض الليبي الذي جئت به إلى والدها، ورأت أنني يمكن أن أكون خيطًا من الخيوط التي يستخدمونهم لرصد أسرتها، ورجتني أن آخذ أنا أيضًا حذري، في حين ستتولَّى هي إبلاغ الأمن الألماني بما قُلتُه لها، ووعَدَت بأنها سوف تهاتفني لحظة عودتها من رحلتها، إن كنتُ سأبقى في هذا المكان إلى ذلك الوقت، فقلتُ لها بأنني باقٍ في انتظارها إلى أن يتجدَّد اللقاء بإذن الله.

لا أدري لماذا أحسست بنوع من الراحة والاسترخاء تسبَّبَت فيه الرحلة التي تبتعد فيها «أوليفيا» وأسرتها عن بون؛ لأن وجودها هنا كان بالضرورة مصدرَ تَوتُّر وقلق وحالة استنفار تضغط على أعصابي، لا يمكن الإفلات منها، رغم التوق الدائم إلى لقائها، ولهفتي المتجدِّدة لسماع صوتها ينساب عبر أسلاك الهاتف؛ فهي تعطيني بهذا الابتعاد عن بون أيامَ هُدنَةٍ من استعارِ العواطف وتوقُّدها أثناء المواكبة المستمرة لحالتها، وارتباطي بكل ما يحيط بها من دوائر الخطر والحصار والتهديد بالتصفية، وهي تقيم في هذا الجوار.

وكان أمامي أن أتعامل مع هاجس الملاحقة الذي انتبهتُ إليه بالأمس، هل سأجده اليوم مستمرًّا، وكيف سأتعامل مع هذه الحالة التي لم يسبق أن جرَّبتها من قبل. هل أتناساه وأمضي في الحياة دون أن أقيم له اعتبارًا، أو أمنحه اهتمامًا، وكأنه لم يكن، كما أنني لن أستطيع إيقافه، وطالما أنني أعرف أنه لا يستهدفني شخصيًّا، ولا يسعى لإيذائي، ولا مصلحة له في إهدار دمي، وإنما هو -كما قالت «أوليفيا»- مجرَّد اعتباري خيطًا ربما يقوده إلى المكان الذي يبحث عنه.

رأيت أنه فعلًا يمكن صرف النظر عنه، خلال المدة التي ستغيبها «أوليفيا»، وليس أكثر من ذلك؛ لأن الخطر عندئذ سيطالها هي ويطالني أنا معها، وإذا أرادوا حقًّا تصفيتها فلن يكون لديهم رادع أو مانع في أن يحصل ذلك أثناء وجودنا في سيارة واحدة، أو جلوسًا على طاولة يتمُّ نسفها، وهو ما يجعل إيقاف هذه الملاحقة عندئذ مسألة حياة أو موت.

وجاءت قبل أن أغادر الفندق نشرة أقوال الصحف من السفارة، فجلست في اللوبي أطالعها، ووجدتها تحمل بين الأخبار الصغيرة المنزوية في هوامش الصفحات خبرًا من سطرين أو ثلاثة أسطر، يتَّصِل اتصالًا مباشرًا بالمهمة التي أقوم بها، وله تأثيره الذي لا مناصَ منه على السياق الذي ستأخذه، والمصير الذي ستؤول إليه، ويحمل في مضمونه درسًا بليغًا عن أسلوب تعامُل الطُّغاة مع بعضهم بعضًا، والتقنيات التي يتبعونها، والتي تتطابق تطابقًا كاملًا مع ما ينتهجه كل واحد منهم،

تحاكي بعضها بعضًا، وتعيد إنتاج الحيل والمناورات والأساليب الخسيسة في الممارسة السياسية الابتزازية «المفيوزية»، إذ يقول الخبر إن هناك مؤتمرًا لأحزاب اشتراكية في المعارضة، يُعقَد في بوخارست، بمشاركة زعيم من زعماء المعارضة الليبية، ولم يكن هذا الزعيم غير ضابط أعلن العصيان على العقيد الليبي، وقاد محاولة انقلابية للإطاحة به، وفشلت؛ ففرَّ إلى خارج البلاد، ليقود فصيلًا من فصائل المعارضة للنظام الليبي؛ هذا هو الرَّدُّ الذي يعرفه الحاكم الليبي، أجاد إتقانه قرينُه في الاستبداد وحكم الفرد: السيد «شاوشيسكو»، فقد عرف بالتأكيد أن عرضًا من القذافي وصل إلى عدوِّه الفيلسوف الهارب؛ فقرَّر أن يعطي صديقه الأثير درسًا، بأن يدعو أعدى أعدائه إلى عاصمته، ويقدِّم له الاعتراف الذي يحرق قلب القذافي ويهدِّد عرشه، ويتيح له منبرًا للتعبير، ويضعه على خريطة العالم، فليتفضَّل بالفرجة على كيف يكون الرد والمعاملة بالمثل.

أعرف على وجه اليقين أن حالة من الجنون سوف تعتري السيد العقيد، لحظة وصول الخبر إليه، وسيعرف بفضل الشفرة السرية الخاصة بالطُّغاة، والتي تجعلهم يجيدون قراءة بعضهم بعضًا، ويفهمون تصرفات وسلوكيات أحدهم الآخر، كلَّ ما تعنيه هذه الاستضافة؛ سيهيج، وسيعلو صوته في مجلسه الخاص يلعن العالم، ويلعن الضابط المعارض، ويلعن الرئيس الروماني الذي استضافه، ويقذف ما يجده أمامه من صحون وأطباق وأوراق إلى الأرض، وإذا كان الخبر قد جاء فجأة عن طريق التليفزيون فسيقذف الجهاز بما يجده أمامه حتى تتهشَّم شاشته، وكأن اختفاء المذيع الذي يقرأ النشرة سيكون بالتالي اختفاءً للمشكلة التي أزعجته، وصنعت له هذه الحالة العصبية، أمَّا إذا كان الخبر قد جاء في نشرةٍ أحضرها عون من الأعوان، فلن يَسلَم هذا العون من تلقِّي هو هذا الأداة التي قذف بها جهاز التليفزيون، يخرج فيها مُدمى الوجه، كما حصل في حالات كثيرة مشابهة انتابت العقيد مثل هذه الحالة الهستيرية، وسيعقب هذا الانفجار البركاني حالة من الهدوء توحي بأنه قد انتهت السَّكرة –كما يُقال– وجاءت الفكرة، ولن تكون الفكرة هي المواجهة، إعلان حرب إعلامية ضد الرئيس الروماني. ستكون الفكرة تكرارًا واجترارًا لما فعله سابقًا عندما تستخدم معه دولةٌ من الدول ورقة المعارضة؛ وهو الخضوع للابتزاز والتسليم بما تريد تلك الدولة، والانسحاب من أي عراك أو خصومة من هذا النوع؛ إذ لا مانع لديه أن يقدِّم التنازلات لأي حاكم؛ بهدف أن يقطع أي عون أو مساعدة على معارضيه الليبيين، وهو يستكبر دائمًا ويتعجرف ويدَّعي أنه بطل معارك كسر العظام، وفاتح بوابات الجحيم للخصوم، إلَّا أنه يتحوَّل إلى أرنب مذعور أمام حاكم أجنبي يستخدم ورقة المعارضة الليبية؛ فهو لا يطيق أن يرى حاكِمًا في العالم يتبنَّى مُعارِضًا واحدًا مهما كان ضئيل الشأن، ولن يطيق صبرًا حتى يذهب لاسترضائه بالموقف السياسي، أو المال، أو ادِّعاء الصداقة؛ لِوَأدِ تلك المناصرة، أو ذلك الدعم، أو تلك الحماية التي يمكن أن يقدِّمها حاكمٌ آخر إلى مُعارِضٍ ليبي، فردًا أو فريقًا، ولن يختلف الأمر مع هذه العلاقة التي فتحتها رومانيا مع معارض ليبي، ورغم أنه لا يعرف أن الفيلسوف «فلوريان» لا مجال لأن يقبل عرضه أو يرضى بالتعامل مع مشروعه، فإن ردَّ فِعله إزاء ما حدث، هو أن يسحب هذا العرض فورًا، وسيقتضي ذلك إرسال برقية إلى رئيس البعثة في بون، تطلب عودتي ووقف ملف الاتصال بالفيلسوف المنشق، ويجب منذ الآن أن أضع خطة لمواجهة هذه المستجدَّات، وكان أول شيء أفكر فيه هو الاتصال بالسيد «مفتاح»، الذي لا بُدَّ أنه قرأ الخبر في النشرة، ووصل إلى نفس النتيجة التي وصَلتُ إليها، وأخذت في الحال أول سيارة أجرة وجدتها أمام الفندق لإيصالي إلى السفارة.

قاومت بعض الأفكار التي ورَدَت على ذهني أثناء المشوار القصير إلى مكتب السفير، تدور كلها حول الانشقاق عن الحكومة، ومحاولة تدبير وسيلة للحياة خارج البلاد؛ فقد كثر انشقاق الديبلوماسيين الليبيين عن النظام في تلك الفترة، ولا بُدَّ أنني سأجد عَونًا من بعضهم لكيفية إعالة نفسي، ولكنني لم أشأ أن أستبق الأحداث، وأرجأت التفكير في الموضوع إلى ما بعد لقائي مع السفير، الذي وجدته قد قرأ الخبر ولم يستبعد ردَّ الفعل الذي تصوَّرتُه، قائلًا إنه لم يصل حتى الآن أيُّ شيء إلى السفارة له علاقة بهذا الحدث، ولكنه لن يتأخَّر كثيرًا، أمَّا عن إبطال العرض، فهو في رأيه تحصيل حاصل، بما نعرفه من موقف الفيلسوف «فلوريان»، إلَّا أنني أسرعتُ بتذكيره أننا لم نبعث إلى ليبيا بشيء يفيد برفض العرض، ربما لأننا لم نتلقَّ ردًّا صريحًا بهذا المعنى، وأضفتُ بأنه ليس دوري ولا دور السفير تسهيل مَهمَّة رئيس الدولة في ليبيا لكي يصل إلى القرار الذي يريده بيُسرٍ وسهولة، بل لعلَّ فائدة البلاد تقتضي ألَّا يصدر أي قرار بهذا الشأن، وهنا تدخَّل السيد «مفتاح» قائلًا، بشيء من الأسى المخلوط بالهزل، وقبل أن أصل بفكرتي إلى ختامها:

– ولا أي شأن آخر، وربما أفضل هدية يقدِّمها إنسانٌ إلى ليبيا هي ذبابة تسي تسي، تقرص الحاكم الليبي، وتصيبه بمرض النوم؛ فيريح البلاد من سَيْل القرارات والخطابات البائسة التي تنهمر على رؤوسنا مثل أمطار النار.

وأنهَيتُ شرح فكرتي له، وتوصَّلتُ معه إلى اتفاق هو أن أتولَّى إعداد تقرير عن دعوة السيد «فلوريان» إلى الغداء لاستكمال الحديث عن العرض المقدَّم له من ليبيا، وقَبِلَ الدعوة بترحابٍ وامتنان، وجاء إلى تلبيتها في بيت السفير لضمان السرية والخصوصية والأمان، وأقول في التقرير أيضًا بأن لقاء الغداء كان فرصةً ثمينة لأن نأخذ صورة عن التحوُّل الفكري الذي حدث للسيد «فلوريان»، والأطروحات الجديدة التي يقترحها، بعد رفضه وتقويضه للقوالب القديمة، والتعديلات والمراجعات التي قام بها للفكر الماركسي، وهو يرى ضرورة المواءمة بين إيجابيات الفكر الماركسي، وما يراه من إيجابيات في الفكر الليبرالي الرأسمالي، وخلق توليفة يدخل فيها الجانب الإيماني والروحاني، وقد شرح «فلوريان» –باختصارٍ– هذه الأفكار التي رأيناها تشكِّل ملامح طريق ثالث، يلتقي في نصف الطريق مع أفكار الكتاب الأخضر والنظرية العالمية الثالثة.

ولم أغادر السفارة إلَّا بعد أن أعدَدتُ التقرير، الذي أرفقه السفير برسالة إلى وزير الخارجية وأرسله بالشفرة الخاصة.

«دَعه يتقلَّب على نار الجمر» قُلت في خاطري، وأنا في طريق العودة إلى الفندق، فهو الآن بين إغراء المجد القادم مع تبنِّي فيلسوف ماركسي، صاحب مكانة عالمية، لأفكاره، وإنشاء مؤسَّسة دولية للتبشير بأطروحاته، كما يحلم ويريد؛ وبين خطر أن تكتسب المعارضة ضدَّ حُكمه موضِعَ قَدمٍ لها في دولة مثل رومانيا، ومع رجل له «شنَّة ورنَّة» في الدنيا مثل «شاوشيسكو». ومهما كان الإجراء الذي سيتَّخِذه العقيد، فسيكون مؤلِمًا، فاجعًا، وسيتخذه بكثير من الألم والإحساس بالخسارة، ولن يكون بالتأكيد غير سحب العرض الذي أرسلني لتقديمه إلى الفيلسوف، وهو قرار لن يكون سهلًا ولا سريعًا، وسيحاول أن يلعب على الوقت، وتأجيله قدر استطاعته؛ بأمل أن يلحظ انفراجة تأتي بها الأيام القادمة. نعم، ليلعب على الوقت كيفما يشاء، وما هذا التقرير نفسه إلَّا لعب على الوقت يوازي لعبه، ومحاولة لكسب أيام إضافية، قبل

أن يأمر سيادته بقفل الملف، وهو سيُقفَل بالتأكيد، سواء شاء العقيد أو لم يشأ؛ لأن شهادة وفاة المشروع كُتِبَت قبل شهادة ميلاده.

وكان مفيدًا كتابة التقرير وإرساله مُشفَّرًا بهذه السرعة، واستباقًا لأي قرار من ليبيا؛ ممَّا يُفسِّر بعد ذلك هذا التأخير لردِّ فِعل العقيد على وصول المُعارِض لحكمه إلى بوخارست، الذي كنَّا نتوقَّعه سريعًا لإغلاق الملف، ولكن التقرير أربكه بالتأكيد، وساهم في تأخير رسالته إلى المكتب. وتوالت في وسائل الإعلام وفي الصحافة أخبار مؤتمر الأحزاب الشيوعية والاشتراكية التي تنتمي إلى المعارضة، وتقيم مراكزها في المنافي، والمنعقد في بوخارست، دون تركيزٍ خاصٍّ على وفد المعارضة الليبية؛ باعتباره لا يشكِّل قيمةً إخبارية، ولا يمثِّل غير فصيل صغير من فصائل المعارضة ضد العقيد، وكان وجوده مجرَّدَ إشارة، رسالة تلقَّاها رئيس النظام الليبي، والكرة الآن في مرماه، إذا أراد أن يبادر بإصلاح خطئه.

وكان أمامي أسبوعان قبل عودة «أوليفيا» إلى بون، لا شيء يشغلني فيها، ولا عمل غير أن أتسكَّع في شوارع بون، وألعب لعبة الاستغماية، عندما أتذكَّر أن هناك مَن يلاحقني، وكأن مركز المدينة الذي يعجُّ بالمقاهي والمطاعم والمباني التاريخية ويمرح الحمام في ساحته الرئيسية، هو الملعب المفضَّل لي؛ فهناك تلتقي شبكة من الشوارع وتفترق في مختلف الاتجاهات، حيث يسهل استعمالها في معاكسة المكلَّفين بملاحقتي، والهروب منهم والاختفاء في زواريبها الضيقة، وبينها الشارع الذي يعجُّ بالزحام؛ بحيث يصبح مستحيلًا لإنسان أن يميِّز إنسانًا آخر، وهو الشارع الذي يقع فيه بيت بيتهوفن، الذي صار متحفًا يحتفظون فيه بذات البيانو الذي عزف عليه سيمفونياته عند تأليفها، وكان صديقي محمود يتواصل معي، عارضًا سيارته وصحبته، إلا أنني كنت أحاول ألَّا أكون عبئًا عليه، فأقول له إنني أعرف كيف أشغل أوقات فراغي، دون حاجة إلى عونه؛ لأن له أُسرَة، هي الأَوْلى بأن يقضي وقته معها، وفعلًا لم أكن أعاني ضجرًا من وجود الفائض من الوقت؛ فالقراءة، ومشاهدة التليفزيون، والذهاب أحيانًا إلى السينما- يمكن أن تملأ أي مساحة أحسُّ بها بالفراغ.

تَصادَف وأنا أتوارى في إحدى الحانات هروبًا من الملاحقة أن وقع بصري على زميل قديم من زملاء الدراسة، كان سهلًا أن أتعرَّف عليه دون أن يعرفني؛ فقد كانت صورته لا تغيب عن الإعلام، بينما ساهم طول المدة على عهد الدراسة في تغيير الملامح بحيث يصعب عليه هو أن يعرف مَن أكون، حتى أُفصِح له عن نفسي، وقاوَمتُ رغبتي في أن أذهب إليه وأقدِّم له نفسي، وأُذكِّره بسنوات الزمالة التي ربطتني به. تركته وغادرت الحانة إلى حانة مجاورة؛ لأن الرجل ينتمي إلى إحدى فصائل المعارضة، وكان سبب ظهوره في الإعلام أنه الناطق الرسمي باسم ذلك الفصيل، ورأسه بالتأكيد مطلوبٌ من النظام، والاختلاط به، ولو عن طريق المصادفة، يشكِّل خطرًا يصل إلى القتل لو تسرَّب خبره إلى الأجهزة الأمنية الليبية، فما أكثر ما كانت مثل هذه المصافحة لمعارضٍ خارج البلاد، التي تتمُّ صُدفَةً، وبحُسن نيَّة، في موت صاحبها تحت التعذيب، والحقيقة أنني شخصيًّا لم أكن أقيم اعتبارًا للسياسة، ولم أخرج من اهتماماتي المعيشية، لأخصِّص جزءًا من وقتي وعقلي لأفكر فيها، أو في الطريقة التي تدار بها البلاد، خاصَّةً وأنه لم يحصل أي تماس بين أسرتي وبين الدولة، ولم يَنَلها الأذى الذي لحق بأناس آخرين، مثل تلك العائلات التي تنتمي لشرائح نالها التأميم والمصادرة. انتسابي إلى الخارجية، ثم خروجي للعمل في بعثة

ديبلوماسية، لم يجعلني أزداد قربًا من السياسة أو أُكثِر اهتمامًا بها، أو غَيَّر في مشاعري سلبًا أو إيجابًا، لستُ إلَّا مُوظَّفًا جاء للعمل بغرض تحسين الدخل، وتوفير مبلغ يتيح لي أن أبني بيتًا عصريًّا داخل أرض المزرعة، حيث تعيش أسرتي مع بقية فروع الأسرة الكبيرة التي أنتمي إليها، هذا هو الهدف والمسعى، حتى التورُّط بهذه الصيغة وهذا الشكل إنما جاء مَحض صُدفَة، ورأيت في جانب من جوانبه، خاصَّة في بداية هذا التورُّط، عملًا قد عَزَّز مركزي الوظيفي، ثم دخل الجانب العاطفي، الذي بدا مجرَّدَ انفعال بجمال ابنة الفيلسوف، ثم تضاءل الجانب الوظيفي، وتنامى الجانب العاطفي، وها هي الأوضاع تتطوَّر إلى أن وضعتني في قلب الميدان الذي تلتقي عنده شبكة الشوارع السياسية والعاطفية والأمنية، بكل تلويناتها ومنعرجاتها واتجاهاتها، وصِرتُ أجد نفسي داخل الساحة التي كنت أهرب منها، وأكتشف أنها ليس مجرد سياسة، ولكنها الحياة، فكيف يهرب الإنسان من الحياة، وهي أيضًا الوطن، فكيف يهرب الإنسان من همومه الوطنية، ثم هي بعد كل شيء وقبل كل شيء الوجدان والضمير، فأين المفرُّ من أرض له وسماء؟ كما يقول التعبير العربي الشهير، وها هو المثل الحي أمامي، هذا الفيلسوف الذي لم يستطع النفوذث والجاه والثراء والحياة الرغدة أن تنسيه مسؤوليَّته نحو ضميره، ومسؤوليته نحو وطنه؛ فيجازف بحياته وحياة أسرته، ويترك منصب الرجل الثاني في البلاد، ويُقدِم على الانشقاق والهروب وسط الملاحقة بالموت والتصفية، ثم السيد «مفتاح»، نعم هو سفير ليبيا، ولكنه سفيرٌ صاحب ضمير، وقد أخبرني زميله في العمل أنه ليس خافيًا على الدولة الليبية أنه صاحب رأي وصاحب موقف، ولكن حاجتهم إليه غلَبَت غضبهم على موقفه، إلى حدِّ أنه رفض أخيرًا دعوة للذهاب إلى البلاد، ومع ذلك لم يتَّخِذوا أي إجراء ضده، وقد رفض لأنه لا يريد أن يجد نفسه مُحتجَزًا هناك، ومراعاة لوضعه الخاص في ألمانيا لم تشأ الحكومة الليبية استفزازه وإشهار العداء نحوه، والمحافظة على ما يمكن تسميته شعرة معاوية إلى حدِّ الآن، ثم هذا الزميل الذي هربت من مواجهته في الحانة، المعارض للنظام الليبي، واسمه «اسكندر»، فيما أذكر، ممَّن وضعوا حياتهم في خطِّ الخطر، من أجل موقف، بل الناطق الرسمي السابق له في نفس الموقع مات اغتيالًا في اليونان، منذ عام مضى، فهل أستطيع الآن، وأنا على تَماسٍّ مع هذا المشهد بكل تفاصيله، أن أبقى سادِرًا في غفلتي، وأدَّعي جهلًا بمعنى السياسة، بكل ما تحمله من مضامين أكثر اتِّساعًا وشمولًا من المفردة اللغوية التي تشير إليها، بل إن المفردات جميعا ما هي؟ أليست مجرَّد رموز لشيء أكبر وأعظم من حروف الكلمة؛ ولهذا فإنني لم أعُد أقيس ما يحدث بمقاييس المنفعة الشخصية، أو أسأل عن العائد الذي سأجنيه من وراء ما يحدث، بدأت فعلًا، عبر تجربة الأيام القليلة الماضية، أرى الوطن واحترامي له، وأبحث عمَّا إذا كان ثمة قِسطٌ أساهم به، مربَّع صغير أقف فيه، وأقوم بتأكيد حضوري من خلاله، على الساحة الوطنية النضالية. لم أحسم أمري بعدُ في اتخاذ قرار الانشقاق على الحكومة، ولكنني بالتأكيد لن أكون على نفس الدرجة من السلبية، أمَّا الولاء فلم أكن أبدًا من أهل الولاء، وأنا الآن أعرف يقينًا أنني لا أستطيع، حتى لو أردتُ، أن أحفظ أي ذرَّة من ولاء لنظام صِرتُ قادرًا على أن أراه على حقيقته، وأن أرفع عصابة الغفلة وعدم الاهتمام بالشأن العام، التي كانت تحجبه عني.

وأخيرًا تغلَّب السيد العقيد على تردُّده إزاء التعامُل مع حركة الرئيس الروماني، وفي مكتب السيد «مفتاح» جلست أقرأ البرقية التي وصلَت من ليبيا، بعد ترجمتها من لغة الشفرة، والتي تقول:

«يُطلَب منكم تجميد التعامُل والاتصال بالمعارِض الروماني السيد (فلوريان بوبيسكو). كما يُطلَب من الموفَد لهذه المهمَّة العودة إلى طرابلس للتشاور واستلام التعليمات الجديدة».

قلتُ للسيد السفير:

– لا أستطيع العودة قبل أن أرى «أوليفيا»، بعد عودتها من فرانكفورت.

فأجاب بأنه لن تكون هناك مشكلة إذا تأخَّرتُ أسبوعًا آخر. وأنه يمكن أن تحجز لي السفارة موعدًا في إحدى المستشفيات؛ لإجراء مراجعة طبية، وإيجاد غطاء صحِّيٍّ لهذا التأخير.

ولم أكن أحتاج حقًّا لأن أتأخَّر لمدة أسبوع؛ لأنني في نفس اليوم، وبعد عودتي من السفارة، تلقَّيتُ مكالمة هاتفية من «أوليفيا» تبلغني فيها أنها عادت إلى بون، وأنها موجودة بالقصر الرئاسي، وستهاتفني في يوم آخر للاتفاق على موعد للقاء، فأبلغتها بأن هناك استدعاء لي من طرابلس، وأنني أرجأتُ السفر بانتظار أن أراها وأودِّعها حتى يحين موعد عودتي إليها مرَّةً أخرى، فبادَرَت إلى القول بأنه إن لم يكن لديَّ ارتباط في صباح الغد؛ فإنه يمكنني انتظار مرسول من طرفها عند الساعة العاشرة، فأسرَعتُ أردُّ بأن لا زمن لي خارج زمانها، وأن كل وقتي مُسخَّر لها.

وجاء في الموعد المحدَّد سائقٌ، ومُرافِق، انطلَقَا بي مباشرة إلى القصر الرئاسي، ولأنني كنت أتوقَّع لقاءً معها خارج هذا السياق الرسمي جدًّا؛ فقد وجَدتُ مشاعر الإثارة والفرح تتراجع وأنا أتجاوز البوابة الرئيسية للقصر؛ فهو لقاء تحت أبصار وأسماع الأجهزة الرسمية الأمنية، بل ورقابة الأب والأم، فاقِدٌ لشَرط الحرية الذي يحتاجه الحب، وكان ما تبقَّى من إحساس بفرحة اللقاء يتلاشى تمامًا وأنا ألتقي بـ «أوليفيا» في القاعة الفخمة، التي تشعُّ بألوان الأقواس الذهبية، وأراها وسط هذا البذخ الأسطوري، وقد تحوَّلَت إلى تمثال للبؤس والحزن. انطفأ التوهُّج في عينيها، واختفت النضارة وحُمرَةَ الصحة والعافية من وجهها، وكبرَت في العمر كأنها زادت عشرين عامًا، خلال هذا الأسبوع المنصرم، لم أتحرَّج في أن أحتويها بين ذراعي وأضمَّها إلى صدري، مُشفِقًا عليها، والحسرة تأكل قلبي، والدموع –لمرآها البائس– تكاد تطفر من عيني. والسؤال الحاد يحرق حلقي: لماذا، لماذا، لماذا؟ متسائلًا –في هلع ورعب– عمَّا حصل لها، وأحالها إلى هذه الدرجة من المرض والذبول. فقالت بصوت دامع حزين:

– حمدًا لله لأن الأمر انتهى عند الحد الذي انتهى إليه...

ودسَّت رأسها في رأسي تسألني أن يبقى ما ستقوله لي طيَّ الكتمان، رغم أنه ليس حقًّا سرًّا؛ فكثيرون عرفوه وشاهدوه، إلَّا أنه لم يُعلَن على المستوى الرسمي والإعلامي، فقد أدار والدها حوارًا ناجحًا مع مجمع من أهل الفكر والفلسفة، وأثناء العودة إلى مقر الإقامة اعترَضَت عصابة تنتمي إلى المافيا الدولية الموكبَ، ودارت معركة شرسة بين بلاطجة العصابة وبين قوة الحماية، وسقط عدد من القتلى من الجانبين، وحُسِمَت المعركة لصالح الأمن، ونجت هي ووالدها من الخطف أو القتل، وتمَّ القبض على بقية أفراد العصابة، الذين اعترفوا بأنها عملية مأجورة، يقومون بها لصالح الحكومة

الرومانية. وهي لم تكن -كما قالت- في حالة صحية أو نفسية تسمح بمثل هذا اللقاء، بل هي تتلقَّى جلسات علاجية على الصدمة من أهل الاختصاص النفسي، ولم تكن تريدني أن أراها في هذه الحالة، إلا أنها في نفس الوقت لا تريدني أن أسافر دون لقاء. كان التحوُّل الذي حدث كبيرًا، إلى حدِّ أنني وقفتُ متردِّدًا إن كانت هذه أوليفيا التي أعرفها، أم امرأة أخرى؟

أبديت لها شديد أسفي وحزني لأن أسمع هذا الكلام. وقلت لها إن كل ما في قواميس اللغة من لعنات لا تكفي لرميها في وجه الطاغية الذي كان وراء هذا العمل الإجرامي، بكل ما فيه من خِسَّةٍ وقبح ودناءة، فوالدها لم يستهدف الطاغية بالسلاح، وإنما هو رجُل فِكرٍ وسلام وحوار، وكل ما أراده هو أن يتحرَّر من الأقفاص والجدران التي تسجن فكره وعقله، فكيف يجرؤ هذا الرجل المريض الذي يحكم رومانيا، أن يستخدم ضده المافيا، وأساليبها التي تنتهجها مع العصابات الأخرى في التصفية والقتل؟! فقالت إن ما أحزنها حقًّا هو دم الأبرياء من جنود الحماية الذي أُهدِر ظُلمًا وإجرامًا، وبينهم أناس -كما قالت- صاروا أصدقاء لها ولأسرتها.

أخبَرَتُها بالمماحكات التي حصلت بين طاغية رومانيا والطاغية الليبي، فلم تَعتَنِ بالسؤال عن التفاصيل، وإنما قالت بأنه لن يطول بينهما الخصام، فسوف يتّفقان، وسيكون اتفاقًا على حساب الشرفاء من أبناء البلدين؛ لأنهما ينتميان إلى معسكر الشر، ولا وجود لما يوجِبُ الخلاف بينهما. وأردت أن أبعث في المشهد الذي يغطيه رمادُ البؤس والخطر بصيصَ شعاعٍ من الأمل، وأن أحاول أن أكون محامي الخير الذي لا بُدَّ أن ينتصر، فوجدتها تسخر من فكرة انتصار الخير؛ لأن أهل الشر عُصبَة قوية شديدة البأس والاتحاد، تربطهم مصالح دنيوية، لا يستطيع أهل الشرف والزهد والصدق مُسايَرَتَهم فيها، أو استخدام وسائل الإجرام والسقوط التي يستطيعون استعمالها، فهم المنتصرون دائمًا؛ لأن العالم الأرضي عالمهم، عالمٌ أعطى فيه خالقُ الكون الحرية لإبليس، وأمهله إلى يوم القيامة، وجعلها دارَ ابتلاء لأهل الخير ومناصريه.

لم أكن أستطيع لومها على مثل هذا التفكير، مُقدِّرًا المحنة التي مرَّت بها، كل ما استطعت أن أقوله في خاتمة اللقاء هو تجديد التهنئة بسلامتها، وسلامة والدها، آمِلًا أنني لن أغيب في طرابلس طويلًا، وأنني عندما أرجع سأجدها قد استعادت عافيتها وصحتها ونظرتها المتفائلة للحياة، مُقبِلَة عليها بحماس وحبٍّ.

خرجتُ عائدًا إلى الفندق، وحديث الابتلاء ومعسكر الشر ووحدته القوية يملأ رأسي، فقد كان هذا اللقاء نفسه اختبارًا من نوع آخر، وابتلاء وضعه الله في طريق مشاعر الحب التي أحملها لهذه المرأة، نعم، أملك يقينًا بأنني أحبُّ «أوليفيا»، إلا أن هذا اليقين عاش ارتجافةً صغيرة ضئيلة، وأنا أراها على صورتها التي ظهرت بها في اللقاء، وكِدتُ لا أعرف أنها هي، بعد أن مرَّت بهذه التجربة المؤلمة الفاجعة التي خرجت منها دون أن ينالها خَدشٌ في جسمها، إلا أن حاصل الطرح بين ما كانت عليه، وصارت إليه، حاصلٌ كبير في حسابات الفتنة والأنوثة والأناقة والصحة والجمال. أعرف أن انبهاري بها بدأ وأنا أراها فَراشَة من فراشات الحياة، تخفق بأجنحتها الملوَّنة، وتسبح حُرَّةً طليقة في حديقة من حدائق

الربيع. وعلى هذه الصورة فُتِنتُ بها. انبهرت بصورتها الجميلة. وتحوَّل هذا الافتتان اللحظوي. وهذا الانبهار، إلى تجاذُبٍ عاطفي، بيني وبينها. وتنامى تدريجيًّا حتى صار حُبًّا. أحدث تحوُّلًا في حياتي، وملأ عالمي بألوان بهجته، وملك عليَّ عقلي وقلبي، وحقَّق اكتماله بما لقيته من استجابة من طرفها، وما منحتني إياه من ثقة مطلقة، إلى حدِّ اختيارها لي لأن أكون عريس الحب الذي تلتحم به روحًا وجسدًا، وتختاره ليقطف زهرة هذا الحب وهذا الجمال.

الحب الكبير، العميق، الذي يحوطه الجمال والجلال، كما تقول شواهده التي تنقلها القصص ويتكلم بها التاريخ، لا تُضعِفُه التَّحوُّلات التي تحدث على شكل الحبيب. وإنما تزيده قوَّةً وعُمقًا. فلماذا -أسائل نفسي وأعنِّفها- كانت تلك الارتجافة التي باغتتني، وهزَّت يقيني بحبي لها، عندما رأيت شكلًا يخالف شكل فراشة الحب التي تخفق بأجنحة البهجة والسعادة، وترتدي ألوان الصِّبا والجمال؟ نعم، بَدَت لي صورتها في تلك اللحظة، كأنها صورة امرأة غير تلك التي أحببتها، فهل يمكن بالتالي أن يتبدَّل حبي لها لأنني رأيتها على تلك الصورة، هل سأنفر ممَّا بدا على شكلها من هزالِ مَرضٍ وضعف وخوف وبؤس. أم لعلَّ التَّحوُّل حصل في مشاعرها هي وانتقل لي بحكم العدوى. مع الشعاع الأزرق الجميل الذي يتجلَّى في عينيها، كان ما رأيته يسكن عينيها هو الرعب، رعبٌ ساحِقٌ ماحِقٌ، لم يكن ممكنًا أن يترك مساحة لأي شيء آخر، يطلُّ من نافذة العينين.

لم يكن هناك ما يجعلني أرجئ سفري إلى طرابلس، خاصة وأن الأشباح التي تلاحقني وتتبع خطوي في بون، لا تختفي يومًا إلَّا لتظهر في اليوم التالي. فكان ذلك حافزًا للإسراع بالسفر؛ لكي أريحهم وأريح نفسي، وكنت أعرف أن رحلتي إلى طرابلس هذه المرة، تختلف تمامًا عن أية رحلة سابقة قُمتُ بها إلى عاصمة بلادي؛ إذ كنت واثقًا أنها رحلتي الأخيرة إليها في ظل النظام الحاكم، ولأنني لا أعرف إلى أي مدى سيدوم، فقد تكون هذه هي الرحلة الأخيرة، هي آخر مرة في عمري أرى فيها المدينة التي وُلِدتُ فيها وعشت فيها طوال عمري، عدا سنوات العمل القليلة خارج ليبيا، وهي رحلة ضرورية لترتيب كثير من الأمور، لكي أترك مدينتي دون حاجة بي إلى أن ألتفت إلى الوراء، في أسف وألم، لا بُدَّ من الرحلة إذن؛ لحسم موقفي مع النظام، وربما حسم موقفي مع أشياء أخرى خارج الإطار السياسي، على المستوى الشخصي والعائلي وشؤون القلب. لم أكن أريد أن أخفي عن «أوليفيا» أنني متزوِّج، وعندي طفلتان، إلا أنها لم تكن ترغب أن نتطرَّق إلى أي موضوع يشير إلى المستقبل، كلمتها المفضَّلة دائمًا هي: «يكفينا الحاضر الذي بين أيدينا»، وازداد هذا النفور من الحديث عن المستقبل حِدَّةً، بعد اللجوء إلى ألمانيا. ولكنني أراها قضية لا بُدَّ من حسمها؛ لصالح المستقبل، الذي لا أستطيع أن أُسقِطَه من حسابي، بعد أن قرَّرتُ إسقاط الماضي، وأيضًا إسقاط الراهن الذي أعيشه، لأقطن المستقبل، ورغم معرفتي بما يحيط هذا المستقبل من غموض، وما يتَّشِح به من ضباب، ولا أستطيع في هذا الوقت أن أتبيَّن منه أكثر من موقع خطوتي القادمة، ولكن حالي هو حال مَن يسكن بيتًا صار مُهدَّدًا بالسقوط، وبدأت أحجاره تتحرَّك وأطراف منه تنهار، والتراب والغبار ينهمر من سقوفه، فلا خيار أمامه غير الهروب من بين جدرانه؛ طلبًا للنجاة، دون تفكير في ماذا يكون البيت البديل.

وجدت ثناءً وتقديرًا واعترافًا بنجاح المهمة من السيد أمين الخارجية، بل جازَفَ بنقل رضا الأخ العقيد على ما تمَّ من اتصال، وما حصل من استجابة، وأشار إلى البرقية التي تطالب بتجميد الاتصالات، وعَزَا ذلك إلى أن المصلحة العليا للوطن قد تأخذ الأولوية أحيانًا على القضايا الفكرية والأيديولوجية، ولم أجده متحمِّسًا للسؤال عمَّا تمَّ في لقائي مع الفيلسوف المنشق؛ فرأيتُ ألَّا ضرورة لأن أقول شيئًا أضيفه لما أوردته في التقارير التي أرسلتها إليه عبر السفارة، وكان همِّي هو أن أعرف الخطوة القادمة، وكانت الخطوة القادمة، كما أبلغني، تكملة لاتصالات جرَت بين ليبيا ورومانيا، تمَّ خلالها الاتفاق على العودة بالعلاقات إلى ما كانت عليه قبل الاتصال بأطراف المعارضة من الجانبَيْن، وبمثل ما سحَبَت ليبيا عرضها للفيلسوف «فلوريان»، وأوقَفَت اتصالها به؛ فكذلك أوقَفَت رومانيا أي تعامل مع الضابط المنشق، وطلَبَت منه إذا أراد البقاء في رومانيا الامتناعَ عن أي نشاط سياسي، وإلَّا فإن عليه أن يغادر إلى أيَّة بقعة يشاء. وقد طلبت ليبيا من رومانيا إعادته إلى ليبيا، بل وعرَضَت عليها أن تطلب أيَّ ثمن مقابل ذلك، إلا أن رومانيا رفَضَت الدخول في نقاش حول هذا التسليم، إلا إذا أراد الضابط المعارض السفر بإرادته واختياره الحر إلى ليبيا، وفي هذا السبيل فإن رومانيا لا ترى مانعًا من إرسال عنصر ليبي للتفاوُض حول إنهاء انشقاقه ومعارضته، وفعلًا رشَّحَت ليبيا أكثر من عنصر من زملائه القدامى، يذهب إلى لقائه، إلَّا أنه رفض رفضًا قاطعًا أن يلتقي مع أي وفد ليبي.

وهنا نظر بتركيز نحوي، قائلًا إنه لم يَبقَ إلَّا رجل المهمَّات الصعبة، لكي يتولَّى هذا الملف، وأشار بما يعني أنه يقصدني أنا، فطلبتُ منه شَرحًا لهذه المهمة الصعبة التالية التي يرشِّحني لها، فقال بأنها العودة إلى سابق عملي في رومانيا، ومن هناك أسعى للقاء المعارِض الليبي، ليس باعتباري موفَدًا إليه من طرابلس، وإنما باعتباري عضوًا في البعثة، ومواطِنًا ليبيًّا يريد الالتقاء بمواطن تحت إشراف وحماية الأمن الروماني؛ لكي أنقل له رسالة تفيد بأن ليبيا ليست احتكارًا للعقيد، ولا لأحد من العاملين في دولته وحكومته، وإنما هي ملكٌ لأهل الولاء، وأهل المعارضة على السواء، وأن الوطن غفورٌ رحيم، وأنه ستسقط –فور موافقته على العودة– كلُّ التُّهم ضدَّه، وتُعاد له أملاكه المصادَرَة، ويُعاد له الاعتبار علنيًّا، بل يستطيع أن يعود إلى منصبه عضوًا في القيادة التاريخية، بكامل امتيازاته. مقابل شيء واحد؛ هو العودة إلى البلاد، حتى إذا كان له رأيٌ مُخالِفٌ فليتفضَّل بقوله داخل قبَّة المؤتمر الشعبي الأساسي؛ تأكيدًا للنظرية الجماهيرية ومناداتها بحقِّ المواطن أن يتكلَّم عن أي شيء داخل المؤتمر.

رأيت في مقالة الوزير مُهلَةً مفتوحة أخرى لترتيب الأمور، وفقَ الخُطَّة التي أرسمها لمستقبل حياتي؛ فاستجبتُ، قائلًا بأنني سأبذل كل جهد أستطيعه للوصول إليه وتبليغه هذه الرسالة، وسؤالي الوحيد عن الضمانات التي تقدِّمها له الدولة؛ لِيَقيني أن هذا هو السؤال الذي سيردُّ به على هذا العرض، فقال الأمين إن أي ضمانات ستكون بالاتفاق والتنسيق مع الرئيس «شاوشيسكو»، الذي لن يَكرَه أن يراه العالم في دور صاحب المصالحات التاريخية، يأتي بنفسه ليكون شاهِدًا على تعهُّدات العقيد بأن الرجل سيكون محلَّ احترام وتقدير وترحيب.

كنتُ أستمع إلي، وأنا أطوي قلبي على قراري بأن أكون خلال هذه المهمَّة نفسي. لستُ مُمثِّلًا ولا مندوبًا لهذا النظام، ولا ناقِلًا لأية رسالة من رسائله؛ لأنني أعرف أنه نظام مُخاتِلٌ، خادع، كاذب، فلماذا أكون شريكًا في هذه الشبكة من الزيف والأباطيل؟!

قضيتُ أيَّامًا في طرابلس، أودِّع الأصدقاء والأقارب، وربما الحجر والشجر وشاطئ البحر؛ لأنه وداعُ مُفارِقٍ، قد لا يعود، واضِعًا بين عينيَّ احتمالَ أنني قد لا أستطيع العودة فيما بقي من عمر إلى هذه البلاد، ومارَستُ حياة طبيعية مع زوجتي والطفلتين، وبقية أفراد أسرتي، دون أن أُشعِرَ أي واحد منهم بالتَّحوُّل الذي أنتوي إدخاله على حياتي.

أخٌ أكبر مني، ويتولَّى إدارة المزرعة نيابة عن أبيه وإخوته الخمسة، حيث نعيش جميعًا فوق أرض المزرعة، وتحت رعايته وإشرافه، هو الوحيد الذي رأيت أن أصارحه بما أنتوي عمله، نقلتُ له احتمال انشقاقي عن الدولة والبقاء في الخارج، طالبًا منه ألَّا يبذل جهدًا لا جدوى منه في أن يثنيني عن ذلك؛ لأنني اتَّخذتُ قراري، وعدولي عنه، أو استمراري فيه –كما قلتُ له– مرتبطٌ بمُعطَيات وظروف الحياة في الخارج، أمَّا الداخل فقد حسَمتُ أمري معه، وعليه أن يدعو الله مع الداعين، لإنهاء هذا النظام، أو موت رأس النظام؛ لأنه بدون ذلك فإنني باقٍ في أرض المهجر، وسأترك له كفالة زوجتي والطفلتين، إلَّا أنني إذا تأكَّدتُ من أن المدة ستطول، وأن أمل العودة يتلاشى، فلن أربط هذه المرأة بي، ومن حقِّها اختيار طريقها، بمعزِلٍ عني؛ تتزوَّج، أو تُكرِّس حياتها لطفلتيها، فذلك قرارها، ولم أترك فرصة لأخي لأن يواصل احتجاجه واعتراضه، قائلًا له بأن كل ما أردته هو إبلاغه لكيلا يُفاجَأ بالأمر بعد حدوثه.

بالنسبة للزوجة فقد ذهبت إلى مأذون المنطقة، واختَرعتُ قِصَّةً تُرغِمني فيها الظروف على إرسال ورقة طلاق من الخارج إلى زوجتي، فحرَّر لي صيغة الرسالة، وأعطاني نموذجًا ملأته، وأبلغني بأنه إذا صَحَّ من العزم على ذلك، فلا أحتاج إلا أن أبعث له النموذج يحمل توقيعي، وأن أبعث له الطلب وهو سيقوم بالتعاون مع شقيقي على إكمال المهمَّة، التي لن تتأخَّر غير بضعة أسابيع، حسب إجراءات الأحكام الشرعية.

لم أنسَ أن أضع قبضةً من تراب المزرعة –تراب الوطن– في شنطتي، قائلًا في نفسي إنه إذا حانت منيَّتي، وتعَذَّر عودة جثماني لأدفن في بلدي، فسوف أوصي بأن تكون هذه الحفنة من التراب، موجودة تحت رأسي؛ لاتخاذها وسادة لي في نومتي الأبدية.

وجدتُ عندما وصلت إلى بوخارست، إشاعةً سبقتني، أرسلت ارتجافةَ خوف في قلب القائم بالأعمال، وهي أنني قادم لأستلم منه رئاسة البعثة. لا أدري حقًّا مصدر الإشاعة، ولا أعرف إن كان لها سند في الحقيقة، ولكنني لم أتلقَّ بلاغًا من أي أحد بها، وطَمأنتُ الزميل، الذي سألني عمَّا إذا كنتُ قادِمًا لأستلم منه عمله؛ لأنه يتوقَّع أن يتلقَّى رسالة إحالته على التقاعد في أية لحظة– أنها مجرد إشاعة لا أساس لها من الصحة، وإذا كان لها مثل هذا الأساس، فليدعُ معي الله أن يصل الأمر الذي يقضي بوجوبها اليوم قبل الغد؛ لأنني سأرفض التعيين؛ ممَّا يعطيه وقتًا إضافيًّا؛ لأنهم سيقضون وقتًا طويلًا في البحث عن المرشَّح البديل للمنصب، وسيظل موجودًا في منصبه إلى ما شاء الله. وحمدتُ الله أنني أدخلتُ قَدرًا من

السعادة على قلب هذا الموظف، الذي تركَّزَت أحلامه في تأجيل التقاعد؛ لكيلا يُحرَم من المرتب الكبير الذي يتقاضاه موظف السلك الديبلوماسي في الخارج.

عدت إلى إقامتي الفندقية، ورأيت أن أمنح نفسي هُدنةَ أيام قليلة أعاود فيها التعرُّف على المشهد السياسي، وأفتح أذني وعيني وفكري لالتقاط أي معلومة تتَّصِل بجهود الحكومة الرومانية في ملاحقة الهاربين إلى ألمانيا، وعلى رأسهم السيد «فلوريان» وأسرته، ورغم ما سمعته من شذرات ونُتَف، من هنا وهناك، فإنها لا تفيد بوجود أي تطوُّرات حدَثَت على المشهد كما عرفته؛ ولذلك فقد صرَفتُ ذهني لمعرفة مزيد من المعلومات عن حالة المعارض الليبي، وبعد أن تبلوَرَت الفكرة عندي، وأكملت ما كنت أعرفه ببعض المعلومات التي لم تكن لتؤخِّر أو تُقدِّم في الأمر، حَزَمتُ أمري، وطلبت موعدًا مع رئيس البروتوكول، وكنت أعرف أنه يملك سجلًّا كاملًا بما أجريته من اتصالات في ألمانيا، وما كلَّفَتني به الدولة من مَهمَّات، ولكنني بَدَوتُ أمامه وكأنني أتطوَّع بتقديم معلومات جديدة عليه، عندما قلتُ له بأنني سأكون صريحًا معه، راجيًا أن يقدِّم لي هذه الصراحة، فيساعدني بدوره في تحقيق الطلب الذي سأتقدَّم به إلى سعادته، والصراحة تقتضي أن أعطيه فكرة كافية عن اتصالي بالهارب من العدالة الرومانية السيد «فلوريان بوبيسكو»، حامِلًا له رسالة من الرئيس الليبي، ودافع هذه الرسالة هو أنه سبق للأخ العقيد أن التقى أكثر من مرة، في رومانيا وخارجها، بالسيد «بوبيسكو»، وأُعجب بعقليته، ورأى أنه يمكن أن يستفيد بأفكاره في الترويج للنظرية التي يسعى الرئيس الليبي إلى تقديمها للعالم، وأبلغته أنني نقلتُ إليه العرض الذي لم يستجب له، رغم إغراء الميزانية الكبيرة التي ستُرصَد لهذا الترويج، قائلًا إنه أراد أن يكون مستقلًّا عن دولته، ويرجو أن يبقى مُستقلًّا في عمله، بعيدًا عن تأثير ونفوذ أي دولة أخرى. وربما أضفتُ هنا بعض الكلمات عن وطنيَّة الفيلسوف الروماني، ورفضه أن يكون بضاعةً تُباع وتُشترى في سوق النخاسة الفكرية العالمية. قلتُ ذلك بأمل أن يُحدِث هذا الكلامُ تأثيرًا في أساليب الملاحقة والحصار التي تُستخدَم ضدَّه، ولكن هذه الأجهزة لا تستمع لأي صوت غير صوت الأحقاد القادمة من قلب مليء بالظلام؛ هو قلب الطاغية، الذي يتحكَّم فيها. ونقلت له كيف أن ليبيا قطَعَت اتصالاتها به، بناء على مذكرات التفاهم المتبادلة بين الخارجية الليبية والرومانية، وأبديتُ له امتنان وشكر الحكومة الليبية، لأن الحكومة الرومانية بادَرَت بسرعة إلى إيقاف وتجميد تأييدها للمُعارِض الليبي، فارِضةً عليه أن يتخلَّى عن أي نشاط سياسي. ثم انتقلت إلى الطلب الذي أريد من مدير البروتوكول أن يساعدني في تحقيقه، وهو تأمين زيارة إلى المعارض الليبي، أقوم بها، ليس باعتباري مندوبًا أو موفَدًا أو ممثِّلًا لليبيا وحكومتها، ولا حتى باعتباري ديبلوماسيًّا في بوخارست، وإنما باعتباري مواطِنًا من ليبيا، يريد زيارة مواطن من بلاده، ويرجو أن يتمكَّن من أداء دور لصالح هذه البلاد، وسأحاول أن أُعينَه، ليس بإبداء الرأي عمَّا يقوم به، ولا بمناصرته فيما يفعل، ولكن فقط لأنقل له صورةً صادقة عمَّا رأيته في ليبيا، بأملِ أن تُعينَه هذه الصورة في التَّبصُّر في الواقع الليبي ومعطياته من متغيِّرات بعد خروجه من ليبيا، قد تفيده في رسم سياسته، وبناء مواقفه، واتِّخاذ ما يراه صالحًا لقضية بلاده، ولا أريد أن أفرض نفسي على الرجل، أو أن تمارس الحكومة الرومانية أيَّ ضغط لتحقيق المقابلة، كل ما أريده وضع طلبي أمامه، ونقل أسباب ودوافع هذا الطلب، بأمانة وصدق، راضيًا بالإجابة التي يقولها؛ سواء

كانت رفضًا أو قبولًا. أنصت مدير البروتوكول باهتمامٍ إلى ما قلته، وكل ما نطق به بعد ذلك، هو أن طلب مني أن أضع على الورق هذه الأسباب التي تدفعني لطلب المقابلة، واعِدًا ألّا يتدخّل هو أو دولته بأي شيء، عدا نقل الطلب إلى السيد المعارِض، وترك القرار كاملًا له.

ولم يراودني أدنى شكٍّ أن السيد الرائد عمر، الذي رفض لقاء مندوبي السلطة، لن يمانع في إتمام هذا اللقاء الذي يتَّخِذ صِفةً غير رسمية، فهو إن لم يستفد بسماع خبر جديد أو تلقِّي معلومة لا عهد بها عن بلاده، فلن يخسر شيئًا، ولا يشكِّل عبئًا سياسيًّا أو يضع عليه التزامًا مثل لقائه بالممثِّلين الرسميّين للحكومة، ثم إنه هنا في عُزلَةٍ كاملة، وسيكون مشوقًا لأن يسمع أي إنسان يحدِّثه بلهجته المحلية حديثًا حُرًّا عن أوضاع البلاد، ولم يتأخر الرَّدُّ، الذي جاء كما توقَّعتُ، بالقبول، وأرسل لي مدير البروتوكول سيارة المراسم تحمل المُرافِقَ، الذي أبلغني، قبل مغادرة الفندق، أنه في مرحلة من الطريق للقاء الضيف سيسألني أن أضع عصابةً على عيني، بسبب السرية التي تحيط بها الحكومة مقرَّ إقامة الضيف؛ فأبديتُ تفهُّمي لمثل هذه التحوُّطات الأمنية، وقبولي بها، وأعطاني في منتصف الطريق، نظارة سوداء، مثل تلك التي يرتديها الغوَّاصون، إلا أنها ليست نظَّارةً إلَّا في شكلها، فهي تطبق على العينين إطباق العصابة الحديدية، التي لا يظهر منها بصيصُ نور. واستقبلني الرجل في ردهة الشقة التي يسكنها بواحد من الطوابق العالية، يرتدي بذلةً مَدنيَّةً، وله مُرافِقٌ من أبناء وطنه، اسمه علي، يتولَّى خدمته وخدمة ضيوفه، وأحسَستُ أن هذا المرافق ترتيب مُريحٌ، يناسب رجُلًا مُحاطًا بكل هذه التحوُّطات الأمنية، التي تعزله عن رؤية ومقابلة الناس، وقدَّمتُ له اسمي، والمنطقة التي أنتمي لها في ليبيا، وبادَرتُ منذ مُستهلِّ اللقاء على إظهار موقفي المؤيِّد له، المتعاطِف معه، وأزفُّ له التحية والتهنئة على شجاعته وجرأته في مواجهة الطاغية، وقدرته على أن يركل بقدمه كلَّ المغريات التي تصاحب السُّلطة، وكان قريبًا من قمَّتها، مُضحِّيًا براحته ودفء الحياة وسط أهله وأسرته، فإذا به يبتسم قائلًا إنه لم يكن يتوقَّع أن يسمع هذا الكلام من موظَّفٍ يعمل مستشارًا سياسيًّا في السفارة، فقلت له إن النقمة على النظام نِقمةٌ شاملة كاملة، طالت البشر والحجر والشجر، وما يبديه الشعب الليبي من قبول بالأمر الواقع، ليس إلَّا قبول الجبر والإرغام؛ فكلهم، وإن كانوا يعملون مع النظام، فإن قلوبهم ليست معه.

فتدخَّل، مُقتَبِسًا القول المأثور عن صراع الفتنة الكبرى، الذي يقول: «قلوبهم مع عليٍّ، وسيوفهم مع معاوية». ثم أضاف:

– ما الذي تستفيده قضية الوطن من مثل هذه القلوب الخاوية؟

استأذنته في أن أقدِّم له بسطة عن المهمة التي قمت بها في ألمانيا، وتفاصيل اتصالي بالفيلسوف الهارب من رومانيا، والتَّطوُّرات الناجمة عن ذلك الاتصال، وعرضتُ عليه ما سمعته من وزير الخارجية، بأن ليبيا طلبت من رومانيا تسليمه إليها، وقد رفَضَت مبدأ التسليم، وربما هذا الرفض هو الذي حَدَا بليبيا أن تبحث عن وسيلة للاتصال به والتصالح معه إذا أراد، مقابل كل ما يريده من ضمانات، وتكليفي بمثل هذه المهمة التي أتولَّاها صوريًّا وظاهرًا، لكنني في حقيقة الأمر، لا أرى فيها إلَّا فخًّا، ولا أثِقُ مثقال ذَرَّةٍ في أي وعدٍ يأتي من طاغية البلاد، وأعرف يقينًا أنه أكثر الناس خبرة بالطبيعة الإبليسية،

الإجرامية، لرأس النظام الليبي، وأرى أن يواصل نضاله للإطاحة به، فلا سبيل ولا خيار، إلا هذا السبيل وهذا الخيار لإنقاذ الشعب الليبي –وربما العالم كله– من جرائمه.

– ولكن العالم كله –للأسف الشديد– يتواطأ معه، ولا يستطيع أن ينظر خارج مصالحه التي يُرضيها العقيدُ بالمبالغة في دفع الرشاوى وتبديد ثروة الوطن، ويتغاضى هذا العالم عن شروره التي يذهب أكثرها إلى الشعب الليبي.

وأفهمته أنني قرَّرتُ الانضمام إلى المعارضة، والانشقاق عن النظام، وترك العمل في سفاراته. وبعد أن بارك انشقاقي وأبدى ترحيبه بانضمامي إلى المعارضة، قال مستدركًا: إن هناك حالات يكون فيها المعارض أكثر جدوى وهو يواصل العمل في مثل موقعي، فأجبته بأنني سأجد الاستمرار صعبًا بعد أن اتَّخذتُ قراري بترك العمل مع حكومة فاجرة ظالمة.

أظهر موافقته وامتنانه، قائلًا:

– لا أملك إلا تحية أي إنسان في ليبيا يملك ضميرًا يَقِظًا، ويقرِّر أن يعمل بما يمليه عليه هذا الضمير، لا أن يسعى لخنقه وقتله كما يفعل أغلب الناس.

وأضاف بلهجة عملية إجرائية:

– إذا أردتَ عَونًا لتأمين إقامتك في الخارج، فلدينا في المعارضة أناس لديهم القدرة الاقتصادية على تقديم هذا العون.

– لديَّ في هذه المرحلة من المدخَّرات ما يساعدني على البقاء عامًا أو عامَيْن دون معونة، حتى أدبِّر لنفسي عملًا أكسب منه رزقًا.

– أعانكَ وأعاننا الله على هذا الفرعون.

– أرجو أن تعتبرني جُنديًّا مُسخَّرًا لخدمة الوطن، مُستعدًّا للقيام بأية مَهمَّة تريد أن تُكلِّفني بها.

– بالتأكيد سيكون بيننا تعاون في المستقبل. فاترُك لأخينا عليٍّ كيفيَّة الاتصال بك.

– ما زلتُ لا أعرف عنوانًا أو هاتفًا، وسأكون مُقيمًا خلال الفترة القادمة في ألمانيا الغربية، وسأهاتف السيد علي بالمكان الذي أستقرُّ فيه، إذا أعطاني رقم هاتفه.

– لا تحمل همًّا إذًا؛ فأنتَ –كما قُلت– على اتصال بالسيد «مفتاح»، وسيكون هو حلقة الوصل بيننا.

– نعم. هذا شيء جميل جدًّا. إذًا هو موجود في نفس القارب معنا.

– ستراه في بون، وسيشرح لك كل شيء، عندما تلتقي به.

انتهى اللقاء، ولم أخبر أحدًا بالسفارة به؛ فقد كان همِّي مُنصبًّا على ترتيب انسحابي في هدوء، ودون ضجَّة، وأخبرتُ رئيس البعثة أنني أحتاج إلى متابعة علاج بدأته في ألمانيا، وسأتولَّاه على حسابي الخاص؛ لأنني لا أملك وقتًا لإرسال التقارير الطبية، وانتظار الموافقات والمصادقات من لجنة العلاج في الخارج، وعليه أن يسعى للتغطية على هذا السفر الاضطراري، وتقديم المبرِّرات حتى أعود، غير أنني –كما أخبرته– لا أستطيع تحديد تاريخ لعودتي، وتركته يتدبَّر الأمر لكي أكسب وقتًا، قبل أن تنتبه لجان التصفية الجسدية لانشقاقي، وتباشر ملاحقتي والانتقام مني. مُدركًا أنني مهما تكتَّمتُ على هذا الانشقاق، وهذا الانضمام إلى المعارضة، فإن أجهزة النظام الأمنية قادرة على فهمه، وإدراكه قبل أن أقوله صراحة في الإعلام.

حزمتُ حقائبي، وغادرت بوخارست إلى بون، لأجد أنه في اليوم السابق لوصولي، جرى زحف على السفارة، وهي عملية سبق أن حصلت في سفارات أخرى، وبتحريضٍ من ليبيا، ومكتب الاتصال باللجان الثورية فيها، حيث يتمُّ إعداد مجموعات من عناصر المخابرات وبعض الطلبة الثوريين، وتُرسَل إلى عواصم العالم للاستيلاء على السفارات، وطرد أعضاء البعثة ورئيسها، واستلام العمل بدلًا منهم، وتحويل السفارة إلى ما يُسمَّى «مكتب شعبي»، وقد خرج السيد «مفتاح» على الإعلام في ألمانيا، ليقول إنه يدين هذا التَّصرُّف الهمجي، البربري، غير المسؤول، ويعلن شجبه له، ومعارضته لسياسات النظام الليبي التي تتميَّز بالرعونة والسَّفه، ويعلن انشقاقه عنه، وانضمامه إلى صفوف القوى التي تُعارِضه وتعمل على إسقاطه، وإحلال نظام ديمقراطي بديل، يعتمد القواعد والأصول الموجودة في بلدان العالم من دستور وبرلمان ومؤسسات الدولة المدنية، بما فيها من فصل بين السلطات، وصون لحقوق الإنسان وكرامته وضمان حريته وأمنه.

هاتَفتُ صديقي محمود، فوجدته يستعدُّ لمغادرة البلاد؛ لأن لجنة الزحف استغنت عن خدماته هو وبقية زملائه الديبلوماسيين، وطلبت أن أراه لكي أعرف منه العنوان الجديد للسيد «مفتاح»، فقد غادر السفارة وغادر بالضرورة بيت السفير، ولا زال –كما عَلِمتُ– مُقيمًا في بون. وجاء الصديق ليقول لي إنه لم يعرف بعدُ هاتف السيد «مفتاح»، ولكنه استطاع، عن طريق السائق، أن يعرف عنوانه، ويستطيع أن ينقلني إليه الآن. وما كنت لأذهب إليه، في أي وقت آخر، دون تحديد موعد، خاصة وهو يصبح هدفًا للجان الملاحقة والتصفية، إلا أن للضرورة أحكامها، ولا سبيل للاتصال إلا عن هذا الطريق الذي يعرضه صديقنا المشترك. فقبلتُ به، وركبتُ معه سيارته، وفي مدخل العمارة التي انتقل إليها كان هناك موظف استقبال، وحارس أمن، أخَذَا منَّا اسمَيْنا وأوراقنا الثبوتية، وذهب أحدهما لأخذ إذن صاحب البيت، وعاد ليقودنا إلى شقته، إلَّا أنه قبل أن يفعل ذلك سأل أن نقف أمام الإنتركم الموصول بعدسة تصوير، لكي يخاطبنا السيد «مفتاح» ويرى صورتنا، ويتأكَّد من صحة أننا نفس الأشخاص. وظهرنا له أمام الكاميرا، وتكلَّمنا معه، وسمعناه يرحِّب بنا، ويعتذر عن هذه الإجراءات الأمنية التي يتبعها البوليس الألماني؛ فما حدث من قتل المعارضين والمنشقِّين الليبيين في بريطانيا، وإيطاليا، وألمانيا نفسها؛ لم يَعُد يدع مجالًا للتهاون مع جلاوزة النظام الليبي وعصاباته.

وذكر عندما دخلنا أنها شقَّةٌ مؤقَّتة، تمَّ تدبيرها على عجل، إلى حين وجود بيت أكثر ملاءمة وأمانًا يستقرُّ فيه، وأتى على ذِكر مجموعة الزاحفين الثوريين على السفارة، فقال إن مَهمَّتهم تقتصر على عمل واحد؛ هو ملاحقة المعارضين للعقيد الليبي، وبذل ما يستطيعون من جهد لترويعهم، وتأجير عصابات المافيا في ألمانيا لاغتيالهم، غير أن الأمن الألماني سيكون لهم بالمرصاد، ولن يُحقِّقوا غير جلب العار لنظامهم وبلادهم، التي هي أيضًا بلادنا، منتهيًا إلى القول إن نظامًا بهذا الجنون وهذا الإجرام، لن يستطيع أن يستمرَّ طويلًا على قيد الحياة، ورغم وجود زميلنا محمود، الذي يحتفظ بموالاته للحكومة، إلَّا أن السيد مفتاح لم يُبدِ أيَّ تَحفُّظ في حضوره، فيما عدا التَّكتُّم على رقم هاتفه، فلم يشأ أن يفصح عنه، أو عن البيت الذي سينتقل إليه، وقال ردًّا على رغبتي في لقاء آخر معه، بأنه هو الذي سيبادر بالاتصال في اليومين القادمين.

لم أفتح معه موضوع تجديد الصلة بـ «أوليفيا» ووالدها، مؤجِّلًا ذلك للقاءٍ يَتمُّ على انفراد؛ فهو القناة الوحيدة التي أعرفها لتحقيق هذا الاتصال.

وكنتُ أحتاج إلى وقتٍ أقضيه مع نفسي؛ لأختبر إحساسي بالحياة الجديدة؛ حياة الانعتاق من أغلال وكوابح الحكم الاستبدادي، نعم، هناك بالتأكيد مخاطر جسيمة ستواجهني، وصعوبات جمَّة سوف تعترض طريقي لحظة أن أستنفد مُدَّخراتي، ولكن الإحساس الغامر بالحرية كان أشبهَ بموجة عاتية، عالية، ترفعني فوق كل هذه المخاطر والصعوبات، وتجعلني أفرح بنفسي، وأنني أملك شجاعة القلب والضمير، لأنْ أقطع القيد الذي يشدني إلى واقع بائس حزين، وأذهب راكِضًا إلى فضاء الحرية. لم يتَّصل بي صديقي محمود؛ لأنه بدأ إجراءات العودة مع أسرته إلي ليبيا، بما يقتضيه ذلك من شحن لسيارته وأثاثه، ولن أنتظر هاتفًا من السيد «مفتاح» قبل أن ينتهي هو الآخر من الاستقرار في بيته الجديد، وترتيب حياته المحاطة بمخاطر التصفية والملاحقة، ولا أملك إلا الانتظار فيما يخصُّ الاتصال بـ «أوليفيا»؛ إنها فترة انفراد بنفسي، وسأجازف خلالها بتخصيص ميزانية إضافية للاحتفاء بهذه الولادة الجديدة التي لحِقَت لي، وهذا الخلاص من عالم القهر السياسي، التي لم تكن إلا صورة أخرى لعالم القهر العاطفي والقهر الاجتماعي، والقهر الجنسي أيضًا، لقد خرجت من أسوار مدينة التقاليد والتَّزمُّت والقيم الزائفة الكاذبة، التي عِشتُ مناخها، حتى صارت إرثًا أحمله داخل جلدي، وأسافر به وأنا أمثِّل دولتها الفاسدة، وفضيلتها الكاذبة المفروضة، أمَّا الآن فأنا لا أمثِّل أحدًا، إلَّا أنا، وسأترك نفسي على سجيَّتها وأنطلق مستفيدًا ممَّا تَعرِضه الحياة في إحدى أهم حواضر الغرب، سأدخل صخب المراقص التي تعجُّ بالسكارى، والباحثين عن ساعة حظٍّ وتسلية، وسأجالس العجائز من نساء ورجال في هذه الحانات التي تتنوَّع في أساليبها ومعمارها، وطابعها الإنجليزي أحيانًا، الفرنسي في أحيان أخرى، علاوة على الطابع الجرماني بتنويعاته المختلفة، وسأذهب إلى النوادي الليلية، وأرتاد المطاعم الفاخرة، مصطَحِبًا معي أية رفيقة تقبل دعوتي، حتى لو قمتُ بالتقاطها من الشارع، ولن تبقى بعد ذلك غير فراغات أسدُّها بروتين القراءة وبرامج التليفزيون، وقاعات العرض السينمائي. وكم كنتُ مُندَهِشًا وأنا أجد حصيلتي اللغوية تنمو بشكل سريع ومذهِلٍ، وتُحقِّق لي فتوحات لم أكن أتوقَّعها في عالَمَيْ الحُبِّ والصداقة، والحب الذي أعنيه هنا حبٌّ آخر غير ذلك الذي أحتفظ به لأوليفيا وأجعله وقفًا عليها، والتي أحتفظ لها في قلبي ببراح كبير خصَّصتُه لمرتعها، وأرض خضراء، بأشجارها وأعشابها ونوارها؛ تركض فيه هذه الغزالة من غزالات البهجة والجمال، حُرَّةً، لا يزاحمها أو ينافسها أي

كائن آخر. لقد اشتقتُ كثيرًا لأرى عينيها، وأتطلَّع إلى صورتي معكوسةً في صفاء وزُرقَة وبهاء تلكما العينين، واثقًا أنني سأرى في المرة القادمة امرأة غير المرأة المنكسرة، الكئيبة، التي رأيتها آخر مرة؛ لأنها ستكون -بالتأكيد- قد تجاوَزَت تلك المحنة، وانتصرت على مشاعر الخوف والأسى المتولِّد عن حادث الاشتباك المميت مع عصابة المجرمين.

الانهماك في الحياة الصاخبة لا يجلب السعادة للقلب بالضرورة، إنه يورث التَّعَب، وربما إحساس بالخيبة، عندما ندرك أنه ليس الطريق الصحيح للتعبير عن الفرح، أو جَنْي المسرَّة، غير أنني لم أقِف طويلًا لألوم نفسي وأعنِّفها لأنها قادتني في هذا الطريق تنفيذًا لنزواتها العابرة، وأراها فعلًا قد عبرَت وانتهت، وأنا الآن على استعداد كامل لاستقبال الحياة الجديدة التي أرنو إليها مع «أوليفيا»، ومرة أخرى نظرت إلى هذا الأسبوع باعتباره ذلك الفاصل الإعلاني الحافل بكل أنواع «التريفيا»، الذي يتخلَّل برنامج جادًّا ودسمًا وعميقًا، أسبوع عِشتُه خارج كل خطوط الطول والعرض، بل ربما اعتبرته حالة «فيزيو» و«سايكو ثيرابي» ضرورية؛ لإزالة الشوائب والأدران، إنه مثل البحث عن نبع الماء الصافي لحظة اكتشافه وبداية تفجُّره، فلا بُدَّ من فترة سماح قصيرة، يحتاج لإزاحة الأتربة والشوائب والقشِّ والحصى، التي تتجمَّع عند فم النبع، قبل أن يصل بعد ذلك إلى إخراج المياه النقية العذبة، التي تبدأ في التدفُّق خاليةً من مثل هذه الأدران والشوائب، وقد حان الآن لنبع الماء النقي في نفسي أن يبدأ دورته؛ ولذلك فقد جاء اتصال السيد «مفتاح» متوافقًا مع هذه المصالحة التي وصلت إليها بيني وبين نفسي، هاتَفَني، وأعطاني عنوانًا لِلِّقاء في مطعم يحتلُّ الطابع الأعلى في برج حديث من أبراج بون، وفي حماية اثنين من عناصر الأمن الألماني، كانا يرافقانه، جلسنا قريبًا من الجدار الزجاجي للمطعم الدوار الذي يتحرَّك ببطء، حتى لا نكاد نحس بدورانه، وإنما تُفاجَأ بأن المشهد أمامك يتغيَّر، من غاباتٍ ونَهر ومساحات خضراء، إلى عمائر وشوارع وأسواق وزحام ومحطَّات للقطار، وكان الرجل في حالة شوق وحماس لأن يبوح بما ظلَّ لأعوام يطوي عليه قلبه، فقد صار أخيرًا حُرًّا من أي التزام نحو النظام، الذي يُضمِر له الكراهية والاحتقار، ورغم أنه -كما يقول- اقتصر في عمله مع النظام على الجانب الديبلوماسي، ولم يَقُم بأي عمل يتعارض مع ضميره أو قناعاته؛ لأنه كان يرى نفسه مُجنَّدًا لخدمة ليبيا الدولة وليس ليبيا النظام، وخدمة القضية العربية، عبر مساهماته في الفعاليات الدولية التي تحشد المناصرة والتأييد لها، بل وزاد على ذلك، في أنه لم يكن حقًّا يكتم رأيه وصوته فيما يفعله النظام، وإنما داوم على إرسال مذكرات ورسائل إلى رأس الدولة لتصويب سياساته وقراراته وإسداء المشورة فيما يراه وسيلة للإصلاح، إلا أنه لم يكن يرى أثرًا لكل ما يقوله؛ ممَّا يؤكِّد أنه نظام يعاني من عطب داخلي، لا مجال لإصلاحه أو علاجه، ومثل هذه القناعة التي وصل إليها مبكِّرًا كفيلة بأن تفضي به إلى المعارضة، إلا أن المعارضة للنظام -التي بدأت عشوائية- قائمة على ردود الأفعال، فقيرة للمحتوى والمضمون، ولا تملك منهجًا ولا خطَّةً ولا أفقًا ولا سياسات بديلة، لم تكن تستطيع أن تستقطب اهتمامه، إلا أخيرًا جدًّا، وبفضل براعة النظام في صناعة الأعداء والخصوم؛ اكتسَبَت المعارضة شيئًا من الزَّخم والمصداقية، وصار مُمكِنًا أن تبعث الأمل في إيجاد بديل يقتنع به الشعب وينجح في الحصول على اعتراف قوى سياسية واجتماعية مؤثِّرة على المستوى الدولي، كما اقتنعَت الفصائل الأساسية في المعارضة أنه لا بُدَّ من التَّوحُّد والاصطفاف ضدَّ هذا المسخ الذي يحكم البلاد، وفضحه وتعريته وكشف الغطاء عن جرائمه، التي لا تصل إلى أسماع العالم، وأبلغني أنه على اتصال بالرائد عمر، وأهمية وجود شخصية مثله

في المعارضة ضرورة لها؛ لأنه قادم من داخل المجموعة التي قامت بالانقلاب؛ ولذلك فهو يمثِّل جرحًا كبيرًا لكبرياء رئيس الانقلاب، وسهمًا في خاصرته، وهو ما يفسِّر أن رئيسه السابق في الانقلاب يسعى بكل الطُّرق والوسائل لإزاحته من الطريق، إن لم يستطع بالتصفية والقضاء عليه، فبالإغراء والتنازُلات، ويرى أن ولوغه في الدماء، واعتماده أسلوب تصفية الخصوم في الداخل والخارج؛ سوف يورِثُه نقمةَ الناس بالتأكيد، ويزرع في نفوسهم روح الانتقام، ولم يلبث أن يرتدَّ إجرامه عليه، والدم المسفوك الذي صار هاجسًا يملأ عقله وقلبه، سوف يكون دمه شخصيًّا، ومَهمَا تواطأ العالم معه، ومهما قدَّم من أموال الشعب لشراء الذِّمَم والمناصرين لإجرامه، فإن هناك لحظة بركانية قادمة، لن تنفعه فيها الرشاوى والتحالُفات القائمة على الصفقات المشبوهة، ولن ينقذه من قبضة الشعب، التي سوف تلتفُّ على عنقه، حشودُ العملاء في الخارج، ولا في الداخل.

كنت أستعجل الوصول بالحديث إلى النقطة التي تعني لي أولوية في هذه المرحلة، وهي التواصل مع الفيلسوف المنشقِّ وابنته، وكيفية ذلك، فأجاب بأن وضعه الآن، خارج منصب السفير، ومَهمَّته التي وصلت إلى ختامها كضابط اتصال بين الدولة الليبية والفيلسوف؛ يجعله غير صالح للقيام بأي دور في هذا الخصوص، وهي أعمال كان يؤدِّيها عبر بوَّابة المراسم في الخارجية، التي انتهى اتصالها به واتصاله بها، إلَّا أنه سيقوم باتصال بالإنابة عني مع مسؤول الأمن الرئاسي، ونقل رسالة عني إلى أسرة الفيلسوف، يأخذون فيها خبرًا بعودتي، ووجودي في نفس الفندق.

اعتبرتُه ترتيبًا مُرضيًا، ويكون متروكًا للعائلة، أو بمعنى أكثر تحديدًا، للآنسة «أوليفيا»، فرصة الاتصال بي، إذا أرادت؛ بأمل أن أعرف على وجه اليقين أن الرسالة وصلت إليها، أو إلى عائلتها، وأنه لا وجود لعوائق أمنية تمنع نقل الرسالة، فوعد بأنه لن يترك الموضوع حتى يتأكَّد، ويخبرني هاتفيًّا بما حصل، مضيفًا أنه سيحتاج إلى مغادرة بون لفترة من الوقت، ربما إلى مدينة ألمانية أخرى، أو أوروبية مجاورة، كنوع من تضليل العناصر الليبية عن مكان وجوده، وكسر حلقة الملاحقة والمتابعة من طرفهم؛ ولذلك فهو يتمنَّى لي الاستقرار والأمان في حياتي الجديدة. وأوضحتُ له أنني لم أعلن انشقاقي بعدُ، ولكنني مستعدٌّ للعمل في إطار المعارضة، فيما يراه هو أو يراه الرائد عمر، وأنه لا بُدَّ من ترتيب حلقة اتصال بيننا؛ باعتبار إقامتي في الفندق إقامة مؤقَّتة، سأقوم بتغييرها في أية لحظة، فقال إن هناك مكتبًا يتبع مديرية شرطة بون هو المسؤول عن اللاجئين السياسيين، وهو الذي يجب أن أتَّصِل به عند حدوث أية مضايقات من عناصر الأمن الليبي، أو من غيره، وأنه سيعطي خبرًا لمدير هذا المكتب بوجودي، وحاجتي للرعاية، وأعطاني اسمَ وهاتف هذا المدير؛ السيد «هينريش هاوزن».

ورجعتُ هذه المرة إلى فندقي دون أن يكون لديَّ أي برنامج، ولا خطة لإزجاء الوقت، غير انتظار اتصال من «أوليفيا». فها قد عرفت أن السيد مفتاح سيغادر بون لأجل غير معروف، وصديقي الآخر، الذي كان يداوم على زيارتي، أنهى عمله في بون عائدًا إلى البلاد، وطُوِيَت بالنسبة لي صفحة السهر والنوادي الليلية، وجلسات الشراب مع الغرباء في الحانات، والتقاط بائعات الهوى من الشارع يشاركنني وجبة غداء أو عشاء. وقد أعددت نفسي لمواجهة أيام رتيبة مُضجِرة، إلى أن يبزغ طيف «أوليفيا» من خلف سديم؛ واقع مُعتِم لا أتبيَّن حتى الآن فيه طريقًا. لم يخترق هذه الرتابة غير هاتف من

السيد «مفتاح»، مؤكِّدًا أن الرسالة وصلت إلى أصحابها، وأن الدور الآن على عائلة السيد «فلوريان»، وابنته بالذات، أن تُبادِر بالاتصال.

مضى أسبوع، ثم أسبوعان، وصل فيهما الضَّجرُ حدوده القصوى، إلى أن جاءت لحظة انهمرت فيها من عيني العَبَرات؛ لأنها كانت وسيلتي الوحيدة لما أحسست به من مشاعر الغربة والهوان، ولم يكن في إمكاني أن أفعل شيئًا لإزالة هذا الإحساس، فالانتظار طال دون فرصة لإرسال إشعار أو إفادة إلى «أوليفيا»، بحجم ما أشعر به من معاناة هذا الانتظار الممضِّ الطويل، أو أعرف تفسيرًا لهذا التأخير، خاصَّةً وأنني لا أعرف أحدًا في بون يمكن أن يتواصل معي، أو أسمع رنين مكالمة هاتفية منه أو أهاتفه، وصِرتُ أحسب الوقت بالساعات بدل الأيام والأسابيع، وفجأة رنَّ الهاتف، وتكلَّمَت فتاة البدالة تقول بأن هناك مكالمة من خارج الفندق، دقَّ لها قلبي دقَّاتِ فرح وغبطة، سرعان ما تحوَّلَت إلى دقَّات قلق وخوف؛ لأن الهاتف جاء من جهةٍ لم أتوقَّع ولا أريد أي اتصال يحدث بيني وبينها، هي السفارة في عهدها الثوري الجديد، وصوت يكلِّمني باسم اللجنة التي تولَّت الإدارة، يستفسر عن صحتي، وكيف يسير علاجي، ويرجو أن أمُرَّ به في السفارة.

دقَّت أجراس إنذار كثيرة في رأسي؛ خوفًا من وجود شركٍ يُعدُّ لي هناك، فقد قرأت أكثر من تقرير صحفي عن لجان من هذه الزواحف، في سفارات ليبية كثيرة، قامت باستدعاء أناس، وانتهت بحجزهم، أو ترحيلهم، في توابيت باعتبارهم موتى، يستيقظون من موتهم في طرابلس، لمواجهة المحاسبة والاتهام بالخيانة وربما القتل. فهل أذهب؟ كان هذا هو السؤال. ورأيت أن عدم ذهابي هو ما سوف يؤكِّد وجود موقف عدائي من طرفي نحوهم ونحو حكومتهم، ومجازفة ذهابي إلى السفارة، وتلبية دعوة الولد ولجنة الزواحف التي يمثِّلها، ستكون أهونَ حالًا من عدم الذهاب. إلا أنني احتياطًا استخدمتُ –لأول مرَّة– الهاتفَ الذي أعطاه لي السيد «مفتاح»، واتَّصلتُ بالسيد «هينريش هاوزن»، الذي كان وَدودًا وهو يرحِّب بي بلغة إنجليزية بليغة، وذكرت اسم السيد «مفتاح»؛ باعتباره صلة الوصل بيننا، وأخبرته أنني تلقَّيتُ دعوةً لزيارة السفارة الليبية، وسأذهب في الساعة العاشرة، لكي يكون على عِلمٍ بذلك، في حالة إذا ما حدث أي اعتداء على حريتي، فشكرني على هذا الاتصال، وطلب أن أتَّصِل به لحظة خروجي من السفارة ليطمئنَّ إلى أنني خرجت سالِمًا، كذلك إبلاغه في حالة عدولي عن الذهاب أو وجود شيء أعاقني عنه، واعِدًا أنه سيتابع الموضوع، وسيمنع بوسائله الخاصَّة أيَّ مكروه يحدث لي داخل السفارة.

وجدتُ في انتظاري شابًّا دون الثلاثين، وشعر مهوَّش كثيفٍ يُغطِّي رأسه، كأنه شجرة شوكية، تلقَّاني هاشًّا، باشًّا، مبتسمًا، يقول بأن مكتب بوخارست أبلغهم بأنني موجود في بون في رحلة علاج، وأن جماعة اللجنة توقَّعوا اتِّصالًا مني لكي أطالب بحقي في تغطية نفقات العلاج والإقامة، فقُلتُ إنني أعرف أن العلاج يتمُّ دفعه بتفويض يأتي من ليبيا؛ ولذلك فإنني لم أجِد داعيًا لإحراجهم، إلَّا أنه قال إن اللجنة تعمل بصلاحياتٍ لم تكن موجودة في السفارات التقليدية، وأن هناك ميزانيات لمواجهة المصاريف التي تقرِّرها اللجنة، وأنه يُبدي استعداد اللجنة لتغطية أي توفير للعلاج والإقامة أتقدَّم بها،

وعرفت قبل أن ينتهي من عرضه أن ثمَّة تعامُلًا سيطلبه مني، لم أحتَج لطويل الوقت لتخمينه؛ لأنه بسرعة عرج على علاقتي بالسفير السيد «مفتاح»، فبادَرتُ بالدفاع عن نفسي لكي لا تتحوَّل علاقتي به إلى تهمة، قائلًا بأنني كنت أشترك معه في عمل واحدٍ تمَّ تكليفي به من القيادة؛ وهو الاتصال بالفيلسوف الروماني اللاجئ إلى المانيا، ونقل رسالة له من الأخ العقيد، تولَّيتُ شخصيًّا أمرَ نقلها وشرحها له، حتى جاء توجيه القيادة بتجميد الاتصالات، فقال إنه على عِلمٍ بذلك، وعلى علم بمواصلة اتصالي بالسفير السابق، وزيارتي له، وقبول دعوته للغداء بعد أن ترك العمل، وهو لا يرى في ذلك خطأ، ويراه خارج اختصاصه أو اختصاص لجنته التَّدخُّل في العلاقات الإنسانية بين الليبيّين، ولكن خدمة للثورة يريد أن أقوم بتزويده بمقرّ إقامة وهاتف السيد «مفتاح»؛ فقد يحتاجون للاتصال به لأمر ضروري. نعم، قلتُ له في خاطري، ليس هناك أكثر ضرورة من تنحية مُعارِضٍ من الطريق، وإرسال عناصر المافيا المحلية أو الدولية لتصفيته الجسدية. وبسرعة رددتُ عليه بأن ما أعرفه عنه أنه لم يعُد يريد أي اتصال بهذا المكتب بعد أن تركه، ولا أن يُجري أي اتِّصال به، أو بأي عنصر من عناصره. وتمويهًا؛ قلتُ له شيئًا أعرف أن لا أساس له، ومع ذلك قُلتُه على لسان السفير السابق، أن قرار تعيينه سفيرًا، صدر من أعلى سُلطَة في البلاد، عندما كان العقيد رئيسًا لمجلس قيادة الثورة، وهو يعتبر أن أيَّ إجراء باطل وغير شرعي ولا قانوني لعزله من منصبه؛ لأن الجهة التي عيَّنته في المنصب، هي وحدها المخوَّلة بعزله؛ ولذلك فهو يعتبر نفسه سفيرًا حتى الآن، وقَدْرَ علمي أنه كاتَبَ القيادة بهذا الشأن، وأخطرها بهذا الموقف القانوني.

بدا الارتباك واضِحًا على الولد، وهو يسمع إلى هذا المنطق الذي لم يتوقَّعه، والذي يؤَكِّد أن اتصالي بالرَّجُل إنَّما هو اتِّصال مع سفير ما زال بحُكم القانون ثابتًا في موقع السفير. قال، عندما تَمالَك نفسه:

– ولكن للسيد «مفتاح» موقف معارض، لا يخفيه، ويَجهَر به للصحف ووسائل الإعلام.

فوافَقتُه على أن هذا هو موقفه، وهو يمارسه باعتباره في دولة حُرَّة، يقول رئيسها إن شعبها هو الشعب الوحيد الحر في العالم، وهو موقفٌ لا يتعارَضُ مع الحق القانوني الذي يضمن له هذا المنصب، وسيكسب القضية، إذا رفعها أمام القضاء الليبي أو القضاء الدولي، الذي يفصل في الخلافات الديبلوماسية.

لم يكن ما يهمُّني هو الدفاع عن السيد مفتاح، ولكن ضمان الخلاص لنفسي من هذه الورطة وهذا الموقف، حتى لو قلت كلامًا لا معنى له عن قوانين وأعراف ديبلوماسية لا اعتبار لها في حُكم عصابةٍ كالتي تدير ليبيا.

وهنا استنفر الولد كلَّ ما لديه من مخزون الخبث والخداع، قائلًا إن سبب طلبه للتعاون في معرفة عنوان السيد «مفتاح» ورقم هاتفه، ليس بالضرورة لاتِّصال من طرف المكتب، وإنما لوجود توجيهاتٍ من ليبيا تطلب أن تعرفه. فقلت له صراحة أن يبلغ هذه الجهات، وبمنتهى الثقة والاطمئنان، أن السيد «مفتاح» لم يعُد موجودًا في هذه المدينة، وإنما غادرها إلى جهة مجهولة، لم يعلن عنها، ولم يخبر بها أحدًا. وأضفت أشرح له، أنني شخصيًّا لا أعلم شيئًا عن الجهة التي اتَّجه إليها، ولا أعرف له هاتفًا ولا عنوانًا، ونهضتُ أمدُّ يدي قائلًا بألَّا يتعب نفسه في تغطية نفقات علاجي؛ لأنني سأتابع الإجراء الروتيني الذي يقتضي أن أتَّجِه بهذا الطلب إلى المكتب الليبي في بوخارست الذي أعمل به. فوقف؛ مُسايَرةً لي، وهو

يفاجئني بقوله ألَّا أعتمد كثيرًا على مكتب بوخارست؛ لأنني لم أعُد أعمل به، ولم يَعُد أي عنصر من الديبلوماسيين القدامى يمارس عمله هناك؛ فقد وصل إليه الزحف صباح الأمس، واستلَمَت إدارتَه لجنةٌ شعبية مثل ما حصل في بون، وما سيحصل لكل البعثات الديبلوماسية الليبية في العالم.

خرجتُ من المكتب الشعبي إلى الشارع، أبحث عن حصَّتي من الهواء النقي، وأقضي فترةً واقفًا في إحدى المساحات الخضراء، أستمتع بحقي في الشهيق والزفير بحرية؛ لأنني شعرت بأجواء المكتب القاتمة العابسة تكتم على أنفاسي، وتجثُم كابوسًا على صدري. أرادني هذا الحشرة الزاحفة أن أعمل لحسابه مُخبرًا ضد صديقي السيد «مفتاح»، وأشي به لعصابة القتل والإجرام التي احتلَّت المكتب، ولا بُدَّ أنه كان سيعطيني في لقائي القادم به أنبوبًا صغيرًا من السموم أفرغ قَطراتٍ منه في فنجان قهوة خصمه السفير؛ ليكون قد أنجز المهمَّة التي أوفِدَ من أجلها هو وفريق الزواحف على أكمل وجه.

ها هي الزواحف المبعوثة من كهوف ليبيا وجحورها ومستنقعاتها تغزو العالم شرقًا وغربًا. سقَطَت بوخارست في أيديهم؛ والنتيجة عودة العاملين السابقين في السفارة إلى البلاد، ليبقى الجو خاليًا أمام الزاحفين. «نهاية الزقاق للهارب» كما يقول المثل الشعبي. جاء الزحف على السفارة التي أعمل بها، ليضع حدًّا أمامي في المناورة والمداوَرة والمخاتلَة واللعب على عنصر الوقت مع النظام. كنت أستطيع أن أبقى دون أن أعلن انشقاقي، تحت غطاء أنني موفَدٌ إلى الخارج، ولكن بعد انتهاء هذا الإيفاد، فإن كل دقيقة أبقاها في الخارج محسوبة، وكل مَن تأخَّر في تنفيذ أوامر الرجوع إلى ليبيا تمَّ اعتباره منشقًّا، مُعارِضًا، أو بالتعبير الجماهيري المتداوَل في الإعلام الليبي: «كلبًا ضالًّا». ستكون مَهمَّة اللجنة الزاحفة على بوخارست تتركَّز في شيء واحد، هو محاولة وجود ثَقبٍ في جدار الأمن الروماني، ينفذون من خلاله إلى المعارِض الموجود هناك؛ الرائد عمر. إنه في عرف رئيس النظام ليس كأي مُعارِض آخر؛ فهو واحد من ضباط الانقلاب خرج عن السِّرب، وحطَّم الطَّوق، وهو يحمل أسرار المعبد؛ فوجب أن تكون تصفيته على رأس أولويات أجهزة الأمن؛ السرية والعلنيَّة، التي تنتمي إليها كل الزواحف في الخارج والداخل. والأرجح أنه لن يستطيع البقاء في بوخارست، سيعود إلى المملكة المغربية التي جاء منها. الطُّغاة العرب يجيدون التعامل مع بعضهم بعضًا، ويملكون فَهمًا لألاعيب بعضهم بعضًا، وسيحصل هناك على حماية أكثر أمانًا وضمانًا من أية حماية تقدِّمها دولة في أوروبا، مهما كانت تعتمد على نظام بوليسي قمعي مثل رومانيا. اللهم إلا إذا كان النظام المغربي نفسه يريد أن يبيعه، عندئذ فلا عاصِمَ إلا الله. بالنسبة لي ما زال كل شيء غامضًا؛ لأنني لا أعرف أيَّ الاتجاهات أسلُكُ؛ لأن كل الاتجاهات التي تقود إلى ما أريده وأصبو إليه غاطِسةٌ في ضباب كثيف يحيط بها من أركانها الأربعة. ربما ألتحق بالرائد عمر في المملكة المغربية؛ طالما أنني وجدت ترحيبًا منه للعمل في التنظيم الذي يتولى قيادته، ربما.

وجدت، عندما وصلت الفندق، رسالة بأن مُهاتَفَةً قد وصلتني أثناء غيابي، وأن صاحب أو صاحبة المكالمة، ستُعيدُ الكَرَّة مع المساء. وخمَّنتُ أنه بالتأكيد اتصال من «أوليفيا» بعد طول انتظار؛ ولذلك قرَّرتُ أن أرابط في غرفتي، لا أتحرك حتى تعاود المهاتفة.

ولم أنتظر طويلًا، وجاء صوتها هذه المرة أكثر انكسارًا وحزنًا، إلى حَدِّ أنني أهَبتُ بها ألَّا تُسلِم نفسها لمثل هذا الشعور السوداوي الذي سبق أن وجدتها فيه، وكنت واثقًا أنه يمثِّل محطة عابرة، ستغادرها في وقت قصير، ويجب أن تغادرها، وإذا حصلت أزمة أو صدمة فإن هناك مدى لاستيعابها، ثم تجاوُزها، لا أن يبقى الإنسان رهينةً لها، وتكلَّمتُ بحدَّةٍ وغضب وغيرة حقيقيَّة عليها، يدفعني إحساسٌ فاجِعٌ بأن مثل الحالة إذا استمرَّت فسوف تجعلني أفقدها، وهو ما لا أودُّ أن أتصوَّر حدوثه، فقد أحرقتُ مراكبي، لاجئًا إليها، محتميًا بوجودي فوق أرض الأمان الصغيرة التي صنعها لي حبُّها، فلا أريد لهذه البقعة من الأرض أن تتزلزل تحت أقدامي.

اعتذَرت عن التأخير في الاتصال؛ لأن حادث الهجوم الذي حصل في فرانكفورت، وذهب ضحيَّةً له عناصر من الأمن، جعل قوات الحماية تُحكِم سيطرتها على تحرُّكات أفراد الأسرة، فلا تكاد تسمح بأية حركة خارج قصر الرئاسة. وهي لا تستطيع -كما قالت- أن تحدِّد لي موعدًا داخل القصر، ولكنها تحتاج إلى أن تخرج؛ أن تستنشق هواء أكثر نقاء من هواء القصر؛ أن ترى مشهدًا مختلفًا عن الجدران الأربعة داخل أروقة وردهات القصر. وعبرَّت عن ضيقها من هذا النوع من الحياة، وأنها لم تعُد تطيق هذا السجن؛ ولذلك فإن هناك فكرة تحت الدرس، هي الانتقال إلى مكان مجهول، تسافر إليه الأسرة في تَكتُّم وسرِّيَّة، ولا يجب أن يعلم به كائنٌ مَن كان، غير أهل الحماية، وعدد قليل جدًّا منهم، وبترتيبات تضمن لهم درجة من الحركة والحرية، ولن يكون صعبًا على والدها نشر أفكاره عبر مؤسَّسة فرانكفورت العلمية، حيث يستطيع إرسال دراساته وأطروحاته ومداخلاته، من أي مكان؛ لِتُنشَر عبر وسائل المؤسسة ومنابرها الثقافية والإعلامية.

انتهت المكالمة على وعدٍ باتصال آخر، عندما تتبيَّن وسيلة للِّقاء. الحصار الذي أحكمه حولها أهل الأمن، صنعته بالنسبة لي قوى الطبيعة، فقد صَحوتُ في اليوم التالي على عالَمٍ من البياض يحيط بالفندق. جاءت عواصف الثلج، تضرب المدينة، وتغطي الأرض والأشجار والأعشاب والأبنية والسيارات، وبالتأكيد فهي ليست المرة الأولى التي أري فيها كل هذه الكمية من الثلوج، ولكنها مرَّات نادرة في حياة رجُلٍ مثلي جاء من بلد صحراوي، إلا أنني لأول مرة أشعر بمعنى الحصار؛ فحياتي كانت خالية من أي أصدقاء، لا أحد يزورني، ولا أزور أحدًا، لا أحد يهاتفني، ولا أهاتف أحدًا، ولا يشغلني شيء في الحياة سوى انتظار مكالمة هاتفية لا أعرف متى تأتي من «أوليفيا». استمرَّ هطول الثلوج، لا يتوقَّف، نهارًا ولا ليلًا، ويومًا ثانيًا وثالثًا ورابعًا، حتى أكمل الأسبوع، لا شيء يحدث، غير صوت العاصفة، ودفعتني أيام العزلة هذه، التي لا أكاد أغادر فيها غرفتي، لأن أراجع ما طرأ من تحوُّلات على حياتي، فأجد أنني لست أكثر سعادة ممَّا كنت، وإنما أمضي مع الروتين الذي تفرضه الحياة، وتُحتِّمه الوظيفة الحكومية دون تدخُّلٍ مني، وها أنا عندما أردت أن أفرض إرادتي على الروتين، وأترك قمع الوظيفة الحكومية، وأتحكَّم في روتين الحياة لأسير حسب ما أريد، بدل أن أتركه يقودني حيث يريد؛ أقع في هذه الحيرة، فقد كنتُ أنتظر أن أجني المكافأة الكبرى لهذا التحوُّل الخطير، فَرحًا وبهجة وإحساسًا بالإنجاز والتفرُّد والتحرُّر، فلا أجد إلا حصاد المرارة والخيبة والشعور بالضجر والوحدة، وأحاسيس الغربة المقيتة، وهو ما أراه يحدث لأوليفيا نفسها، ولوالدها، ولمغامرته الكبرى، التي فيها أفراد أسرته، وهو يترك مركزه الحزبي الكبير، لأنه رأى فيه طَمسًا لحريته، وغيابًا لإرادته، وها قد مارس هذه الإرادة، وخرج إلى فضاءات الحرية، فماذا كانت النتيجة، إنه نفسه يقول إنه لا يرى الحياة إلا أقفاصًا،

وأن قدر الإنسان أن ينتقل من قفص إلى قفص، وإذا كانت ابنته بالضرورة تعكس إحساس هذه العائلة في حياتها الجديدة، فهو بالتأكيد إحساس مُمِضٌّ وحارق، ولا يزداد صاحِبُه مع الأيام إلَّا تعاسة وألمًا، فماذا يمكنني أن أستفيد على المستوى الشخصي من هذا الدرس؟

لا أريد أن أبدو أمام نفسي جبانًا، خائفًا من الاستمرار في طريق الانشقاق والمعارضة، ولكنني لا أريد أن أمضي في الطريق معصوبَ العينين، ولا بُدَّ أن أبذل جهدًا لأتبصَّر موضع قدمي، في هذا الطريق، وأعرف ما ينتظرني من مشاق وصعوبات، لأجد إن كنت قادرًا حقًّا على مواجهتها والانتصار عليها، أو سأعضُّ على أصابع الندم، حين لا ينفع الندم. يقولون: «ما خاب مَن عاد من منتصف الطريق، إذا اتَّضح له أنه طريق الخيبة والندامة»، وأنا لا زلتُ في بداية الطريق، لم أخسر شيئًا بعدُ، ولكن الخسارة بالتأكيد ستبدأ عمَّا قريب، خاصة بعد سحب غطاء البعثة الدبلوماسية، فسيكون حسابي مكشوفًا، وسيبدأ كل يوم يمرُّ هو سحب على الأحمر.

لا يجب أن أنسى أن هناك غطاء ذهبيًّا هو الذي أنشد الاحتماء به، وهو كفيل بأن يحيل حسابي إلى حساب أرباح لا خسائر، وهو غطاء الحب الذي أحمله لأوليفيا، فإذا كانت سِكَّة هذا الحب آمِنةً؛ فإن طريقي كله سيكون آمِنًا، أمَّا إذا ظهر شيء يقول بأنه طريق مُقفَل، فإن سِكَّتي كلها ستكون الخسارة والندامة والفشل. وليس أمامي إلَّا الانتظار، وهو انتظارٌ للأسف الشديد، يطول ويطول، دون أن أملك أيَّ سبيل لجعله أقصرَ وأسهل. ولا بديل غير الصبر والانتظار والأمل.

لم تنقطع اتصالاتي الهاتفية مع ليبيا، بما في ذلك زوجتي والطفلتين: ريما وسارة، حيث لا سؤال على ألسنتهم إلَّا: «متى أعود؟»، أمَّا أخي، الذي كان وحده يعرف قرار اعتزام الانشقاق فهو يتحدَّث معي وكأنه لم يسمع أو يستوعب هذا القرار، ربما بسبب تحفُّظات أمنية، وخوفَ أن يكون هناك تنصُّت على مثل هذه المكالمات، إلا أنه لا يشير إلى ذلك حتى رمزًا، ويستشيرني عن برنامج أعدَّه لي عندما أعود، ودار ضيافة ينتظر عودتي لأعطيه رأيي في خريطتها؛ ليباشر بنائها، وقد وصله هو أيضًا خبر الزحف على السفارة، بما يفيد إنهاء عملي، سائلًا عن موعد عودتي، مُستَخدمًا ما يمكن اعتباره ابتزازًا عاطفيًّا؛ لإرغامي على العودة، هو حديثه عن أمي المريضة التي تريد أن تراني، مع أنني كنت أعلم من زوجتي أنها بحالة طيبة، وتريد أن تعاود السفر لأداء فريضة الحج في العام القادم.

هدنة يوم واحد أعطتها العاصفة الثلجية لمدينة بون، ظننتها، وربما ظنَّها كل أهالي العاصمة الألمانية، أنها نهاية العزلة التي فرضها الثلج على حركتي وحركة المدينة، وبداية أيام الصحو، إلَّا أن العاصفة عادت في اليوم التالي إلى هديرها المفزع، وبشكل أكثر عنفًا وقسوة.

حصل اختراقٌ لعُزلَة الجليد، أرسلته العناية الإلهية ليخفِّف عبء وقسوة مشاعر الإحباط التي هبطت مع هبوطه، عندما تلقَّيتُ المكالمة التي طال انتظاري لها من «أوليفيا»، لتقول بلهجة الأسف والاعتذار إنها فشلت في تأمين لقاء خارج القصر، إلَّا أنها أحرَزَت نجاحًا في اعتراف قوة الحماية بأنها امرأة في مرحلة النضج، تحرص على استقلالها وخصوصيتها، حتى

وهي تعيش حياة المنفى؛ ولذلك فقد تمَّ تحت إلحاحها تخصيص جناح خاص بها في القصر، انتقَلَت إليه، بعد أن كانت تحتلُّ غُرفةً في جناح الأسرة، وهي تستطيع في الجناح استقبال أصدقائها وصديقاتها بعد استيفاء الشروط الأمنية، وهي تستطيع، بناء على الترتيب الجديد، أن تستقبلني في القصر منذ الآن، إن كنتُ جاهزًا لذلك، وسترسل لي سيارة تنقلني إليها؛ لأن هناك تطوُّرات لن تستطيع أن تقولها في الهاتف، ورغم رعب الطقس خارج الفندق، فقد رحَّبتُ بالذهاب إليها، في أية لحظة تشاء، وسأهبط، قلتُ لها، منذ هذه اللحظة إلى ردهة الفندق، ليجدني مرسولها بانتظاره.

مرَّت لحظة صمت قبل أن تطلب مني أن أُرتِّب مع الفندق بأنني سأغيب ليومين أو ثلاث، قد نقضيها في نزهة خارج بون، وتسألني أن أحضر بيجامتي وفرشاة أسناني، ورغم استغرابي لأية رحلة أو نزهة تحصل وسط هذه العواصف، وأكوام الجليد التي تتراكم فوق أسفلت الطرقات. لم أستطع إلَّا أن أقول «نعم» لكل شيء تقوله لي، وأخبرت الفندق أنني قد أغيب بضعة أيام، راجيًا أن تبقي غرفتي كما هي حتى أعود، ومرتديًا معطفي لأول مرة في بون، وفي يدي حقيبة صغيرة تحتوي ما أوصتني به، جلست أنتظر الرسول.

لم يلبث أن جاء رجل الأمن نفسه الذي رافقني في المرة السابقة، يحمل في يده مظلَّة عملاقة، ما زالت ندف الثلج عالقةً بها، رغم أنه طواها جيِّدًا حين دخوله الفندق، ثم أعاد فتحها ونحن نجتاز الباب باتجاه السيارة، التي انطلق بها السائق في طريق يقود إلى القصر، وكانت السيارات التي تجرف الثلج تجوب الطرقات لتنظيفها ممَّا تراكم فوقها من ثلوج، إحداها كانت تمضي أمامنا ونحن نتبعها ببطء.

كان التفتيش في بوابة القصر هذه المرة صارمًا. كل ما كان فوق ظهري من ملابس، وما في قدمي من زوج أحذية، علاوة على الشنطة، دخل آلة الفحص، مثلما دخَلتُ أنا شبه عارٍ بنفس الجهاز، وقادني المرافق إلى الطابق الثاني، وليس إلى المكان السابق، في الدور الأول، وإلى جناحٍ له بابٌ وناقوس، فتَحته امرأةٌ ترتدي هندامًا أنيقًا، أدخلتني إلى الصالون، واستأذنت في إخبار سيدتها بوصولي، وكان مُذهِلًا بالنسبة لي أن أرى صورة شخصية متوسطة الحجم، ترتكز فوق قطعة أثاث غرفة الصالون، فتقدَّمتُ قبل أن أجلس أتأمَّل الصورة لأتأكَّد أنها حقًّا صورتي، دون أن أذكر أنني أعطيتها لها، لفحني الصهد الذي يخرج من مدفأة الجمر عند اقترابي من الصورة؛ فرجعت خطوات إلى الوراء، وانتبهتُ إلى أن صورتي محاطة بجدران تحمل لوحات مائية وزيتية، بعضها كلاسيكي قديم ينتمي ربما إلى عصر النهضة، لها أطراف ذهبية، مع عدد قليل من لوحات حديثة لا أُطُرَ لها، وأرفف من الكتب تحتلُّ جانبًا من الصالون، وطنافس وحشايا وتُحَف، ورغم الاكتظاظ والزحام لكل هذه المقتنيات التي تضيف مزيدًا من البذخ إلى المظهر الباذخ في الألوان والسقوف والأقواس والستائر المخملية، فإنه بدا أنيقًا، فيه براح وفسحة، لا تنقص من دفئه وحميميته وأُلفَته، ورأيتها قادمةً من غرفة داخلية، تجرُّ أذيال ثوب النوم الأزرق هذه المرة، بطيَّاتٍ كثيرة، وهفهفات أوجبتها حركة الجسم الذي عاد له إيقاعه ومرحه، وكان أول ما تلقَّيته منها تلك النظرة المُحِبَّة الجميلة، وقد عادت تبرق من عينيها تلك اللمعة، تلك الإشراقة، وذلك المدى الأزرق بصفائه واتساعه وبهائه، تقدَّمتُ إليها فاتحًا ذراعي آخُذها في حضني وأُبقيها قريبًا من قلبي، غير راغب في تركها، كأنني أسعى

لتحقيق التحامٍ أبديٍّ بيني وبينها، بين جسدي وجسدها، روحي ورحها، دمي وأعصابي ونبضي ودمها وأعصابها ونبضها، بين كل خليَّةٍ في بدني وكل خلية في بدنها، أدرك وأنا أحتضنها، تمام الإدراك، أن حبي لها حب مختوم بشمع إلهي أحمر، لا فكاك منه وغير قابل للانفصام.

كانت قد رأتني لحظة دخولها الصالون، أنظر إلى صورتي، التي تعرف أنني استغربت وجودها، وسألتني ألَّا أستغرب؛ لأن هناك ضرورة أملت وجود الصورة؛ لأنه كان لا بُدَّ أن تُبرِّر أمام سلطات الأمن حاجتها إلى جناح خاص بها، وهذا التبرير اقتضى أن تقول إن لها «بوي فريند» منذ أن كانت في بوخارست، وجاء يتبعها إلى بون، وهي لا بُدَّ أن تحصل على قسط من الحرية والخصوصية لاستقباله خارج الإطار العائلي الذي تعيش فيه، واختارت أن تعهد لي بهذا الدور؛ لأنه ليس في حياتها مثل هذا الـ «بوي فريند»، ودون احتجاج من طرفي على اعتباره دورًا، فالعبرة بالنتائج، وليست بالقوالب الكلامية التي يقتضيها سياق الأحداث، سألتها عن الصورة كيف جاءت ومن أين، فقالت بأنه لحظة إبلاغهم بهوية هذا الـ «بوي فريند»، لاحقوه بالتحريات، وأحضروا لها تقريرًا وافيًا عن تفاصيل حياته، موجود كما أخبرتني في ذلك الملف، وأشارت إلى ملفٍّ فوق طاولة تلتصق بإحدى زوايا الصالون، وقد جاءت الصورة مع هذا الملف، فأخَذَتها وعملَت على تكبيرها ووضعها في إطار؛ لإظهار أهمية هذا الـ «بوي فريند» بالنسبة لها؛ فلا يمانعون من زيارته لها والتحاقه بها في هذا الجناح.

سألتها عمَّا إذا وجَدَت في التقرير شيئًا تُنكِره في سِجلِّ حياتي، أو لعله تضمَّن مبالغات تحتاج إلى توضيح وشرح من طرفي، فقالت بأن مثل هذه التقارير تنقل بأمانة ما تستقيه سلطات الأمن من مصادر رسمية، مثل ملفَّات السفارات، وغيرها، فهم -كما قالت- يعرفون عني أكثر ممَّا أعرف عن نفسي، وهم يعتبرونني قد أصبحت مُنشقًّا عن النظام الليبي، وأرتبط بعلاقة ما مع مُعارضٍ موجود في رومانيا، ومع السفير السابق في بون، الذي أعلن انشقاقه، وهو الذي أكَّد لهم انشقاقي، ثم سألتني سؤالًا مفاجئًا، عن كيف أستطيع احتمال أن أفارق بنتيَّ: ريم وسارة، وأتركهما تعيشان بعيدًا عني. فرأيت في كلامها هجومًا مُغلَّفًا عن سابق حياتي التي لم أكُن صريحًا حولها، وأنا أعلن لها حبي، فأوقفتها لحظة لأشرح لها أنني كنتُ دائمًا أريد أن أعطيها فكرة عن وضعي العائلي، وكانت تمانعني عن الاستمرار في الكلام، بحَزمٍ وقوة، لأنها لا تريد الحديث عن أي ارتباطات مستقبلية؛ فلا الماضي يهمُّها، ولا المستقبل يعنيها، ولا تقبل حديثًا ولا اهتمامًا خارج إطار اللحظة الراهنة، وأرادت أن تتكلَّم، فسألتها أن تمهلني لأكمل حديثي، قائلًا:

- هناك جدار فاصل بين حياتي قبل أن أعرفك، وحياتي بعد أن حصل هذا التعارُف بيننا. تلك صفحة طُوِيَت، وهذه صفحة فُتِحَت.

واقتحَمَت هي مجال الحديث بقوَّة وحِدَّة، قائلة بأن الحالة بالنسبة لها تختلف؛ لأن هناك جدارًا فاصلًا بين حياة كانت موجودة في الماضي، وبين فراغٍ تراه مَهولًا يمتدُّ أمامها، هو المستقبل؛ ولهذا فهي لا تعني عتابًا ولا لومًا، أو ترى أية مسؤولية يحملها لي أو لها هذا الحب الذي بيننا، وهي تعترف بأنه حبٌّ، وله قوَّة حضور في وجدانها، كما له قوَّة حضور في

وجداني، ولا تشكُّ لحظة في ذلك، ولكنها لا تريد أن تبني على هذا الحب آمالًا، وتكتفي منه بما تُتيحه هذه اللحظة، وهذه الدَّقيقة، هنا والآن وليس هناك غدًا.

لا أدري إن كنتُ استوعبتُ استيعابًا كاملًا ما كانت تقوله، أو أنني أضفته إلى كلام قديم ورأيته مُجرَّد إعادة إنتاج لنفس المنطق الذي لم أَدَعه يحول دون التفكير في مستقبل هذه العلاقة، وبدا أنني محتاج لتبرير الماضي الذي انبثق فجأةً أمامها، دون تمهيدٍ ولا ترتيب من طرفي، فقُلتُ إنني أريدها أن تعرف أن ما قرأته في التقرير هو الماضي الذي لا أُنكِره، ولكن هناك فعل ماضٍ ناقص، كما نقول في اللغة العربية هو «كان»، ويجب إضافة كان إلى كل ما يتَّصل بسابق الأحداث التي عِشتها لكي يستقيم المعنى. فضحكت قائلةً إنها لا ترى اعوجاجًا في أي معنى من المعاني، غير وجودنا واقفين نتجادَل فيما لا جدوى منه؛ لأنها لم ترسل ورائي من أجل هذا الجدل، وأن مجرَّد وجودي في هذا الجناح، وتجاوُز هذه الأسوار وأجهزة الفحص وحلقات الحماية، إنما هو إنجاز لا يجب إهداره، ولا معنى لأي كلام في غير موضوع واحدٍ يجمع بيننا في دفء هذا الصالون هو الحب.

اتَّجَهَت إلى حيث الشراب فصنعَت كأسين، وأعطتني واحدًا، وضرَبَت كأسها بكأسي لنشرب نخب هذا اللقاء، وتقدَّمَتني للجلوس، فجلست مجاورًا لها، أسألها عن قصة النزهة التي ذكَرَتها في الهاتف، والتي تبدو ضربًا من المستحيل في مثل هذا الطقس العاصف. فقالت بأنه لا وجود لأي نزهة خارج هذا الجناح، وأنها قالت ما قالته لكي تريدني أن أكون جاهِزًا لقضاء يومين أو ثلاثة معها تحت الحصار.

قلتُ لها إن أقصى أمنياتي أن أقضي تحت هذا الحصار كلَّ ما تبقَّى من عمري معها، راجيًا أن يبدأ ذلك منذ هذه اللحظة ويستمرَّ إلى الأبد وليس ليومين أو ثلاثة أيام، إلَّا أنها أسرَعَت تقول بأن هناك ضرورة استوجَبَت هذه الدعوة، وهي تريدني أن أحفظ سرًّا ستقوله لي الآن، وألَّا أخبر به أحدًا آخر، فقد استقرَّ رأي الدوائر الأمنية، بالاتفاق مع والدها، على مغادرة ألمانيا إلى إحدى البلاد في الأمريكتين، حيث سيتمُّ الرحيل في تكتُّمٍ وسِرِّيَّة، وربما لن يتأتَّى لها أو لأسرتها معرفة المكان بالضبط، حتى وصولهم إليه، ولعلَّ والدها فقط تمكَّن من أن يشارك في اختيار المكان، كذلك فقد يذهبون إلى هناك بهويَّات جديدة، وأسماء جديدة، وقد يقتضي الأمر عمليات جراحية بسيطة لإحداث تغيير طفيف في الملامح؛ ولهذا فقد استدعتني هنا لأنها قد تكون آخرَ مرَّة تمارس فيها حياتها بشخصيَّتها العادية الطبيعية.

وقاطَعتُها صارخًا:

– وقد يكون آخر لقاء بيننا، هل يمكن ذلك؟

– ليس بالضرورة.

– وما يمكن عمله لأن نواصل اللقاء؟

– لا تستعجل الحكم على الأمور.

–ربما يكون الاستعجال مُفيدًا، لكي أضع نفسي ضمن خطة هذه الرحلة السرية الأمريكية.

– اشرَبْ كأسكَ، وسيكون أمامنا وقت للتفكير.

وكأنَّما تعمَّدَت تغيير الموضوع، فأشارت إلى إحدى اللوحات التي رسَمَتها بالألوان المائية، مُعبِّرة عن حبِّها لهذه الوسيلة من وسائل الرسم التي تفضِّلها –كما تقول– عن أيَّة وسيلة أخرى؛ لأنها تراقب دائمًا باندهاشٍ ما يحدث من تفاعُل بين الماء والألوان والورق، مُضيفةً إلى ذلك أنها تبدأ رسم اللوحة فإنها لا تستطيع أن تتنبأ بالنتيجة وبضربات الفرشاة العشوائيَّة، تبدأ الحياة تظهر في الطبيعة الصامتة، كما في هذه اللوحة أو تلك. ثم تشير إلى عدد من اللوحات المعلَّقة على الجدار، بينما كان صعبًا بالنسبة لي أن أعطي اهتمامًا لحديثها عن الفن والأساليب التي تُفضِّلها في الرسم، وقد وضعتني أمام هذا المصير المجهول لقصَّة حبنا، وعلاقتنا التي لم تَتَبرعَم زهورها إلَّا في هذه الأيام الأخيرة، وها قد وضعت حياتي كاملة، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا، على المحكِّ، بأمل أن أصل بعلاقتي معها إلى ضفاف الأمان والاستقرار، فأجدها اليوم ترمي بي في لُجَّة عاتية، لا أدري إلى أي مآلٍ ستقذف بي.

كانت المرافقة، التي فتَحَت لي الباب، قد اختفت بعد ظهورها الذي استمرَّ لأقل من دقيقة، وعادت الآن للظهور لتقول إن العشاء جاهز، فانتقلنا إلى مائدة حافِلةٍ بالصُّحون، ربما تصلح لعشرة أشخاص، وكانت كل الأطباق موضوعة على الطاولة، بحيث لن تبقى حاجةٌ لأحدٍ يتولَّى الخدمة، شوربة «الفقاع» لا تزال ساخنة، وغطاء فوق الأطباق يحفظ سخونتها، أمَّا شرائح اللحم المشوي فقد كانت وسط إناء موجود فوق موقدٍ كهربائي، مع أطباق كثيرة من السَّلطات، ونوع من النبيذ الذي تُنبِئ زجاجته بالقِدَم والعتاقة، واتَّخذ الحديث على مائدة الطعام طابعًا شخصيًّا، فقد عرجَت به على طفولتها، والطعام في المدرسة الداخلية التي عاشت فيها فترة من الوقت، ومُربِّيات وخادمات وطُهاة، وأساليب مختلفة في الطعام؛ جعلتها تتفتَّح على أنواع طعام ومطابخ تنتمي لأُمَمٍ شتَّى، وسألتني عن طابع الحياة البدوية الريفية التي عِشتُها في طفولتي، فلم أجد حرَجًا في شرح جوانب من حياة المزرعة في تاجوراء، ومجاورة ضباط القاعدة الجوية الأمريكية لنا في السكن، واختلاطي ببعض أولادهم، في مرحلة الصِّبا، وواصَلتُ الحديث في هذا الجانب الذي يسهم في تعميق التواصُل بيننا، ولكنني أعود فأسأل عن مصير هذا التواصُل، إذا كان الأفق يبدو مُغلَقًا، كما أراه، من خلال ما سمعته من حديثها هذا المساء.

كان للنبيذ تأثير بالغ العذوبة، وله نشوة تختلف عن حالات الانتشاء التي تَنتُج عن تناول أنواع أخرى من الخمور؛ لذلك لم يكن غريبًا أن تصل أثمان الزجاجة الواحدة من مثل هذا النبيذ إلى أرقام فلكية، وكانت لمعة الحب في عين «أوليفيا»، تَعِدُ بليلةِ عِشقٍ استثنائية، نعيشها معًا، إلَّا أنني رأيتها تقف إيذانًا بانتهاء جلسة الطعام، قائلة:

– أظنُّ أنه حان الوقت لأن ترى غرفة نومك.

ولم أستطع أن أبدي اندهاشًا أو احتجاجًا، أو أفتح فمي متسائلًا، عن لماذا تسألني المجيء للنوم في جناحها، إذا كنتُ سأنام في غرفة مُستقلَّة عن غرفتها، وسمعتها تسأل المرافقة أن تقودني إلى غرفة نومي، فسِرتُ أتبعها حتى فتحت الباب، وللحظةٍ سوَّلَت لي نفسي أن أسحب المرافقة نفسها وأطرحها فوق سريري، وأُرغِمها على أن تكون شريكتي تحت الشراشف؛ انتقامًا من «أوليفيا»، وتعويضًا عن خيبة الأمل التي أحسستُ بها، وكانت الغرفة مكانًا مثاليًّا لليلة حبٍّ، فقد وجدتها تسبح في عبير جميل، لم أنتبه إليه إلَّا بعد أن رأيت موقدًا صغيرًا يرسل بخورًا شرقيًّا، له عَبَقٌ مُسكِر، وكان لمدفأة الغرفة ديكور جميل يجعلها تتَّقِد بجمر الفحم، رغم أنها مدفأة كهربائية، وكانت الرياح تصل قوية إلى الغرفة؛ لأن هناك أشجارًا تلتصق بالشرفة المغلقة، تصفر فيها الريح، ويهطل الثلج، وتصفق الأغصان، ويرزم الرعد، وتلمع عبر خشب النافذة ومضاتُ البرق؛ فتصنع مناخًا وجوًّا دراميًّا، يحتاج إلى عنصر العشق لكي تكتمل التوليفة، التي تجعل من هذه الليلة ليلة تاريخية بحقٍّ.

خلعتُ بدلتي، وارتديت بيجامتي، ودخلتُ سريري ساحبًا كتابًا وجدته مكتوبًا باللغة الإنجليزية، لكي أتسلَّى قليلًا قبل النوم، وكنتُ مُستغرِقًا في القراءة عندما دخَلَت ترتدي روبًا نضَّته عن جسمها، ودخلت عاريةً إلى سريري ولفحني عِطرُها، قبل أن أحسَّ بليونة جسمها تعتصر جسمي.

– جئتُ ألتمس الدفء بجوارك، فماذا ترى؟

– أرى أن الصواعق التي تتفجَّر خارج هذه الغرفة، انتقَلت إلى داخلها.

استدرتُ بجسمي إليها، آخُذُها في حضني وأغمر جسمها بالقُبلات، والكلمات تخرج من أنفاسي اللاهثة قائلًا:

– كنت أوشك على أفتح النافذة وأقذف بنفسي خارجها؛ تعبيرًا عن إحساسي بالخيبة والصدمة، وأنتِ ترسلين بي إلى هذه الغرفة.

– إنها مجرد تقنية بسيطة لزيادة لهيب الحب.

– شعلة الحب في صدري شديدة التوهُّج والاشتعال، ولا تحتاج لأية تقنيات تؤجِّجها.

– وها هي فيما يبدو قد انتقَلَت من صدرك إلى جسمك.

– دعينا نحترق معًا إذًا.

اعتصرتُها بقوة، اعتصارًا كالإعصار، ينقل عنف العشق الذي أحمله لها، وحرقة الشوق الذي عانيته وأنا أنتظر أن يتجدَّد الوصال، فتضاحَكَت وهي تراني أهرس عظامها، قائلة إنها فعلًا جاءت تسعى إلى الحصول على ليلة حبٍّ شرقية، وأحرقت أعواد البخور لإضفاء هذا العَبَق الشرقي عليها، ولكنها لا تريدني أن أحطِّم عظامها، وإنما أتعامل معها بلمسات الرِّقَّة والحنان، ولا تريد استعجالًا في الوصول إلى لحظة الشبق والذروة، وأن نأخذ وقتًا لتدليك الجسد بالجسد.

استمرَّت جلسة التدليك بالجسد ثلاثة أيام، قبل أن تعود بي ذات السيارة إلى الفندق، وقد انتهى الجوُّ العاصف، وعاد شتائيًّا باردًا، بلا عواصف، ولا ثلج. عُدت إلى الفندق لأواجه الفراغ من جديد، فراغ ربما أكثر هَوْلًا وقسوة من فراغ الأيام الماضية، حيث كانت «أوليفيا» ضوءًا يلوح في نهاية الطريق، ولكن هذا الضوء صار ينسحب ويتلاشى، وبكل ما أملك من لوعةٍ وألم حاولتُ أن أمسك به وأنا أراه يهرب من بين أصابعي، وكان كل ما طلبته منها قبل الفراق هو ضرورة أن تكون هناك واسطة اتصال بيننا، وانتهت بأن أعطتني رقم هاتف هو مدير مكتب الحماية في بون، وهو لن يكون بإمكانه أن يعرف عنوانًا ولا رقم هاتف لها في موطنها الجديد، وإنما أستطيع أن أترك عنده عنواني ورقم هاتفي، بعد أن أضمن استقراري في مكانٍ ما، وسوف تتَّصل هي بهاتف المكتب لتأخذ أية رسائل يتلقَّاها بالنيابة عنها.

لم أكن أعرف ماذا أستطيع أن أفعل بنفسي، وأنا أقف وسط هذه المتاهة، يكتنفني الفراغ من كل جانب، أواجه المجهول، لا أعرف لي هدفًا ولا طريقًا، وها أنا أصل الفندق الذي بدا كأنه آخر الدنيا، حيث تنتهي أرض البشر ولم يَعُد بعده إلا بحر الظلمات، لا أحد ألجأ إليه، أُكاشِفُه همًّا، أو أسمع منه كلمة مواساة، أو أستعين برأيه في إيجاد مخرج لي. الصديق الوحيد، في هذه البلاد، السيد «مفتاح»، غاب ولم يظهر من جديد، ربما لكي يُضلِّل الزواحف التي تتعقَّبه، فلا يعطيها فرصة الاهتداء إليه.

مَن بقي لي إذًا؟

لم يَعُد ثمَّة أمل في اتصال من «أوليفيا»، فقد ودَّعتني باعتبار أنها على أهبة الانطلاق في مغامرة حياتها الجديدة، وأرى بعين الخيال كأنَّ ستارًا يقفل على المشهد الأخير من مسرحية عِشتُ فصولها، حتى لحظة الختام.

ربما كنت سأعود إلى بوخارست لو ظلَّت على وضعها الأول، لأجد فيها براحًا للتفكير، وإعادة تدبير خططي للمستقبل، ولكن الزحف على السفارة جاء ليجعل القطيعة كاملة معها.

يظلُّ سؤال انضمامي إلى المعارَضة سؤالًا مطروحًا، وقد ربطتُ بين هذا الانضمام، وبين الارتباط بـ «أوليفيا»، وهو ارتباطٌ يقتضي أن أعيد النظر في هذا الانضمام، على ضوء هذه التَّطوُّرات التي حصلت، وربما على ضوء ما عرفته من ظروف هؤلاء المعارضين، والأجواء التي تحيط بهم، بينها هذه الخيبات التي رأيتها تصيب المعارضين، في هذه النماذج الليبية والنموذج الروماني، ثم المناورات الحقيرة الرخيصة، ووسائل الإجرام البشعة التي تواجه بها أنظمة القمع معارضيها، ورغم أن أمر مثل هذه الخيبات وهذه المطاردات معروفٌ لكلِّ مَن يتنكَّب هذا الطريق، بل يصل به الحال إلى أن يضع حياته على المحكِّ، ويبذل دمه وروحه، ويسقط شهيدًا في المعركة، ولكن يبقى السؤال الذي لا بُدَّ لإنسان مثلي أن يسأله، وهو يقف على شاطئ المعارضة، وقد اختفى القارب الذي كان جاهزًا لركوبه، يخوض به اليَمَّ، ويواجه به الموج، ويمضي به المدُّ، أي قارب حبِّي لأوليفيا، يسأله لنفسه ويقف منه موقف مُراجَعة وتأمُّل، وهو سؤال الجدوى، وليس المجازفة؛ لأنه لا وجود لعمل وطني دون مجازفة، سؤال الجدوى الذي يسبق سؤال المجازفة والتضحية وبذل الروح والدم.

لعلَّني حقًّا أحتاج لأحدٍ مضى في هذا الطريق قَبلي، واستطاع أن يرى ما لا أراه، ويعرف ما لا أعرفه، ويخبرني بحقيقة وجود مثل هذه الجدوى، ومثل هذا الثمن، للسير في طريق المجازفة والتضحية وبذل الأرواح.

يبدو غريبًا أنني أفكِّر في الانضمام إلى معارضة لا أستطيع أن أتَّصِل بأحد من عناصرها، تذكَّرتُ زميل الدراسة، المعارِض، والناطق الإعلامي باسم إحدى الفصائل، الذي شاهدته في حانة قريبة، فعاوَدتُ الذهاب إليها لكي أقدِّم له نفسي، وأَنشُد نصيحته وعونه، لكنه لم يظهر في الحانة مرة أخرى، رغم تردُّدي عدَّة مرَّات.

لم يَعُد لي ما أبقى من أجله في بون، وحان أن أذهب إلى أي مكان آخر أجد أحدًا أتكلَّم معه، ربما بلد عربي مثل مصر أو المغرب، لأجد أناسًا أعرفهم من أهل المعارضة، أسترشد برأيهم، وقبل أن يستقرَّ رأيي على البلد الذي أنتقل إليه، تلقَّيتُ مكالمة من ليبيا تقول بأن والدتي في حالة مرضية حَرِجَة، وأنها تسأل عني، تريد أن تراني قبل أن تنتقل إلى جوار خالقها.

ظننتُ في البداية أنها حيلة من حِيَل أخي الأكبر، الذي استخدم مرض الأم في الضغط لكي أعود، ولكن ليس دائمًا بهذا الإلحاح، كما أنه لم يستخدم في السابق كلمة الموت والوداع، ومع هذا اتَّصلتُ بأقارب آخرين، أجمعوا على خطورة الحالة التي تمرُّ بها الوالدة، وعندما سألت عن لماذا لم يتم علاجها في المستشفى، أفادني قريب أثق في رأيه ومداركه، قال إن ثمة قريبة طبيبة تتولَّى مباشرةً علاجها في البيت، وهو علاج يقتصر على المسكِّنات؛ لأنها حالة ميؤوس منها، وأنه يجب أن أسرع بالعودة إذا أردتُ أن أفوز بإلقاء نظرة عليها قبل الرحيل.

يعزُّ عليَّ طبعًا أن أتركها تموت دون وداع، وطالما أنني لم أتورَّط بعدُ في أي موقف يمنع عودتي؛ فلا عُذرَ إذا تخلَّفتُ عن حضور لحظاتها الأخيرة، والمشاركة في جنازتها، وأخذ العزاء فيها، ولأَعُد إذا أردتُ سيرة الهجرة والانشقاق بعد الوفاء بهذا الالتزام نحو الأم.

كنت ما زلت أملك تذكرةَ عودة إلى طرابلس، أسلَمتُها إلى مندوب العلاقات العامة في الفندق، وحدَّدتُ له يوم السفر، وصفَّيتُ حسابي مع الفندق، وقلت وداعًا لمدينة بون، مُستقلًّا طائرة «لوفتهانزا»، باتجاه مطار طرابلس الدولي.

لم تكن الطائرة، وهي تباشر الإقلاع من مدرج مطار بون، تترك مطارًا ومدينة وأبراجًا ونهرًا وحدائق وغابات، كما يبدو المنظر لراكب في طائرة تغادر أو تباشر الهبوط في هذا المطار، وإنما أحسَستُ بها تترك بقعة من الأرض عامِرةً بشظايا قلوب محطَّمة، ونُثار مشاعر وانفعالات، وشذرات أحلام وآمال، تتناثر وتلمع فوق الأرض مثل قطع الزجاج، وبقايا موائد حُبٍّ وشَبَقٍ وجنس، وقطعة من الدانتيلا داكنة السواد من ليل المعاشرة واندماج الروح بالبدن، وبين ثنايا هذا الركام، تراءى لي وجه «أوليفيا»، بصفاء اللون الأزرق في عينيها، ممزوجًا بإشراقة الحب ولمعانها، ونضارة الشباب يُشعُّ به وجهها المشرب بحُمرَة الصحة والعافية والجمال، تلوِّح لي بيدها، تقول لي: «وداعًا».

فرفعتُ نحوها يدي ألوّح بها؛ ردًّا عليها، قائلًا، بصوت مشحون بما أحمله من حُبٍّ وأمل لا ينضب ولا ينتهي:

– لا تقولي وداعًا، ولكن إلى اللقاء.

---

* – قصيدة «تشي فاتشي يا دراقة»، تُنسَب للشاعر سالم أبو دومات.

* – أغنية «يا غالية يا حب قلبي كله»، كلمات: عمر المزوغي، ألحان: عطية محمد، غناء: أحمد سامي.

مختصر السيرة الذاتية
للدكتور أحمد إبراهيم الفقيه

الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه (1942-2019)، تولَّى عددًا من المناصب في ليبيا، وأسهم في تشييد صروح ثقافية هناك، مثل تولِّيه منصب مدير المعهد الوطني للتمثيل والموسيقي، ومجلة «الثقافة العربية»، ومجلة «آزيور» باللغة الإنجليزية، ورئاسة المجلس العربي للثقافة في لندن، والمساهمة قبل ذلك في تأسيس وإدارة مجلة «الرواد»، ثم مؤسِّسًا وأمينًا لاتحاد الكتَّاب والأدباء، ورئيسًا لبعثتَيْ بلاده الدبلوماسيَّتين في كلٍّ من أثينا وبوخارست.

صدر له أكثر من سبعين كتابًا، منها: عشرون رواية، وأربعون مسرحية، وعشرون مجموعة قصصية، وآلاف المقالات الفنية، التي ظلَّ ينشرها على مدى العقود الخمسة الماضية بشكل أسبوعي، وأحيانًا بشكل يومي، عَدَا البرامج الإذاعية المرئية والمسموعة.

صدرت عشرة كتب تحمل بحوثًا عن أعماله، بعضها قُدِّم كرسائل ماجستير ودكتوراه، كما صدر في بكين كتاب يحمل الدراسات التي كُتِبَت عن قصصه ورواياته المترجمة إلى اللغة الصينية، بعنوان: «أحمد إبراهيم الفقيه والأدب العربي المعاصر». كما صدرت باللغة الإنجليزية تسعة كتب تحمل ترجمة لرواياته وقصصه، وقُدِّمَت مسرحياته فوق شتى المسارح باللغة العربية في بلاده، وبلدان مثل: مصر، والأردن، والمغرب، وقُدِّمَت مُتَرجَمةً إلى الإيطالية في ميلانو، وإلى الإنجليزية في نيويورك وكاليفورنيا، وفي بريطانيا، في مسارح: «لامدا»، و«الجيت ثياتر»، ومسرح «برنارد شو». وشهدت كثير من عواصم العالم ندواتٍ واحتفاليَّاتٍ بإنتاجه. حمل عددًا من الأوسمة وشهادات التقدير والأنواط والجوائز من بلاده، وعدد من البلاد الأخرى.

انضمَّ العام 1997 لكُتَّاب الأهرام، كتب بابه الأسبوعي كل خميس، ثم مقالًا كل أسبوعين في صفحة الكُتَّاب، كما كتب بابًا أسبوعيًّا لصحيفة القاهرة، ونشر مقالاته بشكل غير منتظم في صحيفتَيْ: الحياة، والشرق الأوسط.

انضمَّ للعمل مع المندوبية الليبية لدى الجامعة العربية؛ عضوًا في الوفد الليبي بالجامعة، كما كلف بالإشراف على كلٍّ من القسم الإعلامي بسفارة ليبيا بالقاهرة، والقسم الثقافي بها؛ المعني بشؤون الطلبة الليبيين الموفَدين للدراسة في الجامعات المصرية. تفرَّغ للعمل مع اتحاد الكتاب الآسيويين والأفريقيين، عمل في طاقم الإشراف على مجلة «لوتس»، في طبعاتها متعدِّدة اللغات.

وهذا ثَبتٌ بمُجمَل أعماله، وما كُتِب عنه:

1- البحر لا ماء فيه (قصص).

2- اربطوا أحزمة المقاعد (قصص).

3- اختفت النجوم فأين أنت (قصص).

4- امرأة من ضوء (قصص).

5- خمس خنافس تحاكم الشجرة (قصص).

6- مرايا فينيسيا (قصص).

7- ثلاثون قصة قصيرة (مختارات قصصية).

8- في هجاء البشر، ومديح البهائم والحشرات (قصص).

9- حقول الرماد (رواية).

10- سأَهَبُكِ مدينة أخرى (رواية) وهي الجزء الأول من الثلاثية.

11- هذه تخوم مملكتي (رواية) وهي الجزء الثاني من الثلاثية.

12- نفق تضيئه امرأة واحدة (رواية) وهي الجزء الثالث من الثلاثية.

13- فئران بلا جحور (رواية).

14-26 الرواية الاثنا عشرية خرائط الروح (رواية من اثني عشر جزءًا).

27- ابنة بانايوتي (رواية).

28- بشر وحشرات (قصص).

29- هكذا أتذكَّر هند (قصص).

30- قصص من عالم العرفان (قصص).

31- صورة جانبية لصانع العيد (قصص).

32- كتاب الوميض (قصص قصيرة جدًّا).

33- ثلاث مسرحيات ساخرة (مسرحيات).

34- المسرحيات الطويلة (مسرحيات).

35- المسرحيات الغنائية (مسرحيات).

36- المسرحيات القصيرة (مسرحيات).

37- أمام محكمة التاريخ (نصوص مسرحية تاريخية).

38- هاجس الكتابة (تأمُّلات في الإبداع الأدبي).

39- معارك الغد (نقالات).

40- تحديات عصر جديد (تأمُّلات).

41- تجيئين كالماء، وتذهبين كالريح (نصوص مفتوحة بين القصة والقصيدة).

42- البحث عن ليلى العامرية (تأملات).

43- الصحراء، وأشجار النفط (تأمُّلات).

44- كلمات من ليلى سليمان (مقالات حول قضية المرأة).

45- شوق الأجنحة إلى الرحيل (رحلة طائر بئر الغنم إلى عواصم الغرب).

46- حصاد الذاكرة (من أدب السيرة).

47- العودة الدائمة إلى خانة الصفر (تأمُّلات).

48- مع إيقاع العصر (تأمُّلات).

49- تجربتي الأدبية (من أدب السيرة).

50- الانتماء لأشجار النخيل (من أدب السيرة).

51- سيرتي الذاتية، زمن الطفولة (من أدب السيرة).

52- الدخول إلى بهو المرايا (تأمُّلات).

53- المنعطف القادم (تأمُّلات).

54- أمواج الليل (تأمُّلات).

55- خواطر في الأدب والفن (مقالات).

56- شخصيات وتاريخ (أدب التراجم).

57- سِفر الأسفار (أدب الرحلات).

58- الإنسان أوَّلًا (تأمُّلات في الوضع الإنساني).

59- أفق التواصل بين الشرق والغرب (تأمُّلات في العلاقة بين العرب والغرب).

60- المرافئ البعيدة للسلام (تأمُّلات في قضايا سياسية).

61- سياحات في الصين وأفريقيا (من أدب الرحلات).

62- ما أكثر هذه النوافذ، ما أضعف هذا النور (تأمُّلات).

63- عبير تلك الأيام (من كتب التاريخ الأدبي).

64- وجع الرحيل (كتاب المراثي).

65- من مُفكِّرتي الشخصية (من أدب السيرة الذاتية).

66- نحو خطاب ثقافي جديد (تأمُّلات في الواقع الثقافي).

67- صقر يطارد سحابة سوداء (تأمُّلات وذرَّات).

68- جولة في حدائق أبوللو (تأمُّلات في الشأن الليبي).

69- سعيدًا تجري أيُّها النيل (تأمُّلات في الشأن المصري).

70- نبيٌّ بلا أتباع، تصحبه الأمواج (تأمُّلات).

71- بدايات القصة الليبية (بحث في تاريخ الأدب القصصي في ليبيا).

72- أبناء الماء، وأبناء النار (أبحاث عن العلاقة بين العرب والغرب).

73- القذافي: البداية والنهاية (كتاب يؤرِّخ لمرحلة القذافي في ليبيا).

74- في هجاء الطُّغاة (قصص).

75- حياة من حبر وورق (مقالات أدبية).

76- عبقرية الثورة الليبية ضد الطاغية (كتاب يؤرّخ للثورة الليبية، ودوافعها، وأسبابها).

77- ميراث الفضيحة (قصص).

78- هل تحبِّين برمودا؟ (قصص).

79- رجل المساحة البيضاء (قصص).

80- الطريق إلى قنطرارة (رواية).

81- الحالة الكلبية لفيلسوف الحزب (هجائية في أنظمة الحزب الواحد) (رواية).

كتب عن المؤلِّف

1- تقنيات السَّرد الروائي، ماجستير للباحث نصر محمد سعد القذافي.

2- القصة في أدب الفقيه، محمد سالم القزدار.

3- نار الشرق العاشقة، د. علي الراعي، وآخرون.

4- سُلطة الخيال التعزيمية، د. صبري حافظ، وآخرون.

5- نافخ الرماد، عمر أحمد جبريل.

6- خرائط الروح ترسم خريطة جديدة للسرد العربي، وقائع ندوة عالمية.

7- حزمة أحلام، أمينة البارودي.

8- الاغتراب والحلم في أدب أحمد إبراهيم الفقيه، للباحث شعبان عبد الحكم.

9- الثلاثاء والمأثور الشعبي، عبد الحكيم أبو عامر.

10- أحمد إبراهيم الفقيه، ودوره الرِّيادي في أدب القصة، د. رأفت حسن رستم.

11- الأبعاد الدلالية للمكان الروائي في ثلاثية الفقيه، للباحث بحر غيث أحمد علي.

12- تقنية السرد في رواية خرائط الروح، مصباح الشريف مصباح طبيقة.

13- الثلاثية الروائية لأحمد إبراهيم الفقيه في منهج التحليل التفاعلي، إبراهيم الصديق أحرير.

14- بناء الشخصية الروائية في ثلاثية الفقيه، أحمد غيث أحمد.

15- الشخصية القصصية في الأعمال السَّرديَّة، لأحمد إبراهيم الفقيه، رقية عبد الرحمن عكاشة.

16- (المتعالية القرآنية في... رواية خرائط الروح للدكتور الأديب أحمد إبراهيم الفقيه/ دراسة في التَّناص) للباحثة ابتسام إسماعيل الوافي.

17- الزمن في ثلاثية الفقيه، د. فاطمة الحاجي.

يضمُّ موقعه على الإنترنت أغلب أعماله الروائية والمسرحية، وكتبًا عن سيرته الذاتية، وبعض البحوث عن إبداعه الأدبي وإنتاجه الفكري ahmedfagih.org.